مع المخطوطات العربية

صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر

تأليف

كراتشكوفسكي

تعريب

الدكتور محمد منير مرسي

المدرس بكلية التربية ـ جامعة عين شمس

طبعة منقحة ١٩٦٩

الناشر

دار النهضة العربية

٣٢ عبد الخالق ثروت ـ القاهرة


Ex libris
И.Ю.КРАЧКОВСКАГО.

مقدمة المترجم

بدأت قصتى مع هذا الكتاب منذ ما يقرب من ثمانى سنوات عندما كنت أقوم بتدريس اللغة العربية بجامعة تاجيكستان بالاتحاد السوفيتى. وكان من الطبيعى أن أتعرف بطريقة مباشرة على الدراسات العربية هناك وما بذل من جهود فيها. وقد هالنى ذلك التراث الضخم الذى خلفه شيخ المستعربين الروس «كراتشكوفسكى» (١٨٨٣ — ١٩٥١) الذى وهب كل حياته لخدمة اللغة العربية وآدابها . وقدم جهودا عظيمة وأعمالا جليلة لا يتسنى القيام بها إلا لرجل مثله بما أوتى من ذوق أدبى رقيق ومعرفة واسعة عميقة وإجادته لعدد كثير من اللغات. ولكراتشكوفسكى فضل السبق فى الكشف عن كثير من تراثنا المطمور : فهو أول من اكتشف مخطوط « المنازل والديار » الذى كتبه الأمير السورى أسامة بن منقذ . بخط يده إبان الحملات الصليبية . ومما يبرز أهمية هذا الاكتشاف أن المستشرق الفرنسى « ديرانبور » قضى ما يقرب من نصف حياته فى دراسة أسامة ابن منقذ ومع هذا لم يكن يعرف شيئاً عن هذا المخطوط . وإلى جانب هذا قام كراتشكوفسكى بنشر « رسالة الملائكة » لأبى العلاء وكتاب « البديع » لابن المعتز ولوحتين برونزيتين من لوحات الاستغفار من مملكة سبأ ، وأقدم رسالة عربية من بلاد الصغد اكتشفت فى وسط آسيا ، والأراجيز الثلاثة لوصف الطرق البحرية لأحمد بن ماجد ملاح فاسكو دى جاما فى رحلته الأولى ١٤٩٨ من مالندى إلى الهند . وإلى جانب هذا أيضاً كتب فصلا جديداً ممتعا يتعلق بأحد الفروع المجهولة فى تاريخ الأدب العربى ونعنى به « الأدب العربى فى شمال القوقاز » . وكانت له صلات ومراسلات واسعة مع كثير من مشاهير الأدب العربى الحديث مثل أحمد تيمور وابنه محمود وأمين الريحانى وميخائيل نعيمة . وهو يتحدث عن كل هذا وغيره فى هذا الكتاب . هـــذا إلى جانب ما كتبه من مئات المقالات والأبحاث عن الأدب العربى قديمه وحديثه .

وقد سبق أن أشرت إلى هذا فى مقالة لى بمجلة « المجلة » (عدد ٨١ سبتمبر ١٩٦٣) وذكرت أن كتاب « مع المخطوطات العربية » بالذات هو فى رأيى أجمل ما كتب كراتشكوفسكى . وأشرت هناك أيضاً إلى قصة ترجمتى للكتاب .

فعندما قاربت الانتهاء من ترجمته بعثت برسالة إلى الدكتورة ف كراتشكوفسكايا زوجة المؤلف الأستاذة بجامعة لنينجراد وردت على فى ١٣ مايو سنة ١٩٦٢ برسالة جاء فيها ما ترجمته :

« إننى سعيدة جداً بأنكم تقومون بترجمة كتاب مع المخطوطات العربية وإننى أتمنى أن تواتينى القوة حتى أرى الترجمة مطبوعة باللغة العربية . »

وعندما انتهيت من الترجمة كلها رحبت دار الطبع والنشر باللغات الأجنبية فى موسكو بطبعها . وجاء فى خطابها لى فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٦٢ أنها قبلت نشر الكتاب وأن نشره سيكون فى عام ١٩٦٤ . ونشر الكتاب بعد أن غادرت الاتحاد السوفييتى . وبعدها سافرت إلى إنجلترا وهناك فى لندن فى ٢٨ يناير ١٩٦٦ ، تسلمت رسالة رقيقة بالعربية من الأستاذ بافلوف رئيس التحرير المسئول بدار الطبع بموسكو وفيها يقول :

« نشكركم جزيل الشكر على ترجمتكم الموفقه لكتاب « مع المخطوطات العربية » ونستميح عذرا لتأخرنا فى إرسال نسخة منه لكم . وهكذا بادرنا على الفور أرسلنا لكم نسخة نأمل أن تستلموها فى أقرب وقت ومرة أخرى نشكركم على مساهمتكم الخيرة فى تنمية أواصر الصداقة والعلاقات الثقافية بين بلدكم وبلدنا . ونتمنى لكم شخصيا ولعائلتكم أو العافيه والنشاط الخلاق والنجاح . »

وبعدها بأيام وصلتنى ثلاث نسخ من الترجمة . وكان فرحى زائداً لأن الترجمة خرجت إلى النور فى حياة زوجة المؤلف وبذلك تحققت أمنيتها التى عبرت عنها فى خطابها لى . بل وكانت فرحتى أشد عندما تصفحت الكتاب فوجدت أنها هى نفسها التى قدمت له . إلا أننى من ناحية أخرى تألمت عندما وجدت أنه ليس هناك أى ذكر لمترجم الكتاب وأن هناك أخطاء فنية وأساوية فى الترجمة ربما قللت كثيرا من قيمة العمل نفسه . ومن ثم فإننى الآن بعد عدة سنوات من صدور الطبعة الأولى فى موسكو أقدم الطبعة الثانية فى صورة منقحة تتلافى ما فى الأولى من مآخذ . ويسعدنى أن أتقدم بالشكر إلى الإستاذة ف . كراتشكوفسكايا زوجة المؤلف على تلطفها بالإجابة على الاستفسار الخاص ببيت شعر لسلامة بن جندل . كما يسعدنى أن أسجل شكرى أيضاً الأستاذ فلاديمير ديمتشك زميلى السابق بجامعة

تاجيكستان على المساعدة القيمة التى قدمها لى سواء عند إعداد الترجمة أو فى تسهيل الاتصالات بدار النشر والطبع بموسكو . وإنى أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بالشكر والتحية لأصدقائى وزملائى وطلبتى السابقين بالاتحاد السوفيتى متمنيا لهم جميعاً الصحه والسعادة والتوفيق .

وأخيرا فإننى إذ أقدم هذا الكتاب فى طبعته الثانية المنقحة إلى قراء العربية فإننى أشعر بثقة كبيرة فى تقديرهم لهذا الجهد المتواضع .

مصر الجديدة فى ١٩٦٩/٨/٢٨

محمد منير مرسى

مقدمة الطبعة العربية الأولى

إن كتاب اغناتى كراتشكوفسكى (١٨٨٣ — ١٩٥١) «مع المخطوطات العربية» يتحدث عن نتاج هذا العالم السوفييتى المستعرب البارز، وعن إقامته فى البلدان العربية، وعن المخطوطات النادرة التى وجدها وقرأها، وعن الناس ذوى الصلة بالأدب العربى؛ وهو يلقى ضوءا ساطعا على مختلف مراحل نشاطه العلمى، والاكتشافات السعيدة، وعن خيبات الأمل أحيانا.

ولد اغناتى كراتشكوفسكى فى مدينة فيلنوس (فيلنيوس الآن، فى جمهورية ليتونيا الإشتراكية السوفييتية). وبعد ذلك بقليل انتقل الأب وأسرته فى وظيفة إلى طشقند. وكان الأب يصطحبه أحيانا فى أسفاره؛ فكانت الأوزبكيات فى قراهن يداعبن الصغير ذا العينين الزرووقاوين، وتعلم هو الكلام باللغة الأوزبكية. وهكذا، وعلى نحو غير ملحوظ، اتصل كراتشكوفسكى، منذ نعومة أظفاره، بالحياة فى آسيا الوسطى. منذ أن كان تلميذاً ثانوياً راح يدرس النحو العربى بنفسه. أما حين انتسب، عام ١٩٠١، إلى كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورغ (ليننغراد اليوم)، فلم تعد تقتصر دراسته على اللغة العربية والأدب العربى، بل راح يدرس لغات شرقية أخرى؛ فهو يلتهم المئات من الكتب والمجلات فى العلوم الشرقية، والمخطوطات العربية. وحين أنهى الجامعة سنة ١٩٠٥، استبقى هناك للاستعداد للعمـــل التعليمى، وفى عام ١٩٠٨ أرسل إلى الشرق العربى لاستكمال دراسته

وإن البرنامج الذى وضعه كراتشكوفسكى بنفسه للدراسة فى الجامعة والرحلات إلى الشرق فى مذكراته بتاريخ الأول من كانون الثانى (يناير) ١٩٠٦، لبرنامج يبعث على الدهشة بسعة نطاقه وعمق تفكيره. فالمكان الأول تحتله، طبعا، الآداب العربية، وبخاصة الشعر، واللغة، واللهجة السورية فى اللغة العربية، ثم الكتابات الأثرية العربية الشمالية، ولهجات الجنوب العربى، التى اصطدم بها بعد وقت طويل (الفصل «لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ»)، ويرتسم موضوع الأطروحة — إصدار ديوان الشاعر الوأوا. ومنذ ذلك

الحين لم يغب أبداً عن ناظر كراتشكوفسكي الشعراء العرب وعلم المعاني والبديع. وقد كان أول تقرير علمي، سنة ١٩٠٧، مكرسا لإبداع أبي العتاهيــة، وكان قسما من المؤلف التاريخي غير المطبوع «الخليفة المهدي»، الذي نال عليه الطالب اغناتي كراتشكوفسكي ميدالية ذهبية لدى تخرجه من الجامعة. وأن سعة الإطلاع الكبرى لدى كراتشكوفسكي كمؤرخ وخبير بالمراجع العربية لظاهرة، مثلا، في دراسة «رسالة من بلاد الصغد» النادرة المكتوبة على الجلد التي عثر عليها بين أنقاض قصر على جبل موغ. وعلى أثر المقالة الباكورة، سنة ١٩١٠، المتنبي وأبو العلاء» صدرت أبحاث مكرسة لورهين المحبسين «أبي العلاء»، والشنفرى، وغيرهما من الشعراء، كسلامة بن جندل (الفصل «رسالة ماجيستر غير مكتوبة»).

كان اللقاء الأول مع العرب على الباخرة، في طريق كراتشكوفسكي إلى بيروت، في تموز (يوليو) ١٩٠٨. ولقد كان الحديث يومذاك سقيما. ولكن ما أن مضى أسبوع حتى كان كراتشكوفسكي قد سجل ثمانية ألغاز من كلمات تلميذ في إحدى القرى. وعلى نحو سريع نسبياً «شرع يتكلم»، وتعلم لا «الشراء» فقط بل و«البيع». أيضا. ومع ذلك فقد كتب لشقيقته، في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٩، يقول لها أن اللغة العربية «تزداد صعوبة كلما ازداد المرء دراسة لها».

وفي سنوات ١٩٠٨ — ١٩١٠، التقى كراتشكوفسكي في لبنان، وسورية، وفلسطين، ومصر بممثلي مختلف الأهلين العرب. ولقد كان يهتم بالجميع: بربابنة الزوارق، ونواطير الكروم، بسواقي الدواب، ومساحي الأحذية في ضواحي القاهرة (الفصل، ارستقراطي القاهرة — الفلاح»)، بالتلامذة والمعلمين، بشيوخ الريف ومشايخ الأزهر، برجال الصحافة والخطباء السياسيين والواعظين من مختلف العقائد، وبالشعراء والكتاب. ولقد استمرت علاقات الصداقة قائمة حتى النهاية بين كراتشكوفسكي وأمين الريحاني، وجرجي زيدان، وأحمد تيمور، وميخائيل نعيمة، ومحمود تيمور، ومحمد كرد علي وغيرهم.

لقد كان المراس في مطالعة النصوص والمخطوطات العربية، المكتسب منذ أيام الجلوس على مقعد الطلبة، من الرسوخ بحيث كان كراتشكوفسكي يفهم بسهولة المخطوطات العربية التي كان يتصفحها في المكتبات الشرقية والوطنية (الفصلان:

« معاصر أول غزوة صليبية » و « من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبورغ »).

وقد تعرف كراتشكوفسكى على المكتبة الشرقية فى بيروت تعرفا سريعا منذ تموز (يوليو) ١٩٠٨ . ومنذ أيلول (سبتمبر) أصبح هناك زبونا دائما . وهنا ، فى الطابق الأعلى من مبنى جامعة القديس يوسف ، كان كراتشكوفسكى يقضى الساعات وراء طاولة صغيرة ، واضعا قدميه على مقعـــد خشبى ، بفضل عناية البروفسور ل . شيخو ، إذ أن الأرض كان بلاطها من الحجر . وقد قضى هناك شتاءين ، وهو يطالع المخطوطات ، باستثناء شهرين من ربيع ١٩٠٩ وشتاء ١٩١٠ . إذ كان يدرس مخطوطات القاهرة . ولقد كان كراتشكوفسكى يفرز بصورة صائبة المخطوطات الفريدة ، كما حدث ، مثلا ، فى الأزهر حيث وجد مقالة أبى العلاء قبيل سفره من القاهرة .

وقد استمرت البحوث عن نسخ لمخطوطات بطرسبورغ (لينينغراد) للشاعرين الوأواء وابن المعتز فى القاهرة ، وبيروت ، ودمشق ، والقدس ، ولـكن العثور بصورة غير متوقعة على مخطوطة قصائد سلامة بن جندل فى مكتبة الإسكندرية قد أثار تأثراً عميقاً فى نفس كراتشكوفسكى . ولقد ظل بعد ذلك وحتى أيامه الأخيرة آسفا لـكونه لم يكرس أطروحته لنتاج بن جندل (الفصل « رسالة ماجيستر غير مكتوبة ») .

وقد انتخب كراتشكوفسكى عضوا فى أكاديمية العلوم السوفييتية ، سنة ١٩٢١ ؛ ونوه العرب أنفسهم بما له من فضل على العلم العربى . فقد انتخب ، سنة ١٩٢٣ ، عضوا فى المجمع العلمى العربى بدمشق . كما كان كراتشكوفسكى عضوا فى الأكاديميات ومختلف الجمعيات العلمية فى جملة من البلدان الأخرى .

وبلغ مجموع ما كتبه كراتشكوفسكى ستمائة دراسة علمية . ولـكن الميادين الأساسية لنشاطه العلمى إنما كانت تاريخ ونظرية الآداب العربية ، سواء فى القرون الوسطى أم فى العصر الحاضر . وكان أهم مؤلفات كراتشكوفسكى فى أدب القرون الوسطى بحوثه عن الشعراء العرب الوأواء الدمشقى ، وابن المعتز ، وأبى العلاء المعرى . وتحت إشراف كراتشكوفسكى صدرت الطبعة الـكاملة الروسية الأولى لترجمة « ألف ليلة وليلة » . وقد ترجم إلى اللغة الروسية الأثر الأدبى العربى

الشهير « كليلة ودمنة » ، وقصة « الأيام » للكاتب المصرى المعاصر طه حسين .
واهتم كراتشكوفسكى اهتماما كثيراً بإصدار كتب مدرسية للغة العربية . أذكر على سبيل المثال أن القادوس العربى — الروسى الأول للغة العربية المعاصرة للبروفسور بارانوف قد تم تأليفه بمشاركة كراتشكوفسكى وتحت إشرافه . وفى عام ١٩٦٣ ، صدرت فى الإتحاد السوفييتى ترجمته لـ « القرآن » .

وفى أيام الحرب الوطنية الكبرى التى خاضها الشعب السوفييتى ضد الفاشية ، فى شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ القاسى ، حيث كانت مدينة لينينغراد محاصرة ومعرضة بدون انقطاع لنيران المدفعية والقصف الجوى ، قام كراتشكوفسكى بعمل عظيم متفان فى صيانة القيم العلمية والثقافية ، وبخاصة المخطوطات العربية الثمينة ، المحفوظة فى معاهد لينينغراد ومتاحفها ومكتباتها. ولقد قدرت الحكومة السوفييتية نشاط كراتشكوفسكى فى ظروف حصار لينينغراد تقديراً عاليا ، فمنحته أعلى وسام سوفييتى ، إلا وهو وسام لينين . وفى عام ١٩٤٥ نال وسام لينين الثانى تقديراً لمآثره العلمية الفذة .

إن كتاب « مع المخطوطات العربية » قد ألفه كراتشكوفسكى أيام الحرب ، بصورة رئيسية ، فى موسكو وضواحيها ، حيث كان المؤلف قد أجلى أثر مرض عضال أصيب به وقت حصار لينينغراد . فمكتبته الخاصة كلها ، وجميع المواد والمخطوطات اللينينغرادية ، لم تكن تحت متناول المؤلف . وكانت الذاكرة الرائعة هى العون له . وما كان كراتشكوفسكى يقتصر فى الكتاب على الإشارة إلى المخطوطات والمكتبات . إنما كان يتذكر باقتضاب ، ولكن بجلاء « بما يمتاز به من حرارة العاطفة ، العلماء من رجال السلف ، ومعلمية ، وتلامذته ، وأمناء المكتبات ومستخدميها .

حين كان المؤلف يقرأ مقطوعات من كتاب « مع المخطوطات العربية » كان يجتذب المستمعين اجتذابا آسراً . وقد نفدت الطبعات الخمس باللغة الروسية بسرعة خاطفة . وترجم الكتاب إلى اللغات التشيكية،والبولونية.والألمانية ، والانكليزية ، والفرنسية . وكان القراء من جميع أرجاء الاتحاد السوفييتى ومن الخارج يبعثون لكراتشكوفسكى بانطباعاتهم . بل لقد ظل ورود الرسائل مستمراً والمؤلف

لم يعد بعد فى عداد الأحياء . وإن رسائل القراء لتؤلف اليوم أرشيفا كاملا .

إن الطبعة الحاضرة هى أول ترجمة كاملة لكتاب « مع المخطوطات العربية » من الأصل الروسى إلى اللغة العربية . وهذه الطبعة تحتوى أيضاً على عدد كبير من المواد المصورة التى لم يسبق نشرها ، وقد أخذت من أرشيف العالم المرحوم ومن المخطوطات العربية ، المحفوظة فى لينينغراد .

فيرا كراتشكوفسكايا

١٩٦٣

مقدمة الطبعة الروسية الثالثة

إن صدور الطبعة الثالثة لكتابى هذا يؤكد أنه قد وجد لنفسه مكانا فى ثقافتنا . وعن هذا يتحدث أيضاً سيل الرسائل الذى لم ينقطع حتى الأوقات الأخيرة . كما تتحدث عن هذا أيضاً الاستجابات الآتية من مختلف أطراف بلادنا ومن ممثلى مختلف الاختصاصات ومن أناس متباينين فى الأعمار والأوضاع . وتؤكد هذا أيضاً إعادة طبع بعض أجزاء الكتاب فى سلسلة « مكتبة أوغونيوك » «الشعلة » التى تتمتع بشعبية واسعة . وشمل الاهتمام بالكتاب البلاد العربية وبلاد الغرب على السواء ويجب على القول بصراحة أننى لم أكن أتوقع مثل هذا الصدى الواسع. ولعلى لو كنت تنبأت بذلك لكتبت بعض أجزاء الكتاب بطريقة أخرى أكثر وضوحاً وتفصيلا . ولكن لما كان الكتاب قد « تألف » هكذا « تاريخيا »فلندعه إذن على الشكل الذى ظهر به لأول مرة وإن كانت هناك أشياء كثيرة قد تغيرت منذ تلك الفترة .

وهذه الفكرة جعلتنى أخرج الكتاب فى طبعته الثالثة بدون إضافات أو تغييرات جوهرية ، اللهم إلا بعض التعديلات البسيطة المتعلقة أساسا بالأسلوب . واضفت فى فصل الملاحظات قائمة بأهم التقاريظ لكتابى وقائمة بترجماته المعروفة لى . ومع أن المواد التى فى يدى غير كاملة بالطبع إلا أن هذه القائمه تبين بوضوح كاف — كما يبدو لى — أن الكتاب وجد صدى فى أوساط جد واسعة سواء عندنا أم فى الخارج .

وإنى لأرى ، حين أتوجه إلى ذاكرتى مرة أخرى بعد مضى عامين على الطبعة الثانية ، أن الكتاب قد استنفذ أوضح الأمثلة عن تلك الأدوار التى لعبتها المخطوطات فى حياتى . ولذلك لم تتحقق فى هذه المرة أيضاً رغبة من رغبات العديد من المراسلين .

وكثيرا ما وجه إلى سؤال وعتاب عن السبب فى أننى لم أتذكر (فى هذا الكتاب) ذلك العالم أو غيره ممن عرفت أو تحدثت عنهم فى أماكن أخرى .

ولماذا لم أ كتب أى شىء عن بعض الوقائع فى تاريخ حياتى العلمية ! وكانت إجابتى من قبل والآن إجابة واحدة هى أن الـكتاب لا يستنفد إلى حد بعيد كل ذكرياتى سواء أ كانت عن الناس أم عن أعمالى ، وأننى لم أتعرض فيه إلا لأولئك الذين قادتنى إليهم المخطوطات أو الذين كانوا متصلين بها عن قرب . وليس من الممكن إطلاقا اعتبار الـكتاب انعكاساً لـكل حياتى وكل ذكرياتى . ولذلك فإننى عدلت فى هذه الطبعه الجديدة عن الرغبة فى إضافة فصول عن أناس آخرين ووقائع أخرى فى حياتى ، حتى لا أخل بالمحور الرئيسى والشكل المحدد للـكتاب .

ولقد كان أمثال هؤلاء الناس وهذه الوقائع عديدة وأن كثيرا من الأشياء التى لا توجد عنها فى هذا الـكتاب أية كلمة لعزيزة على نفسى بمقدار تلك الأشياء التى تحدثت عنها فيه . ولقد شعرت طيلة السنوات الأخيرة كيف أن وجوه الراحلين من « المعلمين والتلاميذ » ترتسم أمام ناظرى بوضوح واصرار تطلب بسلطان مطرد تجسيمها فى كلمات وهى تسيطر على إرادتى كما سيطرت عليها المخطوطات فى الفترة القريبة . وقد لقى وضع كتاب عن المخطوطات الأعتراف به وأظهر أن فى وسع الحديث عن الأمزجة والانفعالات الشخصية دخـــول تيار الثقافة العريض . ولقد بدا لى أنه لا بد من الاستجابة لأصوات أخرى تعلن بقوة عن حقها فى ذاكرتى .

ولعل كتاب الذكريات القادم سيكون — إذا سمحت قوتى — اهداء إلى « المعلمين والتلاميذ » .

لينينغراد

نيسان (أبريل) ١٩٤٨

مقدمة الطبعة الروسية الثانية

لقد واتى الحظ هذا الكتاب : فقد كتبته فى سنوات الحرب القاسية ، إلا أنه صدر فى الأيام المشهودة من آيار (مايو) ١٩٤٥ ، حين استقبلت البلاد كلها باحتفال ، النهاية المظفرة لبطولات أعوام الحرب . وكان الشعور جد قوى بالرغبة فى الجهد السلمى ومواصلة العمل الذى انقطع فى مجال البناء الجليل لثقافتنا. وقد رحب بهذا الكتاب ترحيبا وديا حتى من كان فى حياته بعيداً عن المخطوطات العربية ، ومن لم يفكر من قبل مطلقا فى علم اللغات والآداب الشرقية . وأظهرت الرسائل والتقريظات طيلة نصف عام أن الطبعة الثانية ضرورية وأن الكتاب قد وجد لنفسه مكانا فى ثقافتنا المتسعة . وكان إعداد الطبعة الثانية لا فى المكان الذى نزحت إليه (زمن الحرب) بل فى مكتبتى بين الأصدقاء القدامى ، أعنى المخطوطات والكتب التى تحملت ويلات حصار ليننغراد . وعندها استطعت أن أتحقق من صحة التواريخ وأن أصحح ما ليس مضبوطا فى الاقتباسات إذا كانت قد خانتنى الذاكرة ، وأن أوضح بعض التفصيلات الجزئية .

ولقد أضفت إلى الكتاب فصلين هما الثالث والسابع اللذين كتبتهما فى ظروف أخرى بالنسبة للطبعة الأولى . وأنى أشعر بأن أسلوبهما لايشبه أحيانا أسلوب الفصول السابقة . فقد يكون فى أحدهما كثير جداً من الاقتباسات والوثائق التى أمكننى بلسانها التحدث عن نفسى بطريقة أسهل من كلماتى الخاصة . ولقد أردت أن يرى فى كتاب عن المخطوطات العربية صوت أصدقائنا الكثيرين فى البلاد العربية سواء فى الماضى أم فى الحاضر .

وما خشيت من عدم محافظتى على الترتيب الزمنى فى الفصول التى ألفت فى أوقات مختلفة ومن عدم توفر الوحدة الكاملة فى طريقة العرض أو وجود التكرار أحيانا . فالحياة بين المخطوطات لها أيضاً أشكالها المتنوعة الوجوه كالحياة بين الناس . ولهذا فمن غير اللازم أعطاء ترتيب دقيق أو شكل خارجى منظم للذكريات عن هذه الحياة بين المخطوطات . وقد كتب كل فصل على حدة . وكل فصل يحمل

طابعا مستقلا بذاته. وإذا كان أحد هذه الفصول يضيف شيئا ما إلى الفصل الآخر أو يتداخل معه مرارا فى التفصيلات فلا يلومنى على هذا من سيقرأ الكتاب بجزءا.

وإنى لجد شاكر لكل من استجاب بكلمات خيرة وبتمنيات طيبة للأفكار العزيزة على فى هذا الكتاب. فقد ظهر الفصلان الجديدان إلى حد ما كاستجابة لبعض الرغبات، وما أنا بملوم على أننى قد حافظت على المحور الرئيسى للكتاب: ففى كل مكان فيه انطلقت من الذكريات عن المخطوطات والكتب، وفى كل مكان لم أتحدث إلا عن أولئك الناس الذين قادتنى إليهم على طريق حياتى المخطوطات والكتب، قديمها وجديدها، عربيها وروسيها.

لينينغراد

كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٥

افتتاحية

أرجو أن لا ينظر إلى هذا الكتاب على أنه مذكرات شخصية للمؤلف. فإننى لم أكتب هذه المذكرات عن نفسى، وإنما عن المخطوطات العربية التى لعبت دورا كبيرا فى حياتى، والتى شاء لى الحظ أن أصادفها، أو التى شقت طريقها إلى دنيا العلم بيدى.

وكثيرا ما استدعت تلك المخطوطات من ذكريات عن المكتبات المختلفة التى اختزنتها، وذكريات عن أولئك الناس الذين ارتبطت بهم، وبالطبع فإنه كثيرا ما استدعت من ذكريات عن نفسى. ولكن ما كان هذا كله بالأمر الرئيسى. فلقد أردت قبل كل شىء أن أظهر ما يشعر به العالم فى دراسته للمخطوطات، وأن أكشف قليلا عن تلك المشاعر التى تثيره، والتى لا يتحدث عنها مطلقا فى أبحاثه الخاصة، بل يقتصر على بسط النتائج العلمية التى استخلصها. لقد أردت أن أتحدث عن عملى المكتبى بأفراحه واتراحه التى لا يعرفها الكثيرون البتة إذ يعدون هذا العمل مملا وجافا وانعزالا عن دنيا الحياة.

وقد يرى الناس فى حديثى فيضا من العاطفة والرومانتيكية. إلا أنى لا أخاف هذا اللوم: فهكذا عشت فى عملى وهكذا كانت ذكرياتى عنه.

إننى لم أتعمد فى هذا الكتاب السعى إلى تبسيط العلم؛ فلا يهمنى ألا يتذكر القارىء جميع ما ورد فيه من الوقائع المنفردة؛ أو أسماء الأعلام. ولكننى اقتصرت فى تحديد مادة الكتاب على المواد القريبة من محيط عالمى الذى أعيش فيه, وإنى لأكتب الآن للمرة الأولى عن أشياء كثيرة وأخرى متعددة بطريقة تختلف عن ذى قبل. ولهذا قد يجد القارىء من حين لآخر فى هذا الكتاب أشياء جديدة ومفيدة للعلم. على أن هذا ليس ما يهمنى من الأمر. وإنما الذى يهمنى هو شىء آخر. إننى لا أخفى أننى أردت أن أقوم بشىء من الدعاية لميدان عملى؛ وأن أتحدث بملء صوتى عن علم اللغات والآداب الشرقية. لقد أردت أن أبين قدر طاقتى كيف أن ثمة أناسا يعملون فى هذا الميدان لا لمجرد أن لديهم ذوقا ذاتيا؛ غريبا على حد ظن بعضهم؛ يجتذبهم إلى هذا العمل، وأن هؤلاء الناس

يطوفون بهذا الميدان لا بدافع الولع بالغرائب وأنهم ليسوا بزهاد ينعزلون عن عن الحياة . إن ذكريات مشاعرى نحو المخطوطات تحتم على أن أتكلم عن كل نقطة تفصيلية فيها لأنها تتكامل فيما بينها وترتبط بمسائل ضخمة تتعلق بتاريخ الثقافة وجميعها تصب ، آخر المطاف ، فى تيار قوى نحو مثل الإنسانيه الرفيعة .

هذا هو ما كان يستحوذ على فكرى دائما وأننى أود أن تجد هذه الأفكار الطريق إلى عقول وقلوب من سيقرؤون هذا الكتاب .

أول آب (أغسطس) ١٩٤٣
مصحه « اوزكويه »

١ — فى قسم المخطوطات

(إهداء إلى ا . آ . بيتشكوف)

تمهيـــد

(١٩٠١)

فى بداية هذا القرن ، سنة ١٩٠١ ، عبرت برعشة وإجلال عتبة المكتبة العامة فى بطرسبورغ المرة الأولى . وكنت آنذاك طالبا فى الصف الأول مازالت تستحوذ عليه الانطباعات الحية التى تركتها فى القصة التحررية القديمة لمردوفتسيف « معالم العصر » ، حيث تضمنت اشارات كثيرة إلى تلك المكتبة العامة ومديرها بيتشكوف . ولو أننا جمعنا كل ما كتب عن مكتبتنا فى مؤلفات أدبية فقط لأصبح لدينا كتاب ممتع مفيد يصور بوضوح حياتنا الاجتماعية ، قصة كفاحنا من أجل حرية الفكر فى صور ملونة أحيانا بروح حماسية عالية وأحيانا أخرى بتراجيديا عميقة .

والآن وبعد أربعين سنة من زيارتى الأولى لتلك المكتبة العامة أدخل إلى القاعات المهيبة بقسم المخطوطات وأرى خازنها العجيب واسمه لايزال بيتشكوف ذلك الإسم الذى كان يعرفه جيداً جيل آبائنا وأجدادنا ، وأحس فى صدرى حماسة رائعة وأشعر عظم الأعمال التى تحقق فيها .

ولنا نحن المستشرقين ، كان قسم المخطوطات دائما ومازال مدرسة نادرة . دخلناه ونحن طلبة شبان خجلون وفيه قمنا بأبحاثنا الأولى . ومازلنا نزوره شيبا بعد مرور عشرات الأعوام ، للدراسة مع تلامذتنا ونوجد إليه تلاميذ تلامذتنا .

وبين هذه الجدران المرتفعة الصارمة إلى حد ما ، ولدت مؤلفات ورسائل لا يمكن أن تحصى أو تعد وتحقيق كثير من الاكتشافات العلمية البارزة حين دقق بعضهم النظر فى إحدى تلك المخطوطات المبعثرة ثم تراجع إلى الوراء على كرسيه ليتأمل ما عرض له من الأفكار ؛ قد يحس بفكرة جديدة غير متوقعة . وعندئذ

يشعر بانفعال يغمره ببهجة العالم العظيمة . ذلك أن عملية الإبداع العلمى عزيزة وحبيبة إلى نفس كل عالم سواء فى ذلك من يقف فى المختبر ، أو من يدقق النظر فى المخطوطات الملقاة على تلك المنضدة .

كان كل شىء هناك يحفز على العمل ويجعل الإنسان فى الحال منغمسا فى جوه.. فكان يصعب علينا أحياناً أن نصدق أن ثمة خارج جدران المكتبة حياة تضطرم فى الشارع بجلبتها وضوضائها . فهنا فى المكتبة صمت وهدوء كما فى أى مختبر جيد . وإذا كان « نيستور المؤرخ »* فى تمثاله الأبيض دائم العكوف على منضدته يكتب ويسطر دون تعب فإن لهذا التمثال مكانا مناسباً هنا فى هذه المكتبة .. وهنا فى هذه المكتبة يسير بهدوء ذلك الأمين المخلص على تلك الكنوز من المخطوطات وإنك لتجده مستعداً دائماً لتقديم المعونة والنصح والإرشاد لكل من يطلبه . وهنا تسمع فى هدوء خفيف أوراق الكتب والمخطوطات على المناضد. وهنا أيضاً ، رويداً رويداً وخطوة خطوة ، وسطراً سطراً ، يخلق العمل العلمى الذى تخرج نتائجه من بين هذه الجدران العالية إلى تلك الشوارع المضطربة خارج جدران هذه المكتبة لتنشرها صفحات الجرائد والمجلات فى كل البقاع ، ولتستقر هذه النتائج أيضاً فى بطون الكتب على رفوف هذه المكتبة العامة .

ولقد مرت أعوام وأعوام وتوالت أجيال العلماء . ولكن العمل هنا يسير بلا انقطاع . وكما هى العادة دائما تجد الأمين الظريف على قسم المخطوطات يسير بهدوء كأنما هو ملاك طيب ؛ لقد دخـــل عالم التاريخ والأساطير وهو مايزال حيا . فإن ماقدمه إيفان بيتشكوف من خدمات لبلاده وللعلم والعلماء كافة ليرتفع فجأة بوضوح فى احتفال من احتفالاتنا اليوبيلية ، تلك الإحتفالات التى تضىء كل الطريق الذى قطعناه كأنما هى مصباح كبير يلقى بضوئه على صفحات حياتنا وعلى أوراق تلك المخطوطات التى تركت فى حياتنا أثراً لايمحى .

---

* يقصد هنا تمثال مؤرخ وكاتب روسى قديم (عاش فى القرن الحادى عشر ــ بداية القرن الثانى عشر) من نحت أنتوكولسكى . وهذا التمثال موجود فى قاعة القراءة بقسم المخطوطات للمكتبة العامة بلينينغراد .

١ — كتاب قديم

(١٩٠٦)

كنت أجلس فى قسم المخطوطات وأنا بعد طالب ماجيستر حديث العهد تماما فقد انتهيت حديثا من دراستى بالجامعة ، وكان أمامى على المنضدة خمس ورقات من الرق هى كل ما بقى من مخطوط كان كبيراً فيما مضى من الزمن . غير أن هذه الورقات لاتقدر بثمن حتى على حالها الحاضرة أيضاً . « إنها من مجموعة تيشيندورف ! » — هكذا كان يهمس القيم إيفان آفانا سييفيتش بيتشكوف همسا يدل على اهتمام كبير بعد إحضار هذه المخطوطات من خزائنها الخفية فى ذلك القسم . وبشعور خاص رحت أنظر إلى هذه الورقات فوجدت فى نهايتها عبارة : « وكتب سنة اثنين وسبعين ومايتين بالتقويم العربى » . فقلت فى نفسى : « مخطوط أكبر من عمرى بألف عام » . وقرأت بانتباه عظيم فى ذلك الكتاب حيث يتحاور حوار الشيطان مع الموت وأدركت لماذا لم تدرجه الكنيسة فى قانونها ففى هذه المخطوطة تنعكس بوضوح قوى المشاعر الإنسانية بطريقة تخالف دستور الرهبان . ووقع بصرى على توقيع كبير . « وكتب هذا المخطوط ابنا أنطونه البغدادى فى دير القديس سابا واستكتبه ابنا إسحق لطورسيناء » . ومن خلال قراءتى لتلك السطور التى كتبها البغدادى ، رأيت كثيراً من الزاهدين كأنهم خرجوا من صفحات قصص ليسكوف* . ولئن كانت الصحراء قد فرقت بين البغدادى وبين أولئك الرهبان فإنها لم تستطع أن تقطع صداقة التبادل الأدبى بينهم وبينه ، ولم تستطع القبائل البدوية الجاهلية أن تقطع سبيل هذه المخطوطة ولا أن تحول دون انتقالها من فلسطين إلى سيناء .

بعد عام من ذلك التاريخ تجولت على ضفة البحر الميت وقضيت ليلة فى دير القديس سابا وتبادرت إلى ذهنى صور مختلفة التقت واجتمعت حولى وتذكرت قصيدة كان قد كتبها الكسى تولستوى بعنوان « يوحنا الدمشقى » . وكان الدمشقى قد غرس هناك نخلة تقوم الآن إحدى أخلافها وحيدة فى ذلك المكان لتلقى ظلا خفيفا على ساحة صغيرة . ولربما كتب أنطون البغدادى فى ٨٨٥ تحتها هذا المخطوط الذى انتهى به الأمر فى القرن العشرين إلى أن يخزن بعناية فى قسم المخطوطات بمكتبتنا .

---

* هو كاتب روسى صور فى قصصه حياة الزاهدين.

٢ — مترجم كريلوف

(١٩٢٢)

اليوم أحضر بيتشكوف مخطوطا عجيبا . وإنى لشديد الرغبة فى أن أفهم بعمق موضوع علاقات العرب مع الشعوب المغلوبة فى البلاد التى استولوا عليها وأريد أن أفهم الروابط بين المسلمين والمسيحيين . وأن استوضح مسألة انتشار اللغة العربية فى سوريا . ونظرت فى فهرس المكتبة فوجدت إشارة إلى إنجيل غير معروف مكتوب باللغة العربية . وسألت بيتشكوف أن يحضره فأحضر بدلا من ذلك ورقة واحدة كبيرة تزيد على سطح المنضدة التى كنت أجلس عليها . وفتحتها فرأيت بدهشة كبيرة كلمتين مكتوبتين بحروف عربية كبيرة مجوفة تملأ الورقة كلها . وفى تجويف حروف هاتين الكلمتين حروف وسطور كثيرة . هاتان الكلمتان هما « الكسندر نيقولايفيتش » . فاعترانى بادىء الأمر جمود العجب والدهشة . وحين أمعنت النظر إلى هذه السطور رأيت أنها من حروف عربية صغيرة . وفى هذه لسطور فى تجويف تلك الكلمتين كتب كل الإنجيل بلغة عربية . وسألت نفسى: وما علاقة هذا بألكسندر نيقولايفيتش بالذات؟ » . ولكن عندما عرفت بعد ذلك من تقرير المكتبة أن هذا المخطوط جاء إلى المكتبة سنة ١٨٦٨ من رزق الله حسون ، فهمت كل شىء . وبسرعة تجمعت فى ذهنى خطوط حول هذا الرجل العجيب الذى كان خطاطا وسياسيا وشاعرا ومغامرا . . وقد كان قوميا عربيا يخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القـــوقاز ولم يكن ذلك على مايبدو بدون مساعدة ديبلوماسى روسى فى القسطنطينية هو الجنرال بوغوسلافسكى الذى كان من قبل مراقباً على الزعيم الأوارى شامل عندما نفى إلى مدينة كالوغا . وكان حسون قد قضى عدة أعوام فى بطرسبورغ حاول أثناءها فى بساطة أو سذاجة أن يحصل على مساعدة القيصر الكسندر الثانى فى تأسيس دولة عربية مستقلة . وفى سبيل ذلك، على مايبدو ، أهدى له هذا المخطوط الذى هو عبارة عن تحفة فنية خطية .

وعندما دب إليه اليأس والقنوط فى محاولته تلك ، رحل حسون إلى إنجلترا . وهناك استخدم الهجاء اللاذع وكلماته الملتهبة فى الكفاح ضد السلطان التركى

وحزب تركيا الفتاة . وكان لحسون صديق كبير ، هو المستشرق بالمر الذى قتله بعض البدو فى ظروف غامضة عند سيناء فى ١٨٨٢ . وقبل قتل بالمر بعامين توفى حسون فى انجلترا فى ظروف غامضة ويقال أنه مات مسموما عن طريق جاسوس للسلطان التركى .

وقد كان حسون محباً للأدب وعالما به . وقد زينت الكتب التى كتبها بخطه الجميل خزائن المخطوطات المختلفة ببيروت وحلب ولندن . وقد لقى حسون فى بلاد الروس كثيراً من كرم الضيافة مما هز شاعريته فنظم فى مدحهم بضعة قصائد كانت فى الواقع شعراً ساذجا إلا أنها صادرة من قلبه . وكذلك قام حسون بترجمة أصيلة جداً لبعض أشعار الحكمة التى نظمها كريلوف الشاعر الروسى ونقلها من الروسية إلى العربية .

٣ — معاصر هولاكو

(١٩١١)

ظننت اليوم أن بيشكوف قد أخطأ وأحضر مخطوطا آخر غير المخطوط الذى كنت قد طلبته منه .

وبالأمس عندما التقيت مع كتاب بروكلمان «تاريخ الأدب العربى» ، وجدت مصادفة أنه يشير إلى أن فى المكتبة العامة ببطرسبورغ خزنت نماذج خطية لمؤرخ حلب المشهور كمال الدين . وعندئذ شعرت بالحياء والخجل وقلت فى نفسى : أيعرف الأجنبى ما يوجد عندنا بصورة أحسن منا . ونحن لم يسبق لنا حتى الكلام عن هذا الموضوع . وكمال الدين هذا لم يشتهر كمؤرخ أو ديبلوماسى فحسب بل كخطاط أيضاً . ويقص التاريخ أن هولاكو الرهيب انقض على مدينة حلب موطن كمال الدين سنة ١٢٦٠ م ، وطلب من الأخير أن يرجع من القاهرة — حيث هرب — ليشغل وظيفة كبيرة هى وظيفة قاضى القضاة فى سوريا .

وفى الصباح أسرعت إلى المكتبة ونفسى منفعلة ، وأنا لا أصدق أنه سيقع فى يدى خط لرجل مشهور من عصر فتوحات المغول الكبرى . وأحضر بيشكوف

مخطوطا حاملا إياه بما عهد فيه من سرعة وما عرف به من مسحة مكر تشوب حماساته . فأخذت أتصفح أوراقه باستغراب ودهشة . إن ما بين يدى ليس إلا مجلدا لطيفا يحتوى على نماذج خطية من فترة أقرب إلينا بكثير من العصور المتأخرة . إنها من القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وقد أعجبت كثيرا ونظرت باهتمام زائد فى هذا المخطوط إلى التمرينات الخطية الرائعة التى كتبت فى مدينة هرات وبخارى وسمرقند . ولقد فهمت بوضوح أن ما أشاهده إنما هو أحد آثار فن الخطوط لمدرسة مشهورة فى هرات بحيث لايمكن أن نتصور وجود أى مكان فى هذا المخطوط لمؤرخ حلبى من القرن الثالث عشر . إلا أنه لاتبدو فيما أشار إليه بروكلمان أية أخطاء . وأبتدأ بيتشكوف فى الاضطراب والثوران وأخذ يدلل على أن هذا المخطوط يحمل الرقم المكتبى المشار إليه . عندئذ أخذت أدقق النظر باهتمام فى نماذج التوقيعات التى فى المخطوط وتبينت بسرعة أن بينها يتردد بضع مرات اسم كمال الدين . لكن أى كمال الدين؟ ألا يمكن أن يكون الواقع أنه من قبيل مجرد التشابه فى الأسماء بين اسم كمال الدين هذا وبين كمال الدين المؤرخ الحلبى المشهور ؟ وكما حدث مرارا ، أسرعت إلى الظن فى أن هذا الخطأ قد يكون خطأ العجوز « دورن » . ولكنى فتحت فهرس « دورن » وبسرعة فهمت منه أنه لم يخطىء لأنه لم يلتبس عليه الأمر بين هذا الخطاط وبين المؤرخ الحلبى المشهور . والآن أصبح الأمر واضحا . إن بروكلمان نفسه هو الذى أخطأ وأن بيتشكوف كعادته دائما لم يقل إلا صدقا . ورجعت إلى المنزل وفى نفسى بعض من خيبة الأمل لأننى لم أحظ بمشاهدة خط ذلك الرجل المشهور ولكن ما لبثت أن هدأت عندما تذكرت أننى وبيتشكوف لم نغفل عن ذلك المخطوط النادر لكمال الدين .

على أن الظروف أسعدتنى بعد ذلك . فهناك فى مكتبة ليدن وجدت كتابا بخط كمال الدين نفسه كتب ببغداد فى شباط (فبراير) ١٢٥٧ م أى قبل عام فقط من تدمير هولاكو لمدينة السلام .

٤ — « رهين المحبسين »
(١٩١٢)

ومع ذلك فإن العجوز دورن قد وقع — والحق يقال — فى الكثير من الأخطاء ، وأن كثيراً من الأشياء غير الحقيقية التى سجلتها يده الخفيفة عن مخطوطاتنا قد انتقلت من فهرسه وأخذت تسوح فى كل بقاع الأرض . ولكن عندما نلوم دورن على هذا فإننا كثيراً ما ننسى أنه عمل فى وقت لم يكن موجودا فيه كتاب بروكلمان بل ولم يكن الحاج خليفة قد أكمل بعد إصدار كتابه . ومن يدرى هل أخطأنا نحن أقل من أخطاء دورن ؟ ... ونحن الذين سبقنا هؤلاء العلماء المشهورون ... ومع هذا فإن أخطاء دورن تضفى علينا السلوى أحيانا من ناحية أنها قد تيسر لنا امكانية اكتشافات صغيرة .

منذ ثلاثين عاما رأيت فى قسم المخطوطات مخطوط يضمن مجموعة من المقالات الصغيرة . ومع أن هذا المخطوط كان متأخراً لايرجع إلا إلى بداية القرن ١٦ إلا أنه كان جميلا فى الحقيقة . فقد كان عبارة عن كتاب صغير الحجم مستطيل لكنه ليس عريضاً ، وهو يشبه فى شكله مجلدا الصور . وكان منسوخا فى مصر وبشكل جميل وخط واضح نظيف . ويبدو أن ناسخ هذا المخطوط كان يعرف علم اللغة . وفى نهاية المجموعة من المخطوطات — كما يقول دورن — توجد مقتطفات استخلصت من مقالات ورسالات التبريزى النحوية . وقد قمت بقراءة هذه المقالات بسرعة وبدون اهتمام كبير . فأنا أعرف مؤلفها كرجل محب للعمل جدا لكنه عادى نسبيا فى شرحه وتعليقه . وقد تذكرت بابتسامة حياة التبريزى التى قضاها فى بغداد كأستاذ فى المدرسة النظامية الجديدة ، وكيف أنه بعد موته كان الناس يشيرون إلى معجم كبير قد كان حمله أيام شبابه على ظهره من تبريز إلى بلاد الشام لكى يدرسه عند شاعر وعالم مشهور أعمى هو أبو العلاء فى المعرة بالقرب من حلب . ويبدو مظهر المعجم كأنما قد أصابه البلل بالماء ، والسبب فى هذا يرجع إلى طيلة الفترة التى قضاهـا المعجم محمولا على ظهر التبريزى فاصابه العرق الذى نتحه ظهره .

وفجأة عندما كنت أنظر فى الرسالة الأخيرة من تلك المجموعة شعرت أن طريقة الكاتب لاتشبه الطريقة المدرسية الجافة للتبريزى . وشعرت وأنا أقرؤها بأنها تحمل سخرية وتهكما من رجل عظيم كتبت من أجله ، لكنها سخرية مبطنة بكلمات بلاغية ومغلفة بعبارات الاستصغار الذاتى الخارجى . وعندما دققت النظر والاهتمام فى الرسالة وجدت فيها بعض الدلائل الكافية لأن أومن بأن ما أمامى ليست نبذة من رسالة التبريزى كما يقول دورن بل رسالة لأعمى مشهور من المعرة بالذات ، تلك الرسالة التى عنى بحفظها تلميذه التبريزى كما عنى بحفظ المعجم الذى حمله على ظهره . والحقيقة أن هذه الرسالة تفيض بألوان شتى من نتاج عقل ساخر هجاء . وعلت وجهى ابتسامة من جراء ذلك الوزير المصرى مطلق السلطان الذى سمع أشياء ممتعة عن ذلك الشاعر والعالم اللغوى وأراد أن يكرمه ويدعوه إلى قصره وهو شرف طمح إليه الكثيرون ممن أرادوا الدعوة إلى قصره ، ولكن جهودهم ذهبت سدى . ولقد أرسل الوزير المصرى إلى أمير حلب رسولا خاصا يحمل أمرا يتعلق بنقل الشيخ الأعمى لكن هذا الرسول رجع إلى مصر وليس معه إلا رسالة تأسف واعتذار من أبى العلاء والحق أن هذه الرسالة قد امتعتنى . فقد كتب فيها أبو العلاء — كما هى عادته — بنغمته اللطيفة الجميلة وسخريته التى تكاد لاتبين يبلغ الوزير أنه — أبو العلاء — لايستحق كل هذه المكانة الكبيرة وخير له وهو « رهين المحبسين » (العمى والوحدة) أن يبقى فى السجن الذى دخله عن رغبة وطواعية . وإنه يصعب الآن أن نقول ما إذا كان الوزير صاحب النفوذ قد فهم كل ألوان السخرية الرقيقة التى تنتشر فى ثنايا الرسالة أم لا ؟ فقد أمر الخليفة الفاطمى فى مصر بقتل هذا الوزير فى تلك السنة نفسها .

وهكذا وجهنى الخطأ فى فهرس دورن مرة أخرى إلى أبى العلاء صاحبى القديم الذى منحتنى مخطوطاته سرورا ومتعة فى طريق الحياة ، والذى صاحبتنى مؤلفاته فى القاهرة وفى ليدن وعلى شاطىء البحر الأسود بل وفى الاوقات المختلفة التى لم تصاحبنى فيها كتب أخرى سواها .

٥ — من صقلية إلى بطرسبورغ عبر إيران
(١٩٢٩)

فى المخطوط الذى أمامى ورقة ملصقة — كما هى العادة الطيبة — تحتوى على وصف أولى لمضمون المخطوط كتبه المدير السابق لقسم الاستشراق فى مكتبة بطرسبورغ. والواقع أن هذا الوصف تنقصه القوة والجمال معا . فهو لايذكر عن المخطوط سوى أنه كتاب فى الجغرافيا يحتوى على خرائط شكلها غريب يرد فيه ، فيما يرد ، ذكر الروس . وفى أسفل هذه الورقة الوصفية وبخط شخصى متين ومائل وبقلم فيكتور رومانوفيتش روزن الذى كانت دائما تلك عادته فى الكتابة — كتب : « هذا مخطوط الأدريسى ! ». ومن هذه الاشارة القصيرة يبدو انصباب غضب روزن على كاتب ذلك الوصف الضعيف، الذى لم يعرف هذا الأثر المشهور. وهذا المخطوط يمتع بحد ذاته:ففى تسعينيات القرن التاسع عشر اشتراه من طهران الكولونيل كوساغوفسكى الذى كان رئيس لواء « قوزاق » وهو لواء لم يترك وراءه إلا كل ذكرى سيئة . وحدث أن وقع هذا المخطوط فى يد رئيس الأركان العامة الذى رأى أن المكان المناسب له هو المكتبة العامة ببطرسبورغ حيث خزنه بيتشكوف باهتمام شديد .

ولقد كان الطريق الذى قطعه المخطوط طويلا ، أما كيف وجد فى إيران ، فهذا ما لن نعرفه فى أغلب الظن. وقد كتب المخطوط بخط مغربى جميل وبه خرائط رسمت بطريقة أصيلة جميلة ، وهى فى الواقع أثر رائع جداً لطريقة رسم الخرائط فى أوروبا فى القرن الثانى عشر. ويجب ألا يخطر بالذهن عندما أشير إلى أنها طريقة أوروبية أنها زلة لسان ، فمؤلف المخطوط وهو الادريسى ينتسب إلى الأمراء المغاربة وقد عمل فى قصر ملك صقلية النورمانى «روجير» وكان الأدريسى قد جمع قصصا من التجار العرب والأسكندينافيين والسلافيين . فهو لم يعرف بطليموس فحسب بل واوروسى أيضاً .

وبالطبع فإن مخطوطنا هذا ليس بخط المؤلف ولكنه ، بحسب الوقت الذى كتب فيه ، يمكن أن يكون نسخة من المخطوط الأصلى للأدريسى . وعبر الأيادى الكثيرة فى إفريقيا آسيا وأوروبا تنقل هذا المخطوط قبل عهده بالاطمئنان الذى

نلقيه على رفوف قسم المخطوطات. ولكننا لا نعرف مكان الصنف الأول من هذا المخطوط ولا أين بقى طول الطريق الذى قطعه ؟ وهل بقى هذا النصف سالما أم لا ؟ والمخطوطات أحيانا تعيش أكثر من الإنسان ، فقد يتم العثور على النصف الضائع فى مكان ما على نحو غير متوقع . وعندئذ سيسجله بروكلمان المستقبل فى فهرسه بكل عناية لكنه ربما لن يعرف فى البداية أين يحفظ نصفه الآخر ...

خلاصة

(١٩٤١)

المخطوطات تحيطنى . وفى ليالى السهاد ووقت المرض حين تصيب الحمى رأسى ، وحين لا يستطيع عقلى أن يتحكم فى افكارى فى كل هذه الأوقات تحتشد المخطوطات حولى بتواضع كأنما هى خائفة فتقترب منى على استحياء . فأسمع فى رفرفتها أصواتا هادئة تنادينى : « ألم تنسنا ؟ ألن تبتعد عنا ؟ أتذكر كيف أعدتنا إلى الحياة؟ وكيف أنك دققت النظر باهتمام فى سطورنا البالية المطموسة ؟ وكيف أنك فتحت معانى تلك السطور رويدا رويدا ؟ وكيف دققت النظر أيضاً فى تلك الخطوط التى كتبت بسرعة أو بصورة غير جذابة . وكيف أنك عرفت منها قصة حياتنا فجأة ، فى الوقت الذى كان يلفح ظهرك فيه برد خفيف يثير الانفعال ؟ وعندما كان يلمع أحد الأسماء فى عينيك ، فإن ذلك كان يعطينا مكانا فى الحياة الماضية، وها نحن من جديد قد استعدنا الحياة إلى الأبد وقد كنا من قبل مطروحين تحت الأرض أو فى الصناديق المنسية مئات الأعوام » .

المخطوطات تحتشد حولى من كل طرف وجانب . بعضها أوراق رقية صفراء تحمل حروفا كوفية واضحة وبعضها ، يحتوى على كتابة بطيئة لرهبان سيناء . بعض نسخها فاخرة ذات صفحات لامعة من الورق الشمعى جلبت من مكتبات سلاطين المماليك ، ونسخ أخرى فقيرة متواضعة ، لكنها آثار علماء لاتقدر بثمن . بعض هذه المخطوطات تسجيلات لتلاميذ هؤلاء العلماء ، وبعضها الآخر صفحات مكتوبة بخطوط يد جميلة ولكنها باردة لا روح فيها ، خطتها يد النساخين المحترفين . بعض أوراقها نظيفة كأنما هى قد خرجت لتوها من يد أول صاحب لها ، وأخريات أصابها لهيب الحريق والغرق فى الماء دليل الكوارث والمصائب

التى لم ترحم لا المخطوطات ولا البشر . من هذه المخطوطات ما ضاعت صفحاته الأولى وبعضها ما ضاعت صفحاته الأخيرة فهى أشبه بذوى العاهات تماما . وكأنما هذه المخطوطات تنظر إلى الناس تشكو كربها وتعرض آلامها لتشهد الناس على تلك الجرائم التى راتكبت فى حقها . وإنه ليؤلمنى أن أنظر إلى جراحها الممزقة .

المخطوطات حولى تحيطنى وتهمس بى : « ألم تنسنا ؟ هل ستأتى إلينا ؟ إنك حقا أعدتنا للحياة ولكننا أعطيناك ثمن ذلك مضاعفا مائة مرة . أتذكر كيف كنت تقبل علينا سواء فى ساعات الملل أو ساعات همك وتعبك ؟ لقد لمست بى فى صفحاتنا الأصدقاء المخلصين الذين يتلقونك دائما بسعادة وسرور . أولئك الأصدقاء الذين لا يستطيع أحد أن ينزعهم منك، حتى الموت نفسه لا يملك سلطانا عليهم . إن فصولا بأكلها من التاريخ كانت مجهولة ثم انفتحت لك وإن كثيرا من الشخصيات قد خرجت من صفحاتنا وكأنها حية وتجسدت أمامك فرأيتها رؤية العين . . » .

المخطوطات تهمس ، وأنا أدقق النظر فيها باهتمام . أتعرف عليها فتعلو شفتى الابتسامة ويكتسى وجهى سرورا . إن هذه الصفحات هى صفحات حياتى أنا ، وهى صفحات حياة الآخرين . إنها صور واضحة للماضى ، ولن يخفيها بعد الآن ضباب العصور .

٢ – جولات فى الشرق

١ – الكتب والناس

(بديل المقدمة)
(١٩٠٨ – ١٩١٠)

كانت بداية عام ١٩٠٨ بداية كئيبة محزنة بالنسبة لى . فى شهر كانون الثانى (يناير) توفى أستاذى ف . ر . روزن ، وفى إبان حياته لم أع كيف أن عملى معه مدة سنتين قد ربطنى به . والآن يستحوذ على مشاعرى كلها التفكير فى أمر وفاته . وخيل إلى أنى ملقى لوحدى فى غمار العلم والحياة . ولست المفجوع الوحيد بهذه الرزيئة : فقد ظل يقاسيها تلميذه الأقدم المتخصص بالفارسية جوكوفسكى طوال حياته . وكذلك سلفى شميدت غرق فى يأس شديد لعدة أعوام كان من العسير إخراجه منه . ولقد تعكر مزاجى بسبب مرض غريب يشبه السعال ، لم يستطع الأطباء أن يحددوه ، وكان المرض يصيبنى عدة مرات كل يوم بهزة تكاد تفقدنى شعورى . وكنت فى شبابى لا أحب التحرك أو الإنتقال ، ولكنى رأيت الآن أنه يجب على أن أغير هذا النظام فى حياتى . وظللت منتظراً بفارغ صبر رحلة إلى الشرق كان المرحوم روزن أبان حياته قد اقترح على القيام بها .

أما كيف ستكون هذه الرحلة إلى الشرق فهو أمر غير واضح لى . وأما إستعدادى للرحلة فقد تجلى بدراسة اللغة الفرنسية فحسب ، وهى لغة لم يكن لى من من قبل أية ممارسة لها . وقد حاولت أن أتزود بمعلومات قد تكون مفيدة لى فى هذه الرحلة . فسألت وراجعت معلم اللغة العربية فى جامعتنا وهو من أبناء طرابلس فى الشام ، لكننى لم أحصل على فائدة . ذلك أنه أخذ يقص على كيف يقوم الرجال أثناء توقفهم فى مراحل الطريق بطبخ نوع من الطعام يشبه « العصيدة » وهى تصنع من القمح . وكان أكثر حديثه كعادته بطريقة تهكمية على مواطنيه . وأخذ يعجب منى ومن رغبتى فى السفر إليهم وهناك الحشرات التى تأكلنى . وبعد تجارب فاشلة فى مجال إستعدادى للرحلة تحاشيت الناس وتجنبتهم أكثر فأكثر ، ولجأت

من جديد إلى وحدتى واستقرارى فى مكتبة الجامعة حيث كنت أجلس لا فى الصباح فحسب بل وفى المساء ايضا فى تلك الأيام التى كانت المكتبة فيها مفتوحة . وهنا فى المكتبة كنت انسى كل شيء ، فقد كنت فى حالة تشبه التخدير لكثرة ما تناولته من الكتب الاستعرابية، تلك الكتب التى أردت — بسبب حداثتى — أن أحتضن منها ما كتب طوال ثلاثة قرون .

ومر نصف عام وأنا على هذه الحال من الفتور الكئيب ، وكان لابد لى من السفر . أما كيف سأسافر فهذا أمر غير واضح لى كما هو الحال من قبل . فقد كنت فى ذلك الوقت لا أعرف إلا خطاحديديا واحداً هو الذى يربط بين سانت بطرسبورغ وفرصوفيا . ولم يسبق لى من قبل أن زرت المدن الكبرى اللهم إلا فيلنوس وبطرسبورغ . بيد أن ضيق صدرى قد ولد فى نفسى عدم اكتراث بما هو آت .

ولقد شاهدت أمامى أوديسا والقسطنطينية وأزمير تتلألأ فى الظلام . وفى شهر تموز (يوليو) وصلت إلى بيروت . وهناك واجهتنى خيبات أمل كثيرة وفى مقدمتها ما يتعلق بنفسى . فمع أننى أعرف اللغة العربية الفصحى إلى درجة لابأس بها نسبيا إلا أن ذلك كان قليل المنفعة بالنسبة للغة العامية التى كانت كل فكرتى عنها هى من بعض التسجيلات عن الأدب الشعبى . وكان الناس فى الشوارع لايكادون يفهموننى . وكنت أنا أيضا أفهم لغة التخاطب السريعة بصعوبة كبيرة. ولكن لابد لى من « التكلم » ، فقد كان هذا أحد أهدافى من الرحلة . وكان من الضرورى أن أحقق هذا الهدف بأى ثمن كان. فقررت أن أسافر لمدة شهرين إلى بلدة صغيرة فى لبنان حيث لا يمكن أن أسمع هناك اية لغة أخرى سوى العربية .

وهناك وجدت طبيعة جديدة وبشرا جددا . وهناك أعجبنى الناس وعشت فى دنياهم ، وتباعدت عن الكتب على ما بدا لى . وهناك سعيت لقضاء كل وقتى بين الناس رغبة فى ممارسة لغة التخاطب . ووجدت بين اللبنانيين اناسا اجتماعيين كانوا ينظرون إلى وحب الاستطلاع يملأ نفوسهم. وفى كل مكان كانوا يستضيفون ذلك الموسكوبى الغريب بنفوس راضية مبتهجة . ولكننى انطوائى ولا أميل إلى الاختلاط بالناس . لذلك كانت مسألة المعاشرة أمرا صعبا بالنسبة لى .

« انك تشترى ولا تبيع . انك تسمع فقط ولكنك لا تتحدث » — هكذا كان يقول لى الأصدقاء الجدد بنبرات عتابية . لكننى لم استطع تغيير طبيعتى الأنطوائية . ومن جديد ابتدات اشعر بالتعطش إلى الكتب . انى أشعر بحرية مع الكتب اكثر مما مع الناس . ولكن الكتب كانت قليلة . وقضيت اوقاتا اكثر من اللازم مع الكتب الباقية فى مكتبة ذلك الدير الذى اسست فيه مطبعة، هى من أوائل المطابع فى البلاد العربية. وصرت اتصيد بعطش كل كلمة مطبوعة واقرأ الجرائد الصغيرة من اول كلمة إلى آخرها وكانت تلك الجرائد تتكاثر انذاك لا كل يوم وإنما كل ساعة وذلك بسبب الثورة التى حدثت فى ذلك الوقت والتى قام بها حزب تركيا الفتاة . ان هذه البلدة هى كغيرها من بلدان لبنان يربطها بأمريكا من هاجروا اليها من ابنائها. وهنا وبنماذج مازالت قليلة فى ذلك الوقت ، اطلعت للمرة الأولى على الأدب السورى الأمريكى « ادب المهجر » الذى كتب لى ان اكشف عن وجوده لاوروبا فيما بعد . وبسرعه اسرنى كل ذلك . وراح يتناوبنى من جديد صراع نفسى بين حبى للكتب وبين ضرورة اختلاطى بالناس لتعلم لغة الحديث . والمهم فى نتيجة ذلك الصراع هو اننى تعلمت اللغة العامية ولكننى بقيت كما كنت من قبل لا احب « ان ابيع » وافضل « ان اشترى » .

انقضى على شتاء ان فى بيروت وأنا فى جامعة القديس يوسف وهى نصف فرنسية ونصف عربية . وكأنما هنا فى الجامعه قد تساوت كفتا الميزان بين الكتب وبين البشر . ومن قابلتهم من الناس هنا لا يعرفون من أمر حياتهم إلا الكتب والعلم فتقاربت معهم بمزيد من السهولة . يا لهم من علماء مشهورين سواء الأوروبيون منهم أم العرب ! فمنهم المؤرخ اللامع والمحاضر الماهر لامنس وهو بلجيكى المولد . والفرنسى رونزفال باحث اللهجات العربية الدقيق الذى يختزن فى نفسه كثيرا من الوان الفكاهة . وحقيقة أمره يملؤها من الداخل تألم مجهول السبب . وإلى جانب رونزفال يوجد آخر بدين الجسم لكنه سريع الحركة تعلو وجهه دائما البشاشة والترحيب . وتجده دائما يحمل فى يده تجارب الطبع من مجلته (المشرق) — ذلك هو شيخو الذى ولد فى مدينة ماردين فى أعالى ما بين النهرين بالعراق . وأحسن ما يوصف به أنه يمتص الأدب العربى كما يمتص الأسفنج الماء . وإذا ما سئل أجاب بمقال كامل معدّ عنده على الدوام . ومنهم صديقه الدمشقى الصالحانى وهو رجل

نحيف تعلو وجهه الجدية والرزانة. وهو عالم ماهر فى الشعر وفى «ألف ليلة وليلة». وقد استمر فى الأعوام التسعين من عمره وما بعدها فى دراسة شاعره المحبوب الأخطل الذى كان صديق يوحنا الدمشقى فى الشباب .

وأحيانا كان يسافر إلى بيروت بعض المستشرقين من الغرب لكن زياراتهم لها كانت خاطفة تشبه مرور الشهاب بالنسبة لزملائهم فى بيروت . وها هو مارك ليدزبارسكى عالم الخطوط الأثرية. ذلك الرجل الغريب نوعا الذى توجه إلى مدينة تدمر ليدرس الخطوط الأثرية هناك، لكنه خاف من ركوب الخيل والجمال ورجع لتوه من بيروت إلى أوروبا . وهذا عالم آخر فى اللغات السامية يدعى غوتهيل الذى كان بطبعه متآمركا تماما ويميل بعض الشىء إلى الاعلان والدعاية عن نفسه. والعالم البلجيكى بيترس الذى كان أول شخص فى أوروبا اكتشف موهبة مارو الذى أحب دوستويفسكى كثيرا وقرأ مؤلفاته فى صورتها الأصلية. وقد تعرفت ببيترس وكذلك بالإيطالى نالينو الذى عشت معه فيما بعد مدة شهر فى القاهرة وكنا نسكن فى فندقين متقابلين على جانبى أحد شوارعها. وصرت اتراسل معهما وحدهما طوال سنين . كنت من قبل أحسب نالينو متخصصا فى علم الفلك العربى فقط ، لكننى دهشت عندما لمست معرفته الواسعة بفروع الأدب العربى المختلفة ومهارته الفائقة فى محاضراته التى كان قد القاها باللغة العربية فى الجامعة المصرية .

لقد ظل هؤلاء الناس محبو الكتب كعادتهم شأنهم شأن العرب الذين جمعتنى بهم الصدف والمقادير . وهذا هو زيدان الكاتب الروائى والمؤرخ والصحفى . كان فى ذلك الوقت قد وصل إلى اوج شهرته لكنه مع هذا كان لا ينسى أنه قد أغلق فى وجهه طريق العودة إلى وطنه . وكانت الدموع تترقرق فى عينيه عندما سمعنى أتحدث باللهجة السورية لهجة وطنه . ولقد دفعتنى الصدفة إلى اكتشاف أحد نجوم الأدب العربى الصاعدة هو الريحانى الذى كان شرفه ومجده — كأحد رواد مدرسة الأدب الحديث : المدرسة السورية الأميركية (المهجر) — ما يزال طى المستقبل آنذاك. لكن مظهره غير العادى كان يوحى الوهلة الأولى بموهبته الضخمة . ولقد كان من الصعب أن نتنبأ بما يعد القدر للكثيرين من أولئك الذين التقيت معهم . وهذا المعلم المتواضع قسطنطين ينى الذى أعجبت بدوره المسرحى الماهر الذى لعبه على مسرح أحدى المدارس فى حمص ، ثم شاء القدر بعد ذلك أن

يكون المسؤول عن تنظيم سلاح الطيران الخاص بالشريف حسين الذى صار فيما بعد ملك الحجاز . وهذا محمد كرد على محرر إحدى الصحف الدمشقية الصغيرة قد صار بعد الحرب العالمية الأولى رئيسا للمجمع العلمى العربى . وفى الصيف عندما غادرت بيروت ورحلت إلى أماكن أخرى سواء فى لبنان أم جبال اليهودية المقبضة أم فى وديان الجليل المستوية السهلة كنت أشاهد بعينى عددا أكثر أيضا من أناس يثيرون الاهتمام بهم . فهناك كان معلمو القرى وصحفيو المدن الصغيرة ومراسلو الجرائد وأطباء القرى كل هؤلاء قابلونى هناك بود وترحاب وكنت منذ زمن بعيد قد تخلصت من الصعوبات التى كانت تواجهنى فى الكلام . وكان الحوار بيننا يستغرق عدة ساعات بعد أول لقائى بهم . وكانوا جميعهم يتأججون والثورة تتقد فى نفوسهم ، وفى خيالهم حلم بالتحرر الوطنى . وفى الوقت نفسه كان الأدب الوطنى يستقطب جميع ميولهم . وكانوا ينظرون بحب وإجلال إلى آثار الماضى من ذلك الأدب ، تلك الآثار التى ماتزال حية بالنسبة لهم .

وهناك أصبح بيننا لغة مشتركة وكلنا يفهم الآخر . وأحيانا رحت أنا أيضاً « أبيع » لا بالكلام الشفهى فحسب بل وبالتحرير والكتابة فى المطبوعات . وكنت أوقع مقالاتى باسم غير عادى هو « الغريب الروسى » وكان هذا الاسم المستعار يتردد مراراً فى ذيل مقطوعاتى من الشعر العربى المرسل التى كانت تنشر فى مجلة صغيرة فى حيفا . وكثيراً ما كان هذا الاسم معروفا عند الناس بل كانت الظروف أحيانا تشاء أن تخجلنى فيكتشف بعض الناس ، وفى أماكن غير متوقعة أطلاقا ، حقيقة الاسم المستعار . وكثيرا ما كان الحوار الطويل الذى كان يدور بيننا ، ينتهى بدعوة حارة منهم : « خليك معانا ! » :

ولكن الكتب شأنها شأن الناس كانت تدعونى دائماً . وقد تجلى أنها أقوى من الناس . وصورة الشرق ترتفع أمام عينى غنية بالأشخاص الرائعين . لكن ثروة المخطوطات توالت على وغمرتنى ولم أستطع أن أفيق منها . قبل ذلك كنت قد عرفت مخطوطات منفردة وحسب ، أما هنا فقد وقعت فى يدى مجموعات كاملة من المخطوطات أعدادها بالمئات والآلاف . وهنا أحسست بنفسى وكأنى طفل صغير على شاطىء بحر ضخم لا يحده شاطىء ، ولم أستطع أن أنزع نفسى منه كأنى مسحور به . لقد كان ذلك فوق طاقتى .

وهذا هو شيخو . كان أول شخص أدخلني إلى تلك المكتبة الشرقية الهادئة المعتمة القائمة فى الطابق الثانى من مبنى جامعة القديس يوسف . كان هو نفسه الذى أنشأ هذه المكتبة . وكان يعرف كل كتاب فيها . بل لقد اختار بنفسه أماكن هذه الكتب على الرفوف، وكان هو نفسه الذى اشترى كل مخطوط فيها . وكان هو نفسه أيضاً الذى وضع بعناية جلد حية جاف بين أوراق كل مخطوط محافظة عليه من الديدان والحشرات التى تتلف الكتب . وأما فهارس المكتبة وقوائم الكتب والمخطوطات فكانت كلها فى رأسه فقط أو مكتوبة على ورقات صغيرة لا يفهمها أحد سواه . وبدأت تظهر إلى النور بعد زمن بعيد ، أى بعد الحرب العالمية الأولى، بل جزئيا بعد موت شيخو نفسه . وكان يحزننى أن أقرأ بعد وصف بعض المخطوطات القيمة التى أعرفها جيداً ، عبارة مختصرة Disparu durant la guerre (فقدت فى زمن الحرب) . إن العربية الحديثة لم ترحم هذه المجموعة أيضاً التى كانت فى سوريا أحسن ما وجد منها من حيث ترتيبها .

وكنت فى أكثر الأحيان قارئا وحيداً جالساً فى تلك المكتبة الشرقية . وكنت أستطيع أن أقضى فيها أى وقت أرغب ، من الثامنة صباحا حتى الثامنة مساء . وكان شيخو نفسه يأتى بسرعة ويسحب كرسياً صغيراً من الخشب إلى منضدتى . وكنت أضع عليه رجلى لكيلا تبردا على أرض المكتبة الحجرية الباردة وبخاصة فى الشتاء . وكان يسمح لى أن أفعل كل ما أريده . وكان هو نفسه يعمل فى غالب الأحيان فى حجرته المتواضعة التى كانت تواجه المكتبة على الطرف الآخر من الممر بينهما. وكان طول أيامه ولياليه مكبا على تصحيح تجارب الطبع التى لا تنتهى أو منهمكا فى كتابة المقالات لمجلته « المشرق » . وتراه أحيانا يسير على عجلة من أجل استعلام ما ، وقلمه خلف أذانه . وأحيانا تراه مع جماعة من السائحين الوافدين أغلبهم من أوروبا أو مع أحد أعيان العرب المعروفين . وهو مع أولئك أو هؤلاء يدخل إلى المكتبة ويعرض عليهم كنزه العلمى الثمين ويشير فى الوقت نفسه إلى « كوسكوفى » ويقول هذا « موسكوفى » يعرف الأدب العربى . وكان الزوار عندئذ ينظرون إلى بارتياب وعدم ثقة وكانوا أحيانا يحاولون امتحانى بسذاجة .

وكانت الأنظمة والعادات المتبعة فى المكتبة أنظمة وعادات بطريركية حقا ،

فلو أنني اردت أن أستعير منها اى كتاب إلى منزلى فإن كل ما يلزمنى هو أن أسجله بنفسى فى دفتر كبير كان دائماً ماقى مفتوحا على المنضدة .. ومن شتاءان وأنا فى هذه المكتبة اغترف من ثروة المطبوعات الشرقية المتعددة الأشكال والألوان ، وانهل من معين المختارات الجميلة من الكتب الأوروبية فى الاستعراب . وكانت هناك مادة علمية كثيرة لرسالتى لدرجة الماجيستر عن ابى الفرج الواواء الدمشقى . وقد جمعت هذه المادة العلمية هنا فى هذه المكتبة ، وكثيرا ما كان يخبرنى شيخو نفسه عن ابحاثه المتعددة التى التقى فيها مرارا مع شاعرى الواواء . لكننى لم اجد فى هذه المكتبة مخطوطات اشعار الواواء . ورغبة فى تتبعى لها رحلت إلى المكتبة الخديوية فى القاهرة كما كانت تسمى فى ذلك الوقت .

ولهذه المكتبة الخديوية طراز ونظام يختلفان تماما عن المكتبة الشرقية . وكانت تشغل الطابق الثانى من مبنى كبير بنى خصيصاً بشكل اوروبى وان كان بالأسلوب الشرقى . اما الطابق الأول فكان يضم المتحف العربى الذى لا تقل شهرته عن شهرة المكتبة . وفى المدخل الكبير يقوم سلم عريض يقودنا إلى قاعة للعرض تحتوى على لوحات تضم مجموعة من فريدة فى بابها من نسخ القرآن القديمة ومجموعة جميلة من المخطوطات مع صور صغيرة ملونة . وهذا السلم يؤدى ايضاً إلى قاعة كبيرة للقراءة تقوم فيها مناضد طويلة . وكان زوار هذه المكتبة كثيرين نسبياً بصورة دائمة . . ويتشكل نصف هؤلاء الزوار من الطلبة الشبان والنصف الآخر من النساخ المحترفين للمخطوطات الذين كانوا يحتلون منضدتين . وكان مستخدمو المكتبة كثيرين ايضاً هم طبعاً من العرب فقط . لكن مدير المكتبة — حسب التقاليد القديمة لها — كان دائماً المانيا . وظل هذا نظام المكتبة من مولدها حتى الحرب العالمية الأولى . وفى فترة وجودى بها كان مديرها هو المستشرق المشهور موريتس وهو رجل غير مستلطف الخلق ، جاف الطباع ، متوسط العمر فى حلة أوروبية . لكن رأسه يعلوه دائما طربوش ، هو علامة ضرورية مميزة لكل اجنبى يعمل فى خدمة الدولة او الحكومة وكان من عادته ان يدور فى كل الغرف مرة فى اليوم .

وفى هذه المكتبة تمكنت بسرعة من العثور على مخطوطات الوأوء . وطلبتها، وجلست على المنضدة مع الخطاطين والنساخين الذين كانوا هم ايضاً فى طرابيشهم .

ثم اعطيت لى منضدة شخصية دائمة ينبغى وضع المخطوط عليها مفتوحا مع تغطية صفحاته بزجاج ثقيل . وقد غرقت لرأسى فى مقارنة هذه المخطوطات بالنسخ التى أحضرتها معى من بطر سبورغ . وحسب عادتى أجلت النظر قليلا حولى مايحيط بى . وطيلة كل الوقت الذى قضيته فى هذه المكتبة لم يأت إلى مديرها موريتس إلا مرة واحدة عندما وجه إلى سؤالا تافهاً باللغة الفرنسية .

وقد ظهر لى بعد عدة أيام من عملى بالمكتبة أن وجودى كان يستدعى نوعا من القلق بين النساخين والخطاطين الجالسين على المنضدة إلا أنى لم أعر هذا اهتماما . بيد أنى فى المرة التالية . رأيتهم عند دخولى يتهامسون فيما بينهم ثم انفصل منهم أكبرهم سنا — حسب مايبدو لى — واقترب منى قليلا ثم استرسل فى كلام كثير طويل وأخذ يوضح كيف أنهم أناس فقراء وأنهم يحصلون على قوت حياتهم من هذا العمل وحده أما أنا فأجنبى وأستطيع أن أجد لنفسى عملا آخر ، وأنهم مستعدون أن يقدموا إلى مكافأة إذا لم أتسبب فى حرمانهم من لقمة العيش . وفى البداية لم أفهم حقيقة الأمر ، لكننى ضحكت فيما بعد عندما علمت الحقيقة وأسرعت لتهدئتهم . وأوضحت لهم أن عملى فى المخطوطات عمل شخصى ، وليس الغرض منه كسب العيش أو منافستهم فى أرزاقهم . ومنذ ذلك الوقت صارت بيننا علاقات حسنة . وقد كانت غالبيتهم أناسا هادئين متواضعين وكباراً فى السن . وكانوا عادة غير مثقفين ونادراً مايفهمون ماذا ينسخون . لكن بعضهم كانوا من هواة هذا العمل ويبدو لى أنهم على دراية بالخطوط والنسخ إلا أنه فى ذلك الوقت لم يكن لفنهم ميدان كاف . ولعلهم يمثلون الجيل الأخير لهذه المهنة التى كانت فى طريقها إلى الموت . فانهم بالطبع لم يستطيعوا منافسة آلات الطباعة والتصوير الضوئى التى كان استخدامها قد بدأ يشيع فى الحياة آنذاك . ولربما زالت هذه المهنة تماما بعد حوالى عشرة أعوام نتيجة لظهور الآلات الكاتبة العربية التى دخلت بسرعة فى حياة الناس . وكان من بين هؤلاء النساخين أناس ممتعون . أحدهم ذهبت معه إلى المنزل ، كان بهائى المذهب ، وقد عرفنى بعد ذلك بفرع هذا المذهب الموجود فى القاهرة . وقد كان برأسه رجل كان فى مدينة عشق أباد معلما للقبطان الروسى تومانسكى الخبير بالمذهب البابى البهائى .

وعلى وجه العموم لم أشعر فى المكتبة الخديوية على درجة كبيرة من الارتياح .

وأما نظامها لحسن ولها فهارس مطبوعة ، ولو على نحو بسيط نوعا ما . وهى فى متناول مكتبات أوربية أيضا . وعلى كل حال فقد كانت هذه المكتبة مكتبة رسمية باردة . ولا يمكن لأى شخص أن يستعير من مخطوطاتها أكثر من مخطوط واحد وحسب الإشارات الموجودة فى الفهرس . وبالتالى كان لا يمكن لأى شخص أن يأمل « بفتح » أى مخطوط غير مسجل فى الفهرس . وكان أيضا لا يسمح لأى شخص بتناول ما كان على الرفوف أو فى الأماكن التى خزنت فيها المخطوطات مباشرة . حتى بمجرد النظر إلى المخطوطات التى لم تسجل فى الفهرس كان أيضاً أمراً ممنوعاً . وكان مستخدمو المكتبة كثيرين ويقومون بأعمالهم بصورة دقيقة إلا أن الإنطباع الذى تأخذه عنهم هو أنهم أناس رسميون، قليلو الاهتمام والفهم للكنوز المخزونة فى مكتبتهم . ونتيجة لذلك كانت المكتبة قليلة الفائدة « لروحى » والعلم معاً على الرغم مما بها من ثروة كبيرة . وها أنا أتممت مقارنة المخطوطات التى أردت من قبل أن أقارنها بمثيلاتها فى المكتبة الخديوية ، وها أنا أسرع إلى مكتبة الأزهر . والأزهر هذا هو أكبر مدرسة إسلامية أسست فى القرن العاشر الميلادى .

هناك كانت صورة الحياة فى المكتبة تختلف تماما عن المكتبة الخديوية . وعدد المخطوطات فيها المكتبة لا يقل عما فى المكتبة الخديوية . أما بالنسبة لنظام خزنها المخطوطات فيبدو أنها تقلد طريقة المكتبة الخديوية حتى فهارسها ونظام تسجيل المخطوطات هو كنظام المكتبة الخديوية تماما . إلا أن فهارس مكتبة الأزهر لم تكن مطبوعة وإنما كانت مخطوطة باليد . وهذه الفهارس كانت معروفة فقط داخل حدود مكتبة الأزهر ، أما أبعد من هذه الحدود فكانت مجهولة وغير معروفة، ويمكنك هناك أن تجد فى كل سطر الدرر والجواهر التى لا يعرفها الناس والتى لم يرها أحد مطلقا . وأن النظرة السريعة فى هذه الفهارس لشبيهة بالنظرة فى رواية مغامرات ممتعة: طالعك من حين لآخر بالمفاجآت والمستغربات . والحياة الداخلية فى قسم المخطوطات رغم كل ثروته العظيمة كانت تسير بطريقة بدائية نسبياً . فكل المخطوطات مخزونة فى مكان قديم تحت قبة ، حيث يوجد مكتب يذهب اليه أحياناً الشيوخ الأساتذة فى فترات الاستراحة من العمل . وشكل مكتبة الأزهر من الناحية المعمارية الشرقية الطابع لا يتناسب مع ما تحويه من دواليب

الـكتب الأوروبية العاديةوفى داخلها تجد الارائك الشرقية إلى جوار الحيطان، وتقوم هنا وهنا كراس خشبية أوروبية عادية .

وكان المسؤول عن قسم المخطوطات شيخ لديه الـكثير من المشاغل والواجبات الأخرى . وفى أثناءغيابه كانت توضع مفاتيح الأبواب والدواليب فى المـكتب الموجود هناك .وكانت الدواليب تفتح لى دائما وتباح لى أن أمعن النظر فيها . وكنت فى أثناء التها مشغولا بصورة رئيسية بالنظر العامة فى المخطوطات ، إذ كان فى المـكتبه جلبة كثيرة ، وكان كل العابرين هناك يضايقوننى باسئلتهم الـكثيرة . وفى المساء ذهبت إلى الشيخ وأخذت منه، بلا صعوبات كثيرة، بعض المخطوطات إلى منزلى . ومن جديد عزلتنى المخطوطات بعيداً عن الناس . وكان يؤسفنى أن الوقت كان قليلا لهذه المخطوطات وأنه كان يترتب على أن ادرسها بسرعة محمومة وكانت المخطوطات كأنما تتسابق فيما بينها على افتتاحى لها . وطالما كانت تذكرنى ببطر سبورغ وبروزن . فهناك التقيت مع مجلد المؤرخ الصولى . وكان روزن هو الذى وجد مؤلفاله فى المـكتبة العامة فى بطرسبورغ . وهناك وجدت أيضاً مؤلفاً مجهولا لمحبوب روزن هو الفيلسوف المتشائم أبو العلاء . ووجدت أيضاً قصة عن الحلاج الملحد الذى كان روزن قد ألقى محاضرة عنه فى سالف الزمن . وكنت أغرق فى هذا البحر من المخطوطات وأحاول أحيانا ان انسخ مقتطفات من بعضها بسرعة واحيانا اخرى اكتب فقط عنوان المخطوطات مؤملا بسذاجة ان آتى إلى القاهرة مرة اخرى.

وأما المـكتبة الثالثة الـكبيرة هنا فى القاهرة فاننى لم أتمكن من التسلل اليها . ذلك أن صاحبها كان مسافرا . وأصبحت هذه المـكتبة معروفة فيما بعد واندمجت حسب وصية صاحبها — فى المـكتبة الخديوية (سابقا) والتى تعرف الآن بالمـكتبة المصرية . وكانت هذه المـكتبة الثالثة غير المعروفة إلا من بعض المحبين امثال زيدان الذى عرفتها عن طريقه. وكان صاحبها هو احمد تيمور باشا الذى اصبح كلا ولديه فيما بعد لامعين فى عالم الأدب . احدهما يعتبر خالق الدراما المصرية ويعتبر الثانى خالق القصة . وكان والدهما — كمحب للـكتب وعلى معرفة بالمخطوطات — قد شكل مجموعة بديعة منها وارفق بكل نسخة وصفا لها . واحيانا كان يكتب عن بعضها مؤلفا علميا كاملا . ومن المحتمل ان ما يقرب من نصف هذه المخطوطات

كان من النسخ الفريدة القيمة . ولكنى لم استطع أن أتعرف بهذه المخطوطات إلا بعد مرور وقت طويل عن طريق مراسلاتى مع صاحبها .

استطاعت كنوز المخطوطات فى بيروت والقاهرة أن تحجب كل المجموعات الأخرى التى رايتها وشاهدتها بسرور ورضى فى اماكن شتى من سوريا ومصر ولكن هذه المخطوطات ايضاً لاتزال ماثلة حية امام عينى . وهناك فى الاسكندرية ، فى مكتبتها ذات الطراز الاوربى ، شعرت بانفعالات كثيرة اثارتها فى نفسى كنوزها الغنية . وهناك فى القدس ، فى مكتبتها المهملة التى تسمى بالخالدية ، شعرت باحساس خاص يستحوذ على شعورى . وكان باعث هذا الاحساس ذكريات تاريخ قديم يتصل بالقائد العربى المشهور خالد بن الوليد فاتح الشام فى القرن السابع الميلادى ومؤسس العائلة . وهناك فى حلب ، فى مكتبة صارمة النظام لكنها رائعة الترتيب ، اعنى المكتبة المتروبولية المارونية ، رايت كيف ان امناء هذه المكتبة قاموا بعناية وحرص بخزن اثار احدى الشخصيات الاولى للنهضة الادبية فى سوريا فى القرن الثامن عشر ، الا وهو جرمانوس فرحات . وكل مكتبة سواء اكانت كبيرة ام صغيرة ، غنية ام متواضعة كان لها طابعها الخاص إلا انها جميعا كانت تقابل بترحيب زوارها الجدد ، وتكشف لهم كنوزها بسعادة وطيب خاطر . وهناك فى عاصمة الامويين القديمة فى دمشق وحدها عانيت الحزن ذات مرة ولكن المقادير تكلفت بتفريجه فيما بعد عندما التقيت مع بعض المخطوطات التى كان الخزنة قد سبق ان اخفوها عنى . ولقد صادفت ايضاً كثيراً من المجموعات الشخصية الصغيرة التى كانت تمنحنى سعادة احيانا . ووجدت على نحو غير متوقع ان بعض هذه المخطوطات الشخصية قد تناولت توضيح بعض تفاصيل تاريخ العرب الثقافى والأدبى .

وهناك فى لبنان ، فى إحدى قراها الصغيرة ، وعند معلم مدرسة متواضع ، اكتشفت بالمصادفة مجموعة كاملة من المعاجم العربية وكتبا قديمة وحديثة فى الصرف والنحو . وليس هذا بالشىء العجيب . فقد كان هذا المعلم هاويا وعالما بهذا النوع من التصانيف . إلا أن الشىء العجيب جدا هو أنه كان يحفظ كل هذه الكتب عن ظهر قلب . والأعجب من هذا أنه ولد ضريراً وأنه حفظ كل هذه الكتب عن طريق السماع بعد أن قرئت عليه مرتين فقط . ولقد قمت بالفعل باختبار ،

فى مواقف متعددة فى «لسان العرب» الذى يتكون من ٢٠ جزءاً ... والمرة الأولى أمكننى أن أفهم بوضوح كيف استطاع أبو العلاء وهو أعمى أن يحفظ عن طريق السماع بالمصادفة رسالة مكتوبة بلغة لا يعرفها .

وهكذا وعلى نحو مفاجىء وغريب ، تشابك البشر والكتب مرارا بدون انفصال أثناء رحلتى إلى الشرق . ولكن مر الزمن بعيداً بعيدا ودفعت الكتب البشر إلى الخلف . وفى الحق أن المخطوطات فى الشرق لم تلتهمنى هى وحدها بل التهمتنى المطبوعات أيضا . فهناك وللمرة الأولى ، فى المكتبات المنتشرة ، وجدت تحت تصرفى كل المطبوعات العربية من بداية عصر المنشورات والمطبوعات حتى أيامنا هذه ، وأيضا من كل بلاد العالم القديم والحديث . وهناك وللمرة الأولى انتفح أمامى كل الأدب العربى الحديث الذى كان معرفتى به غامضة جداً قبل رحلتى إلى الشرق . وربما كان مارتين هارتمان هو وحده فى أوربا الذى عرف هذا الأدب العربى الحديث .

ولقد أدخلتنى الكتب إلى عالم جديد ، وعرضت على أناسا بطريقة أسهل وأسرع مما لو حاولت أنا بنفسى ذلك . وإنه لمن المفهوم اننى كنت أشعر مع الكتب بحرية أكثر مما مع الناس .

وهكذا دخلت الكتب فى صراع مع البشر وما كان ذلك للمرة الأولى فى حياتى . وكان النصر حليفا للكتب . وكان انتصاراً حاسما ، كما يبدو لى . إلا ان الحياة علمتنى أنه لا يمكن الفصل بين البشر والكتب . فمن جديد وجدت الكتب توجهنى إلى البشر . وعندئذ فقط فهمت بدقة تاريخ علومنا الإستعرابية .

٢ ــ مقالة نحوية أم رسالة الحاديه ؟

(١٩١٠ — ١٩٣٢)

ها قد اوشكت إقامتى فى القاهرة على الأنتهاء . لكنى لا أريد الأبتعاد عن مخطوطات مكتبة الأزهر . وإذا كنت قد استطعت فى المكتبة الخديوية الاطلاع على الفهارس المطبوعة ففى مكتبة الأزهر لاتوجد سوى فهارس موجزة مكتوبة باليد فى نسخة وحيدة . وقد وجدت أن بعض عناوين المؤلفات قد سجل فى الفهرس كيفما اتفق ، بل وبصورة خاطئة أحيانا ، وكنت مضطرا لاختيار المخطوطات على عجلة .

وفى الأيام الأخيرة ، فى بداية شهر كانون الثانى (يناير) ١٩١٠ التقيت برسالة « فى الاعراب » مجهولة للفيلسوف والشاعر الأعمى ابى العلاء . وقد طربت لهذه الرسالة لا لذاتها فحسب بل لأن صاحبها معروف لدى جيداً . وكان قد سبق لى ان جمعت كل ما يتعلق به دونما غرض خاص . وكنت قد ورثت هذا الاهتمام الشديد بأبى العلاء عن معلمى روزن الذى كان فى آخر ايام حياته شغوفا بهذا الفيلسوف المتشائم اللاذع السخرية . والحقيقة ان أبا العلاء ينفذ إلى اعماق النفس البشرية بتحليله الدقيق المتشائم وتراه بابتسامة ساخرة لينة يحاول ان يكتم مرارة اليأس وسواد افكاره .

على انى لم اكن اؤمل ، بالطبع ، ان اجد فى تلك الرسالة النحوية شيئا جديدا عما أعرفه من أمر أبى العلاء . لكن الشىء الذى لم استطع فهمه من أمر هذه الرسالة هو السبب فى أنها لاتذكر إلا نادرا ، ولماذا كانت نسخ مخطوطاتها الأخرى مجهولة تماماً ؟ ولم أكن أنا وحدى الذى عجبت لهذا الأمر بل لقد شاركنى فى هذا العجب أيضاً الشيخ المحمصانى أحد خزنة المكتبة الذى كان يقوم دائما باعطاء المخطوطات . وكنا نتحاور مرارا عن مختلف الموضوعات الأدبية بل وعن مدى صعوبة تعلم اللغة الفرنسية ، الأمر الذى كان بالنسبة لشخص مثله يعنى حرية التفكير . وإنى لا أنكر أنه كان يشعر نحوى بعاطفة خاصة ، وكان له فى الأزهر الإشراف على

المسلمين الوافدين من روسيا وكان ينشر عليهم وعلى عطفه ورعايته .

والحقيقة أن الشكل الخارجى لرسالة أبى العلاء هذه ، لايوحى بأن لها أهمية أو قيمة . فهى نسخة عادية قام بنسخها أحد النساخين المحترفين فى القرن التاسع عشر طبقا لنسخة أصلية من « المدينة » . و يبدوا أن هذا النساخ كان لايفهم كل شىء بدقة كافية . إلا أنه أصبح واضحا لى من السطور الأولى لماذا كانت هذه الرسالة قليلة الشهرة إلى هذا الحد : فلو كان عند العرب فهرس للكتب الممنوعة والمحرمة لاحتلت فيه هذه الرساله مكانا مرموقا . والواقع أنها كما يبدو من شكلها ، تتحدث عن موضوعات نحوية وتتناول أيضاً نقطة جديرة لها اهتمام كبير من الناحية الدينية هى مسألة الصور الاعرابية المختلفة لأسماء الملائكة مصحوبة باقتباس من القرآن والشعر . وكما هى العادة ، تذكر أسماء مشهورة فى الأدب ، مع تلميحات أدبية لاتحصى . إلا أن هذا ليس سوى غطاء الرسالة والشكل الخارجى لها . أما ما تحت هذا الغطاء وما تخفيه تحته هذا الشكل الخارجى فهى سخرية دقيقة يصعب فهمها على من لايعرف آفاق أبى العلاء الأدبية ، ومن لايفهم أسلوبه فى بناء مؤلفاته. وأبو العلاء يتمتع بمهارة فائقه فى أن يلبس الجملة قناعا يخفى وراءه فكره الجرىء عن أنظار من لايعرفون جوهر الأمر . أما فى الحقيقة فإن الرسالة التى تبدو من الخارج رسالة نحوية تقليدية، تخفى وراءها هجاء لاذعا وسخرية فكرية شديدة، من فهم بعض المسلمين لحقيقة الملائكة . وهذه الطريقة الساخرة لأبى العلاء هى نفسها طريقته فى رسالته المشهورة « رسالة الغفران » حيث نجده بسخريته اللاذعة نفسها يتهكم بالوصف التقليدى القديم للحياة بعد الموت .

لقد قرأت بسرعة سطور تلك الرسالة التى كتبها الناسخ القليل التعلم ، وكنت أحاول بصعوبة إعادة بناء أفكار المؤلف من خلال أخطاء ذلك الناسخ . وفى بعض الأحيان ، وبدون توقع أو انتظار كان يبدو أمام عينى شعاع براق يكشف لى عن التلميحات الخفية فى ثنايا تلك السطور . وفى أحيان أخرى كنت أقف أمام بعض السطور عاجزا عن فهم معانيها . ولم يكن فى وسعى ان افك اللغز . فالوقت الذى بقى أمامى فى القاهرة قصير . وكان على ان اقيد نفسى وان اكتفى بالاقتباسات القصيرة. وحين ارجعت هذه الرسالة فى المرة الأخيرة إلى الشيخ المحمصانى ، كان كل

مما قلته له هو : « إذا اتيح لك ان تقرا هذه الرسالة فى وقت ما ، عندئذ ستفهم لماذا كانت هكذا قليلة الشهرة » .

كان رحيل القطار فى الصباح الباكر . وفى الدقيقة الأخيرة رايت بدهشة الشيخ المحمصانى وقد جاء يلهث بحثا عنى ، واخذ كل الواقفين على الرصيف بتعجب ودهشة يتابعون بنظراتهم الشيخ المحمصانى الذى يحاول جاهدا اللحاق بالقطار وقد بدأ فى التحرك . وكلما استطاعه الشيخ المحمصانى هو انه صاح بى من نافذة عربة القطار : « إننى لم أنم طول ليلتى ... والشيء العجيب الذى ارقنى هو لماذا لم يحرق ابو العلاء مع رسالته هذه ! » وبدون تفسير فهمت ان الشيخ المحمصانى قد ادرك هو ايضاً معانى هذه « الرسالة النحوية » .

وتوالت بعد ذلك اعوام كثيرة ، قبل ان استطيع فهم كل تلميحات ذلك المتشائم الأعمى ، وقبل ان تمكن من الكشف عن حقيقة الإشارات والاقتباسات الأدبية فى تلك الرسالة . لكننى لم انس اكتشافى الصغير هذا . وكل ما يحزننى هو ان « روزن » لم يبق حتى يراه فيصبح هذا الكشف عيدا مزدوجا لى وله . وخلال السنوات التى تلت ذلك تسلمت من القاهرة نسخة كاملة من هذا المخطوط كان اوصى بها تلبية لطلبى صحفى مشهور هو سليم قبعين مترجم تولستوى إلى العربية ، وقد ارسل لى سليم هذه النسخة ذاكرا لى بتباه وفخر انه وجد فى النهاية احسن نوع من الورق والحبر الضروريين لنسخ هذه الرسالة . والحقيقة ان هذه النسخة نقلت من الأصل بخط جميل جدا لكن يبدو أن الناسخ لم يتمكن من فهم النسخة الأصلية . ومع ان النسخة التى وصلتنى حسنة الخط فإنها لم تساعدنى إلا قليلا على استجلاء المواضع التى غمض على فهمها .

بدا لى فى صيف ١٩١٤ اننى على وشك الانتهاء من بحثى العلمى عن رسالة ابى العلاء . وهناك فى ليدن توجد قرب صالة هادئة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة غرفة تحتوى على مجموعة مخطوطات تعرف باسم "Legati Warneriani" (صندوق وارنر) التى كانت مشهورة بين المستعربين منذ القرن السابع عشر . هناك فى تلك الصالة الصغيرة كانت تطل من على الحائط صورتان قديمتان لسكاليغر وهوغو غروتيوس ، بينما انا جالس منهمك فى قراءة المخطوطة الثانية لرسالة الملائكة التى وجدتها هناك

وقد أثارت هذه المخطوطة اهتماماً أكبر من النسخة المماثلة التى رأيتها فى القاهرة . ذلك لأن تاريخها يرجع إلى القرن السادس عشر . وهى إلى جانب ذلك مكتوبة بخط يد مؤرخ دمشقى هو صاحب المذكرات التى ساعدت بارتولد فى زمن ما ، على فهم بعض الأحداث الغامضة والتى تتعلق بتاريخ الاحتلال التركى لسوريا ومصر . وهذه المخطوطة قد ساعدتنى على استيضاح للعرب الرسالة التى اماكن كثيرة . وقد بدا لى بارتياح ورضى أنه عما قريب ساستطيع ان اعيد إلى العرب الرسالة التى نسوها ، بل وفى صورة مطبوعة خالية من الأخطاء التى أدخلها عليها النساخون .

لكن آه من المقادير ... إنها فى هذه المرة أيضاً لم تكن رحيمة بأبى العلاء. لقد اشتعلت نيران الحرب العالمية الأولى.وبصعوبة استطعت أن أرجع إلى وطنى تاركا ورائى فى هولندا كل المواد العلمية التى كنت قد جمعتها عن أبى العلاء . ولم أتسلم هذه المواد إلا بعد عشرة أعوام ، حين كانت الإنسانية قد انتقلت إلى مرحلة جديدة من التاريخ . وبالنسبة لى فإن هذه المواد ، لم تفقد أهميتها ولو للحظة واحدة . وبانفعال مألوف لدى نظرت من جديد فى تسجيلاتى و أوراقى التى تتعلق بأبى العلاء . وعندما تجددت الروابط العلمية الدولية بصعوبة واصرار ، وجدت على غير انتظار زميلا فى العمل متحمسا ومحبا لأبى العلاء تحمس روزن وتلميذه الأصغر ، وهذا الزميل هو أحمد تيمور باشا المصرى صاحب أحسن مجموعة خاصة من المخطوطات فى القاهرة كان قد جمعها بحب كبير وسعة معرفة . كان هذا العالم كريماً لدرجة عجيبة . فقد كشف كل كنوزه لمختلف العلماء من مختلف البلاد . وكان متواضعا نادر الوجود . فقد كان يجعل من نفسه زميلا فى العمل لمن يراسله من العلماء إذا أحس بأن لدى هذا المراسل تذوقا للأدب العربى . وكانت مجموعة هذا الباشا العالم تحتوى على مخطوط آخر عن « رسالة الملائكة » . فبدأت بين القاهرة ولينينغراد مراسلات حية.ومن جديد ثارت مناقشة حول مختلف الأشكال وتبيان الإشارات والافتراضات المتعلقة بها . وعلى تلك القصاصات النظيفة المستطيلة التى كتبت بخط شيخ عجوز لكن بحروف جميلة واضحة ، كان أحمد تيمور باشا من أسبوع لاسبوع يرسل إلى بأفكاره واقتباساته فى رده على اسئلتى أو يرسل إلى ما يخطر بفكره هو نفسه . وفى كل مرة ، وبنشوة مضطرمة ، كنت أفتح خطاب

تيمور باشا الذى كنت أجد فيه مرارا الجديد من الاكتشافات ، بل كنت أجد أحيانا وبدون توقع شعراً وأمثالا وأقوالا كنت فى ذلك الوقت أشد ما أكون حاجة إليها لتوضيح تلميحات أبى العلاء التى تعبنا أعواما عديدة فى محاولة كشفها وتبيينها .والحقيقة أننى من خلال سطور تيمور المتحفظة كنت أحس بمدى السعادة التى كان يشعر بها هو نفسه فى مجرى عمله لإعادة تلك الرسالة التى ألفها جده العظيم ، أعنى أبا العلاء.

فى صيف عام ١٩٢٦ ، وفى خلوة على شاطىء البحر الأسود فى القوقاز ، تمكنت فى النهاية من اتمام عملى الخاص بتجديد بناء كل هذا النص الذى ظل غامضا ومشوها قرون عديدة . وفى عام ١٩٣٢ أصبحت « رسـالة الملائكة » لأبى العلاء فى صورة مطبوعة . حدث هذا بعد ٢٢ عاما من زيارتى لمكتبة الأزهر واستلامى من الشيخ المحمصانى ذلك الكتيب الذى كان يبدو فى صورة غير جميلة ونسخه رجل قليل التعلم .

سارت السعادة مع الحزن جنبا إلى جنب ... ففى ذلك اليوم الذى سعدت فيه بالانتهاء من عملى هذا ، وصل إلى خبر وفاة تيمور باشا. وآسفاه إنه لن يستطيع أن يرى النسخة المطبوعة لتلك الرسالة . وها هو شعبه العربى قد قدر اليوم هذه الرسالة حق التقدير . فقد تردد صداها لدى أحد الكتاب الكبار هو أمين الريحانى الذى يقترب فى أفكاره من افكار أبى العلاء إلى حد ما ، والذى شغل كثيرا بالدراسات المختلفة عنه .أقول عندما تردد صدى هذه الرسالة لدى الريحانى، أرسل إلى رسالة على طريقته الخاصة وبروح تشابه روح «رسالة الغفران» و«رسالة الملائكة» وفيها عبر بلسان أبى العلاء عن شكره للمستشرقين الذين احيوا آثار الأدب العربى معطين بذلك العبرة والسعادة للعرب أنفسهم والحقيقة أن هذه الرساله كانت بالنسبة لى أعظم وسام وشرف : فقد رأيت أن المؤلف الذى شغلت به مدة عشرين عاما وعشت معه كأنما هو واحد من أفراد أسرتى ، قد احتل مكانا جديرا به فى ميدان الحياة والعلم معا .

وهكذا انتهى تاريخ كشف صغير وجدته تحت قبة جامع الأزهر. ذلك الكشف الذى سجلته وأثبتته مطبعة أكاديمية العلوم بجزيرة فاسيلييفسكى فى ليننغراد .

وقد حدث أن أقيم فى سوريا وبعض البلاد العربية الأخرى احتفال بمناسبة الذكرى الألفية لميلاد أبى العلاء . ومن جديد حملنى هذه المناسبة على تذكر تلك الرسالة أيضا . وحدث أيضاً أن ظهرت فى دمشق سنة ١٩٤٤ طبعة جديدة اعتماداً على مخطوط جديد اكتشف فى ذلك الوقت . وهو مخطوط لم أكن أعرف عنه شيئاً من قبل . وهكذا سيظل الناس غير منفكين عن الكتابة عن « رهين المحبسين » الذى عاش فى بلدة صغيرة بسوريا ، عن الشيخ الأعمى الذى دخل فى الألف الثانى من عمره ، والذى يتزايد باستمرار ما يكسبه إلى جانبه من الأصدقاء .

٣ – رسالة ماجيستر غير مكتوبة

(١٩١٠)

« أودى الشباب حميــــداً ذو التعاجيب
لو كان يدركه ركــــض اليعاقيب ! »

لست أدرى لماذا ظل هذا البيت يرن فى أذنى طول اليوم . ووجدت نفسى دون قصد أو تعمد أتذكر شهر كانون الثانى (يناير) من عام ١٩١٠ عندما رجعت المرة الثانية من القاهرة إلى بيروت .

الاسكندرية ، مدينة البورصة والقطن ، لم تمتعنى إلا قليلا ذلك أنها منذ وقت بعيد تذكر بالغرب أكثر مما تذكر بالشرق . ولكنى قررت على كل حال التأخر هناك فى الاسكندرية بضعة أيام . فقد أردت أن أتعرف على حبيب الزيات الذى كان يعمل بتجارة الفواكه المجففة وتصديرها إلى جميع أنحاء العالم ، ولكنه كان ينتهز كل دقيقة من أوقات فراغه ليبحث فى المخطوطات . وقد كان عالما دقيقاذواقا ومحبا للمخطوطات . وبكل هذه الموهبة التى أوتيها كان يختلس من المخطوطات القديمة صورا منسية من الحياة تتصل بالثقافة العربية ثم يعمل على إحيائها فى مقالاته المتعددة التى طبعت فيما بعد . ولقد أردت أيضا أن ألقى نظرة على مخطوطات مكتبة الاسكندرية . وكان زيدان القصاص والعالم الأديب قد أخبرنى فى القاهرة ، بأن فى مكتبة الاسكندرية جزءاً من مكتبة الخديوى إبراهيم باشا بن محمد على مؤسس العائلة الخديوية . وقد كان فى رسالة زيدان إلى مكتبة الاسكندرية عونا لى على أن تفتح لى أبوابها على مصراعيها .

وتداعت انطباعاتى عن الأزهر . هذه المدرسة الكبرى للعالم الإسلامى . إذ رأيت هنا . فى مكتبة الإسكندرية صورة مختلفة تماما . فهذه المكتبة تشغل جزءاً من بناء جديد ذى طابع أوربى هو مقر المجلس البلدى لمدينة الإسكندرية . وكانت الشعبة الشرقية بالمكتبة تشغل صالة كبيرة تقوم عند جدرانها دواليب عادية للكتب وفى وسط الصالة تقوم منضدة طويلة . ولم يكن يوجد فى المكتبة فى ذلك الوقت

زوار آخرون. وفتح لى الأمين عن طيب خاطر تلك الشعبة الشرقية. وكان يديرها شيخ شاب تخرج من الأزهر. والحقيقة أنه لولا تلك الجبة ذات اللون البنى الغامق والأكمام الواسعة لكان من الصعب أن تعرف أنه تخرج من الأزهر. إن تلك النظارة، واللحية المثلثة التى تكسو ذقنه، واللغة الفرنسية التى يعرفها، هى على ما يبدو، أهم من المخطوطات التى يخزنها. وكل هذه المظاهر توحى للوهلة الأولى بأن هذا الشيخ أوربى فى ملابس عربية وطنية. لكن التحدث باللغة العربية ومحاورتى معه عن الأدب العربى سرعان ما ألقت بعيداً بهذه المظاهر الخارجية التى يمكن أن تكون قد نجمت عن كل نمط الحياة فى الاسكندرية.

وفى مكتبة الاسكندرية كانت المخطوطات فى نظام وترتيب، بل كان لها فهرس موجز على نمط فهرس مكتبة الأزهر. إلا أنه لا يفرق بين الكتب المطبوعة وبين المخطوطات. ولقد كان هذا الشيخ الشاب يريد أن يكون على مستوى النماذج الأوروبية. إلا أنه لم يكن يفهم إلا قليلا قيمة ما يخزن من الكنوز. غير أن الآمال لا تخدعنى. فمن بين عشرين مخطوطا تستحق الإهتمام وجدت مخطوطين هما درتان فريدتان، تتصلان بالشعر العربى الذى كان يهمنى بصفة خاصة فى ذلك الوقت. وكان أحدهما يحتوى على أشعار أحد الشعراء المعاصرين الأصاغر لأبى الفداء مؤرخ سوريا الشهير. وكان هذا الشاعر وطنيا كبيراً مخلصا، ينظم عبارات الثناء والإعجاب لمدينة حماة التى عرفتها أنا أيضاً ببساتينها ونواعيرها التى لا تعرف الصمت. وكان هذا الشاعر يترك أحيانا اللغة الفصحى ويستخدم فى نظمه اللغة العامية السورية. وقمت على مهل بنقل بعض الإقتباسات من هذا المخطوط، وبعد حوالى خمسة أعوام قمت بطبع هذه الإقتباسات إلا أن المخطوط ذاته ظل حتى هذا الوقت فريداً.

ومع هذا فإن هذا المخطوط لم يثرنى إلا قليلا. لكن المخطوط الثانى استطاع أن يهز شعورى مدة طويلة. وكنت قد أجلت الاطلاع عليه إلى آخر أيامى بالاسكندرية عندما أخذت تذكرة الباخرة. وعندما تسلمته فى يدى، أخذت أتصفحه بارتياح ورضى. وكما بدا لى كان نموذجا خطيا رائعاً يرجع تاريخه إلى القرن السادس الهجرى. وهو يحتوى على كل الآثار الفنية لمدرسة فى فن الخطوط كان زعيمها ورائدها ابن البواب المعروف. وصفحات المخطوط صغيرة وتحتوى

كل منها على ثلاثة او اربعة ابيات من الشعر منسوخة بطريقة فنية جميلة وبحروف ضخمة مظبوطة الشكل وبكل الحركات وعلامات القراءة . وبتلك الطريقة الفنية الخاصة بمدرسة « ابن البواب » كتب كل بيت من الشعر. لـكن الصفحة كانت لا تتسع لـكل البيت وعندئذ كان يمال بالسطر إلى اعلى ليكتب باقى البيت بحروف صغيرة . ومع ان هذه الطريقة غير متناسبة فنيا إلا انها تعطى حياة لـكل الشكل الفنى . وقد كان اللون الأساسى لهذه الاشكال الفنية هو اللون الأخضر الذى انطفأ بمرور الزمن ، والعين ترتاح لرؤيته . ولاشك فى ان هذا المخطوط إنما هو لأستاذ كبير فى فنه وقد خط بـكل تفصيلات الدقة بل وبحرية كاملة لفنان حقيقى .

وعندما انهمكت فى قراءة المخطوط سرعان ما نسيت ما يتعلق بشكله الخارجى وشغلت عنه بمضمونه ومحتواه . مرت امام عينى ابيات لشاعر موهوب من الشعراء العرب القدماء ، لاشك فى أنه من العصر الجاهلى . وكانت الأبيات غنية بصور الحياة البدوية وتعكس بصدق تفصيلات كاملة لحياة أولئك البدو . وكانت هذه الأشعار منظومة بنفس طريقة القصائد الجاهلية وتسير على نهجها . وفى بعض الأحيان كانت الصور الشعرية تتسم بنغمة فلسفية . وقد بدأت بعض هذه القصائد بهذا البيت : « أودى الشباب حميداً ذو التعاجيب لو كان يدركه ركض اليعاقيب ! » — وقد علق بذهنى هذا البيت على الفور . والشاعر كما يسمى فى المخطوط هو سلامة ابن جندل ، وبالنسبة لى فإننى لا أعرف جيداً هذا الاسم . فهو طبعا ليس واحداً من أصحاب المعلقات والدواوين الشعرية الست المشهورة . لـكن الحقيقة هى أن موهبة هذا الشاعر تحس وتلمس فى كل أشعاره . وبنشوة مطردة أخذت أبحث سطراً بعد سطر وشعرت بانفعال أن الحظ قد أتاح لى العثور على كشف علمى . ولم يكن فى المكتبة دليـل أو فهرس أوروبى لأسماء الشعراء القدماء . ولم يكن معى فى رحلتى كتاب بروكلمان ، ذلك الـكتاب القريب من قلوب كل المستعربين . وقد يكون شاعرى هذا الذى اكتشفته مذكوراً فى الفهارس الأوروبية أو فى كتاب بروكلمان . إلا أن الشىء الذى كنت متأكداً منه هو أن هذا المخطوط هو نسخة فريدة لاشك فى ذلك . والأمر الآن واضح . إننى لا أستطيع أن أرى بعيداً بهذا الاكتشاف . وهو أمر كنت قد قررته منذ أول يوم رأيت

تقيه المخطوط . كنت معتزما السفر فى اليوم التالى وكنت قد حجزت فعلا تذكرة للسفر على الباخرة ، إلا أننى فى ذلك الوقت بعد أن رأيت هذا المخطوط فى زيارتى لمكتبة الإسكندرية ، عزمت على تأجيل سفرى وبدلت تذكرة السفر لرحلة أخرى تالية . كان لابد لى من نسخ كل المخطوط كاملا . وقضيت يومين فى عمل محموم مـــلوء بالحماسة . أما الشيخ الشاب فكان يحار ولا يخفى حيرته . وأعطانى فى آخر الأمر مفتاح المكتبة راجيا منى أن أعيده إلى البواب عند خروجى فى المساء .

ها أنا ذا راكب الباخرة ، كأنى فى غيبوبة ، منصرف بكل أفكارى إلى عرب الجاهلية ، ولكننى مقابل ذلك مصطحب نسخة كاملة من شعر سلامة بن جندل منسوخة بشكل دقيق تماما مع كل تفصيلات مخطوط مكتبة الاسكندرية . وفى الليل عندما مررنا بيافا ، لم يحل لى أن أنام . وعندما كنت أتمشى على ظهر الباخرة ، لم أكن أفكر فى عبير بساتين البرتقال الذى يدرك السفينة أحيانا على بعد عدة كيلومترات من البحر ، إنما كنت أفكر فى إمكانية كتابة رسالة عن هذا الشاعر . وبدت أحلامى تتراءى لى : فمن ناحية ، كنت أريد أن أبحث فى حقيقة الوضع الواقعى الذى نشأت فيه اشعار سلامة بن جندل ، ومن اللازم لهذا البحث أن يكون على نفس الطريقة التى اتبعها «يعقوب» فى مؤلفه الأخير عن الحياة البدوية القديمة ومن ناحية أخرى كان يبدو لى أن أقوم بتحليل لأشعار بن جندل ، على أن يكون التحليل تطويراً لأفكار وآراء «شوارتز» عن أحد الشعراء الأمويين . وكان شوارتز قد دون هذه الأفكار فى كتاب له صدر آنئذ سنة ١٩٠٩ . والحقيقة أن موضوع رسالة الماجيستر ونصف العمل الذى تتطلبه هذه الرسالة قد أصبح جاهزاً لدى . لكن سلامة بن جندل قد زاحم هذا العمل وغطى عليه . وهذا أمر طبيعى بالنسبة لمستعرب ناشىء يشعر برغبة ملحة فى إبراز إكتشافه العلمى وتثبيت أولوية السبق فيه وإيجاد مكان متواضع له على رف تاريخ العلم . ولقد قررت أخيراً عندما كانت السفينة تقترب من بيروت أن ألقى جانبا بالموضوع السابق لرسالتى الماجيستير وأن أتناول هذا الموضوع الجديد لاسيما وإنى كنت أعتقد بأنه يتطلب زمنا أقل بالقياس إلى الموضوع السابق .

ومفهوم طبعا مدى ماتملكنى من انفعال قوى وفخر ليس بالقليل عندما كنت

أسرع حتى قبل الثامنة صباحا فى الذهاب إلى أستاذى البيروتى العربى لويس شيخو فى جامعة القديس يوسف ، وكانت التى تحتل مبنى ضخما متميزاً لافى الحى الذى عشت فيه فحسب بل وفى المدينة بأسرها. وأستاذى نفسه وهو الملحق فى عالم الكتب والمخطوطات يفهم جيداً ويقدر تماما حقيقة مثل هذا الشعور الذى يسيطر على . وأنا أعرف أنه سيقاسمنى سعادتى ومشاعرى . وكنت متأكداً من أنى سأجده فى المنزل إما فى صومعته المتواضعة جالسا يكتب ويقرأ تجارب الطبع التى لاتنتهى لمجلة « المشرق » ، أو جالسا فى ذلك المكان المألوف بالمكتبة الشرقية على نفس الطابق الذى كنت أتخذ لى فيه مكانا . وعدانا نحن الإثنين لم يكن يجىء إلى المكتبة عادة إلا بعض أساتذة الكلية الشرقية لمدة عدة دقائق .

وبالفعل وجـــدت شيخو جالسا يقرأ تجارب الطبع الخاصة بالعدد التالى من مجلته . وبعد الكلمات الأولى لفت نظرى فوجدت أمامه بعض الأشعار فسألته : ماهذه المقالة ؟

فقال : « أقوم بطبع ديوان سلامة بن جندل » . فصعقت تماما . وكل ما استطعت أن أفعله أننى همست سائلا : « حسب مخطوط الاسكندرية ؟ » فنظر شيخو إلى كأنما لم يفهمنى وقال : « لا . حسب مخطوط استانبول » . ثم سألنى بدوره عن سبب انفعالى هذا فبدأت قليلا وقصصت عليه ماجئت به إليه . فكان تعجبه أيضا لاتحده حدود . وما كان منه إلا أن راح يلوح بيديه مستغربا ويقول : « شىء عجيب ! » . وبادرنا إلى المقارنة بين المخطوطين . فظهر لنا أنهما نظيران، من مدرسة واحدة ، وأن تاريخهما متقارب . ولم يكن السبب الذى دفع بشيخو لدراسة بن جندل أقل غرابة . فمنذ بضعة أشهر كان المستشرق الفرنسى المشهور «هيور» قد نشر فى "Journal Asiatique' (المجلة الآسيوية) هذه الأشعار نفسها لسلامة بن جندل من مخطوط استانبول نفسه . لكن الحقيقة أنه لم يكن مستعربا كبيرا . ولذلك فإن عمله هذا لم يحقق نجاحا كافيا . وبعد ذلك قرر شيخو إصدار طبعة منقحة لمخطوط بن جندل على أساس نسخة استانبول التى نسخها فيما مضى . ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن نسخة الإسكندرية . فما كان منى إلا أن وضعت تحت تصرفه نسختى الخاصة التى استفاد منها لإدخال بعض التصحيحات على النص . وبهذا الشكل بقيت رسالتى للماجيستر غير مكتوبة إلى الأبد ، تلك الرسالة التى تصورتها

فى عقلى . وانهار من أساسه ولفوره ما كنت أحلم به من الفوز بقصب السبق فى هذا الإكتشاف . ولقد ظهرت عدة مقالات صغيرة وملاحظات بمناسبة صدور طبعة شيخو . لكن العمل الكبير الذى كنت أحلم به عن سلامة بن جندل عندما كنت على الباخرة ، لم يظهر حتى الآن .

وها أنا الآن ، حين يدور الحديث عن دور المصادفات فى العلم ، أتذكر دائما كيف أن ثلاثة من العلماء : فرنسى وعربى وروسى قد شغلوا جميعهم فى وقت واحد وهم فى أماكن متفرقة ، بدراسة شاعر عربى واحد من واقع مخطوط واحد . وعندما أصادف أشعار سلامة بن جندل أو اسمه تتمثل أمام بصرى صورة تلك القاعة الهادئة وسط ضجيج الاسكندرية وصورة ذلك الشيخ الشاب ذى اللحية الفرنسية . وصورة ذلك المخطوط الذى نسخ بخط جميل وحروف ضخمة ذات لون أخضر ولمعان ذهبى . وعندئذ يرن فى أذنى بدون انقطاع :

« أودى الشباب حميداً ذوى التعاجيب
لو كان يدركه ركض اليعاقيب ! »

وفى بعض الأحيان فقط تستيقظ فى أعماق الفؤاد فكرة تقول : أليس ثمة يدعو إلى الأسف أننى لم أكتب رسالة ماجيستر عن سلامة بن جندل ؟

٤ — مخطوطات بطريركاين أم نبوءة تحققت
(١٩٠٠ — ١٩٢٧)

إن أعوام طفولتى الأولى ترتبط بمكتبه جد فريدة قضيت فيها كل عطلاتى الصيفية . ففى ضيعة صغيرة وسط مبان اقتصادية مختلفة ، غير بعيد عن المنزل السكنى وبجوار اصطبل للخيل ومخزن للعلف كانت تقوم «ثلاجة أرضية». بناؤها مربع ، مبنية جدرانه بكتل حجرية ، ويرتفع بمقدار علو الطابق الأول الذى يستخدم كثلاجة . أما الطابق الثانى فهو من الخشب ويؤدى إليه سلم خارجى ، وهناك على المبانى تقع حجرة سكنية المظهر . كبيرة ليس فيها ، مع ذلك ، سوى رفوف ودواليب للكتب ، وطاولة مستديرة وطاولة أخرى للعمل وبعض الكراسى وأريكة غير عريضة . وأما أثاث الغرفة فقديم ،وهو من أخشاب الدردار

القاقمة ويكسوه قماش قديم أيضاً . وللغرفة باب زجاجي ونافذتان تطلان على بستان يجاور البيت . وفي البستان شجرتان ضخمتان منذ عصر القيصرة ايكاتيرينا وهما من نوع أشجار الزيزفون تشمخان بارتفاعهما على كل ما حولهما وتريان على بعد عدة فراسخ . وفي الجانب الآخر يمتد أفق عريض واسع يحتضن المروج والنهير وبركة عليها طاحونة . وعلى مسافة بعيدة تقوم غابات يكتنفها السواد هناك، تلك الغرفة كنت أحيانا أقضي النهار وأحيانا أخرى أقضي الليل نائما على فراش بسيط فوق تلك الأريكة الصغيرة .

ولقد حدث في أعوامي الدراسية القديمة أن التهمت من غير كلل كل ما وجد في هذه الغرفة من المجموعات السنوية الكاملة لمجلة « الأرشيف الروسي » ومجلة « القدم الروسي » ومجلات أخرى مشابهة . وبالمصادفة عثرت آنذاك على صورة قديمة أعجبت بها في عدد كان قد نشر حديثا من مجلة « مطالعات جمعية التاريخ والآثار الروسية » . ونظرت فيما كتب تحت هذه الصورة فإذا هي صورة لبطريرك أنطاكية مكاريوس . وعرفت للمرة الأولى من المجلة أن البطريرك مكاريوس زار روسيا مرتين في زمن القيصر الكسي ميخائيلوفيتش . على أنه قد بقيت في الحقيقة أشياء كثيرة مما قرأت غير مفهومة لي ، وفي مقدمة هذه الأشياء مسألة كيف يمكن أن يكون هذا البطريرك عربيا في حين أن كل العرب مسلمون ؟ هكذا فكرت ببساطة . لكنني في ذلك الوقت تذكرت رواية « يوحنا الدمشقي » لألكسي تولستوي . وبالإضافة إلى ذلك ، لم أفهم أيضا لماذا رحل بطريرك أنطاكية من دمشق . ومرت عدة أعوام قبل أن أعرف أن العرب المسيحيين لعبوا دوراً مهماً في الخلافة العربية ، وأن تاريخهم هو صفحة ممتعة في الثقافة العربية . ولكن كل هذه الأشياء كانت في ذلك الوقت شيئا غامضا شأنه شأن الكلمات غير المفهومة التي كانت تحت صورة البطريرك مكتوبة بالعربية إلى جانب الكلمات اليونانية . أما الصورة بالذات فقد كان مرسوما عليها رجل منحني قليلا وعلى وجهه تجاعيد تنم عن قسوة ولقد بقيت هذه الصورة منطبعة في ذكريات الشباب ، وظلت هذه الذكرى مختزنة لمدة عشرة أعوام فيما بعد عندما رأيت في دمشق خليفة البطريرك مكاريوس وتحدثت معه عن مخطوطات سلفه الراحل .

أن القدر الذي كان ينتظر تلك المكتبة — الثلاجة ، هو قدر سيء . فلطالما

خدمتنى فى فترات الصيف وفى سنوات التلمذة حتى رحلتى إلى الشرق . لكننى كنت فيما بعد قلما أزورها ، وكانت آخر مرة زرتها هى فى تموز (يوليو) ١٩١٥ . وتركتها بنفس يسيطر عليها شعور قلق . فى ذلك الوقت كانت الرياح تحمل إلى الآذان صوت طلقات مدافع تدوى من بعيد . ولم أكن أتوقع فى ذلك الوقت أن الجنود الألمان سيقومون بعد عدة أشهر بتدمير هذه المكتبة وما بها من كتب. لم تبق صورة البطريرك سليمة إلا فى ذا كرتى .

وحين صار التلميذ طالبا غدت ملامح هذه الصورة كأنما هى قد انتعشت . وعلمت أن رحلة البطريرك مكاريوس قد وصفها إبنه بولص الحلبى وأن كتابه مصدر هام جدا من مصادر التاريخ الداخلى لدولة روسيا الموسكوبية . وعرفت أيضاً أن هذا الكتاب قد ترجمه إلى اللغة الروسية مرقص الدمشقى الذى كان أستاذا بجامعة موسكو . وفيما بعد استحوذ على نفسى ذلك الداء العضالى وأعنى به « حب المخطوطات » عرفت أن هذه الترجمة كانت عن نسخة جديدة ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر ، وأن النسخة الأصلية التى يرجع تاريخها إلى عام ١٧٠٠ قد تلفت فى فترة مذبحة المسيحيين فى دمشق ١٨٦٠ كما يعتقد بعض العلماء . ولقد تذكرت هذا مرارا أثناء رحلتى إلى سوريا . ومن بين مئات الأحلام التى استحوذت على كان يبرز أحياناً الحلم التالى : «حبذا لو يتمكن عالم روسى من العثور على المخطوط القديم لرحلة مكاريوس إلى روسيا !» ومر عامان على هذا الحلم دون فائدة، واستطعت فى هذين العامين أن أقوم بزيارة خاصة لذلك المترجم مرقص الذى كان يعيش آخر أيام حياته فى هدوء بقرية صيدنايا قرب دمشق . ولكنه لم يستطع أن يخبرنى بشىء جديد . على أننى ما كنت أريد العودة إلى وطنى دون القيام بمحاولة أخرى لزيارة مكتبة غريغوريوس الحداد البطريرك الإنطاكى . تلك المكتبة التى كانت تروج عنها إشاعات خيالية وكان كثير من الناس يحكون أشياء غريبة عما يصادفونه فى تلك المكتبة ولكنهم كانوا يضيفون إلى ذلك دائما والبسمة تعلو وجوههم أن الحداد ماكر وأنه يتماكر على الجميع حتى لا يريهم كل الكنوز التى تحويها مكتبته . إلا أننى كنت أعتقد أن هذه الأشياء غير صحيحة . ذلك لأنى كنت بعد عامين قد ألفت طيب النفس لدى المسلمين و « الفرنجة » الذين كانوا يفتحون عن طيب خاطر لذلك المستشرق القادم من أقصى بقاع الأرض كل ما حوته مجموعاتهم من الكتب . ولقد كان من الصعب الإفتراض بأن خليفة مكاريوس سيخفى هذه الكنوز العلمية عن الروسى الذى أحب اسم مكاريوس منذ طفولته .

وعلى كل حال فقد كانت زيارتى الأولى لدمشق غير ناجحة . فقد كان البطريرك مسافرا فى ذلك الوقت . ونقلت لى ألسنة السوء فيما بعد أن البطريرك رجع فى نفس اليوم الذى سافرت فيه . ولكننى إعتبرت هذا أيضاً من الكلام الفارغ المألوف . وفى المرة الثانية حين تأهبت للعودة إلى روسيا لم أستطع أن أكبح فى نفسى جماح الرغبة الشديدة فى زيارة ثانية لعاصمة الخلفاء الأمويين القديمة ، ومقصدى الأساسى من هذه الزيارة هو نفس المقصد السابق . وعزمت هذه المرة على العمل بطريقة رسمية ، مع أنى لا أميل إليها عادة . وفعلا توجهت طالبا معونة القنصل الروسى فى دمشق . وكان على قسط من الشهرة كجامع آثار عن الكلدانيين القدماء ، كما كان أيضاً رفيقا لأحد أساتذتى فى جامعة بطرسبورغ . ومع أنه كان يفهم جيداً حقيقة شعورى فقد حذرنى — كما فعل عند زيارتى الأولى — فى عبارات رددها كل أهل دمشق مفادها أن « الحداد رجل ما كر » .

ولكننى فرحت فرحا شديداً عندما علمت بعد وصولى إلى دمشق بأن البطريرك سيستقبلنى فى اليوم التالى . ولكن هذا الإستقبال كان ، مع الأسف ، فى جو احتفال ضم عدد كبيرا من المدعوين . وكانت الصورة التى اتخذها هذا اللقاء هى التعريف بى كشخص روسى . ودار الحديث حول شخصى أكثر مما دار حول المخطوطات ، وعندئذ رأيت أن أكون إنساناً حازماً ، فتحدثت مباشرة عن الهدف الرئيسى من رحلتى . وحالفنى النجاح فى الحصول على موافقة البطريرك على الإلتقاء معه لقاء شخصيا بعد يومين . وذهبت فى الوقت المحدد إلى البطريرك وابتدأت المخاوف التى كانت قد انتابتنى تتلاشى عندما رأيت البطريرك فى وضع منزلى وليس عنده سوى مدير المدارس والكاتب الخاص . وأما البطريرك نفسه فهو مستدير الوجه ، مكتنز الجسم وليس بطويل القامة ، وهو يشبه قليلا سلفه فى القرن السابع عشر . وكان الحقيقة مثالا « لامراء الكنيسة » الجدد فى الشرق الذين كنت أعرفهم جيداً . والشىء الذى لم تسترح إليه نفسى هو تلك المبالغة فى اللطافة. حتى تلك العبارات العربية العادية « بيتنا بيتكم »، « نحن تحت أمركم » ، كانت ترن فى أذنى كشىء متكلف مصطنع . وفى هذه المرة لم أمكنه ، مع ذلك ، من تجنب الحديث عن موضوع المخطوطات وظهر من حوارى معه معرفته التى لا شك فيها عن الأدب وبخاصة الأدب العربى المسيحى . وهو أمر كان يهمنى بصفة خاصة فى ذلك الوقت. فوجهت إليه بعض الأسئلة الصريحة . ولكنه ، رغم هذا ، كان يرد بأجوبة

ملتوية وفى بعض الأحيان كان يجيب بابتسامة خفية لم أسترح إليها قائلا: « يبدو لى أن هذا موجود عندى » أو « سمعت أن هذا موجود فى حلب » أو « لقد آرانى هذا أحدهم » . وعندما فرغ صبرى وتحدثت عما يشاع عندنا عن المخطوط الخاص برحلة مكاريوس سنة ١٧٠٠ ، لمعت على شفتيه من جديد ابتسامة متحفظة وأشار بصورة شبه ملغزة : « لكن ماذا ؟ طبعاً لم تحرق كل المخطوطات فى ذلك الوقت » . وهكذا لم يرنى أى شىء فى ذلك اليوم أيضاً . وقيل لى أن كل الكتب كانت موضوعة فى صناديق بسبب ترميم يجرى فى الحجرات الداخلية . وعندئذ لجأت إلى حجة غريبة فقلت إنى مضطر للعودة إلى روسيا بعد عدة أسابيع ، وهناك سيكونون غير مرتاحين بالطبع عندما يعرفون أنى رأيت مجموعات مكتبة جامع الأزهر فى القاهرة وجامعة القديس يوسف فى بيروت ومجموعات الأسقفية المارونية فى حلب ، أما فى دمشق فلم أتمكن من رؤية المكتبة المشهورة لبطريرك أنطاكية الصديق الكبير لروسيا . وظننت أنى ، هذه المرة ، قد أحرزت الغلبة على هذا الماكر المشهور . ورأيت البطريرك وكأنما استغرق فى تفكير لمدة دقيقة ، ثم قال لى بنفس الابتسامة المتحفظة التى لم أسترح إليها : « نحن تحت أمركم دائماً . إننى سآمر بفتح جميع الصناديق غـــدا ، ويوم الخميس سترون كل ما منح الله بيت هذا العبد الفقير » . ولقد شعرت عند ذاك بمنتهى الفرح والسرور .

ومر اليومان بسرعة وذهبت إلى البطريركية فى الوقت المحدد . ولم أجد القواس عند الباب . فالهدوء يخيم على المكان ، وليس ثمة زوار خلافا للعادة . وعندئذ شعرت بأن وراء الأكمة ما وراءها . ولقينى فى قاعة الاستقبال مدير المدارس ذاك فقال لى بابتسامة لطيفة معهودة : « لقد سافر غبطته إلى الشمال بالأمس ، وخشى ألا يتمكنوا بدونه من إطلاعكم على المخطوطات كما ينبغى ، ولذلك لم يأمر بفتح الصناديق » . وسألته بطريقة غير لطيفة بعض الشىء : « لكن ألم يكن يعرف أول أمس أنه سيسافر ؟ » فأجاب الراهب مدير المدارس — وكأنه لم يسمع سؤالى — بطريقة منافقة كما حدث سابقاً : « أبونا تأسف كثيراً . وأمرنى أن أعرف ما إذا كان لديك رغبات ما » . وعندئذ طاش صوابى فلم أتمالك نفسى من شدة الغضب ، وقلت بكلمات حازمة صارمة : « قل لأبيك أنه عبثاً يحاول إخفاء مخطوطاته عنى . وعلى كل حال فإن هذه المخطوطات ستصل إلى يدى » .

وفى اليوم التالى غادرت دمشق . وسرعان ما عدت إلى روسيا ناسياً تماماً تلك العبارة الصارمة التى انطلقت من فمى موجهة إلى مدير المدارس دون توقع. وما كنت أنا نفسى أفهمها . على أنه يقال إن اللعنة أو الرغبة كثيراً ما تتحقق إذا ما كانت مشتعلة بنار الغضب عن غير قصد ، فما كنت لأفكر مطلقاً بأننى سأكون نبياً ، وأن البطريرك نفسه سيكون أول معين لى على تحقيق هذا الهدف الذى سافرت من أجله إلى دمشق .

ففى عام ١٩١٣ ، عندما احتفل بذكرى عائلة رومانوف القيصرية ، كان من بين المدعوين إلى هذا الاحتفال غريغوريوس الحداد البطريرك الأنطاكى . وعلمت أكثر من مرة بعد وصول الحداد إلى بطرسبورغ أنه يود أن يرانى وأنه سيكون مسروراً لو أننى زرته .

لكننى تذكرت بصورة حية ما كان من أمره نحوى فى دمشق ففضلت أن أتناساه . وعلى هذا لم آب دعوته . عرفت أيضاً من أخبار الجرائد أنه أحضر لعائلة رومانوف هدايا من الشرق وأن من بين هذه الهدايا كتباً. لكننى مع هذا لم أعر ذلك أهمية كبيرة . بيد أنه بعد سفر الحداد ترددت إشاعات كثيرة حول المخطوطات الشرقية التى أحضرها . ومن جديد غلبنى ذلك الشعور القديم والقلق المستمر . واستطعت بطريق الاستفسارات المختلفة أن أستوضح جلية الأمر ، وعرفت أنه بعـــد الاحتفال وبعد رحيل البطريرك ، قد سلمت — فعلا — مخطوطات شرقية ما إلى « المكتبة الخاصة لجلالته » فى القصر الشتوى . ولم يكن بالأمر اليسير على — كمساعد أستاذ ناشىء — أن أقتحم حدود هذا القصر . لكن إصرار أكاديمية العلوم ساند هدفى وساعدنى فى التغلب على العقبات التى وضعتها أمامى كل من وزارة البلاط والشرطة وحرس القصر . وأخيراً حصلت على إذن بزيارة المكتبة . طبعاً فى الأوقات التى لا تكون فيها أسرة القيصر فى بطرسبورغ. وخلال ممرات الأقبية الملتوية وبمصاحبة حرس خاص دخلت قاعات المكتبة حيث كان مستخدموها يراقبوننى ويتطلعون على . وكان رئيس المكتبة سيداً من رجال البلاط القيصرى لا يأتى إلى المكتبة كل يوم. وكان نائبه كولونيلا وكان الغرض من وجودى بالمكتبة غير واضح تماماً لكل منهما . ولعل هذا هو السبب فى أن أحد المستخدمين كان يجلس أمامى على المنضدة ومعه رواية

فرنسية ، وكان ينظر إلى باهتمام متتبعاً ماذا أفعل . وكانت شروط العمل غير ملائمة ولا مريحة فلم يكن يسمح لى بأكثر من مخطوط واحد . والمخطوط الذى أطلع عليه لم يكن يسمح لى بأخذه مرة ثانية . وكانت أوراق المخطوطات بدون أرقام ، طبعاً ، وهو أمر كان يصعب الاقتباسات العلمية إلى أقصى حد. وما كنت أعرف السبب الذى من أجـــله لم يسمح لى بقياس طول وعرض صفحات المخطوطات . ولم يكن يوجد فى المكتبة أى كتاب يمكن الرجوع إليه كمصدر فى هذا الموضوع . ولم أستطع أن أحمل معى إلى المكتبة مثل هذا المصدر ، لعدم السماح بهذا . ولقد فحصت بدقة واهتمام كل الملاحظات والاقتباسات العلمية التى نسختها من هذه المكتبة . وكانت هـــذه الملاحظات لا تعاد إلى بسرعة . وبالمصادفة عرفت بعد ذلك أنه كان يجب أن تترك هذه الملاحظات فترة من الزمن حتى يتمكن أحد الخبراء من فحصها فلربما تـكون هذه التسجيلات العربية « شفرة سرية » . كل هذه المضايقات كانت موجودة ، وكانت قائمة . ومع هذا فقد نسيت كل هذه المضايقات لحظة وقع فى يدى أول مخطوط ونظرت فيه بعجالة ، متسرعاً فى معرفة ما يحويه المخطوط التالى من أشياء غير متوقعة .

أهدى البطريرك إلى القيصر أكثر من ٤٠ مخطوطاً هى مجموعة كاملة شكلت طبعاً بمعرفة شخص خبير فى هذا الموضوع . وكانت فى الحقيقة عظيمة ورائعة ، وغالبيتها مخطوطات فريدة لا توجد لها نسخ أخرى مماثلة ، وهى تصور على نحو رائع جوانب مختلفة من الأدب العربى المسيحى . وكان ما يقرب من نصفها مؤلفات وتصانيف لمـا كاريوس الأنطاكى أو لإبنه بولص الحلبى . وهى كلها تقريبا مكتوبة بخط الأخير الذى كان خطاطاً عظيما . ويشير عنوان أحد المخطوطات إلى أنه فى زمن وباء الطاعون فى روسيا وفى الفترة التى خاض فيها القيصر الـكسى ميخائيلوفيتش غمار الحرب ضد بولونيا شغل النسخ أوقات الفراغ فى بلدة كولومنا . والحقيقة أن يدى أصابتها رعشة وارتعاد عندما وقعت عينى على مخطوط يرجع تاريخه إلى عام ١٧٠٠ ويتضمن رحلة مكاريوس فى روسيا . كان من المعتقد أن هذا المخطوط قد أحرق . وها هو ذا ملقى أمامى كاملا سليما ، منسوخا بخط دقيق يحمل طابع خطوط القرن السابع عشر. على أننى لم أكن أفيق من مفاجأة حتى كنت أقع فى مفاجأة أخرى يحملها مخطوط آخر. ولقد كان واضحاً لى أن

بلادنا قد حصلت بهذه المجموعة على مجموعة لآثار الأدب العربى المسيحى لا تقل من حيث النوعية عن المجموعات القديمة والحديثة المحفوظة فى باريس أو الفاتيكان أو بيروت. وصار واضحاً فى ذهنى مشروع Catalogue raisonné — فهرس علمى يشتمل على موازنات مأخوذة من المجموعات المماثلة من المخطوطات ، ويشتمل على اقتباسات كبيرة من مجموعات أخرى وعلى القائمة الكاملة لمؤلفات مكاريوس وابنه بولص . وكل هذا طبعاً ، أمل المستقبل . أما الآن فقد كان العمل فى القصر الشتوى يسير ببطء . وكان عملى ينقطع مراراً بسبب عودة عائلة القيصر أو لعدم إمكانية ذهابى إلى المكتبة فى تلك الساعات التى كانوا يغيرون موعدها كل يوم على أننى أخذت أنظر بعض المجموعات الأخرى فى بطرسبورغ بحثاً عن الموازنات. وهكذا حتى صيف ١٩١٤ أنهيت وضع الفهرس الأولى لمجموعة القصر . وكنت أشعر فى كل دقيقة أن قصر الشتاء ليس البتة مكاناً مناسباً لهذه المجموعة .

فى ذلك الصيف بالذات ، عندما سافرت إلى الخارج ، أخذت أبحث باهتمام عن بعض تصنيفات مكاريوس ، الموجودة سواء فى مكتبة جامعة ليبزغ الرائعة التزويد ، أم فى ذلك البناء المتواضع ، التابع لـ Deutsche Morgenländische Gesellschaft (جمعية الاستشراق الألمانية) ، فى مدينة هالة حيث كنت مراراً الزائر الوحيد ، ولذا كان علىّ أن أضع المفتاح فى المكان المتفق عليه بعد أن انتهى من عملى كل يوم . وكانت آخر مكتبة على طريقى فى تلك السنة هى مكتبة جامعة ليدن حيث توجد مجموعات « وارنر » فى غرفة هادئة هناك . وفى أثناء إقامتى هناك أشعلت نيران الحرب فتركت هناك لمدة أعوام طويلة كل ما حصلت عليه من مادة علمية .

والأمر الذى أثار دهشتى الكبرى أنه قد تحققت تماماً تلك العبارة الغاضبة التى انطلقت من فمى عندما كنت فى دمشق . فبعد ثورة أكتوبر حين أصبح للكنوز التى جرى جمعها طوال القرون ، مكان مناسب ، تذكرت مجموعة البطريرك فى « المكتبة الخاصة لجلالته » ، التى لم يكن يتصور أحد أنها تحتوى على مثل هذه المجموعة . وقد تكلل بالنجاح وبسرعة طلب الأكاديمية بإحالة هذه المجموعة إلى المتحف الآسيوى . ففى يوم من أيام الشتاء الباردة فى ١٩١٩ ،

وبصحبة مساعدى التلميذ ، وعلى زحافة ، وفى شوارع بيتروغراد (بطرسبورغ سابقاً) الخالية من الناس ، نقلت المخطوطات الأربعين كلها لافا أياها فى معاطف من جلود الخراف إلى بناء قديم المتحف الآسيوى بالقرب من بناء الأكاديمية ذى الأعمدة . كنت فى ذلك الوقت أميناً على شعبة الشرق الأدنى . ومن جديد مرت جميع المخطوطات عبر يدى بكل معنى الكلمة . وهناك استطعت أن أدرسها كما أشاء وبدون تسرع وفى ظروف تختلف تماماً عن ظروف القصر الشتوى . وفى بعض الأحيان كنت أتذكر بالابتسامة زيارتى الأخيرة لبطريرك أنطاكية فى دمشق حيث رحلت المخطوطات إلينا من هناك .

ولم يعكر صفو فرحى إلا شيء واحد، هو أن القائمة الأولية بجميع الاقتباسات قد بقيت فى هولندا . صحيح أنها رجعت إلى بغير سرعة وتسلمتها فى وقت كنت مشغولا فيه بأعمال كثيرة أخرى لم تمكننى من مواصلة هذا Catalogue raisonné الفهرس المشار إليه . فاكتفيت بنشر وصف مختصر . لست أدرى كيف يكون موقف البطريرك الذى توفى فى نهاية ١٩٢٨ لو رأى أن كثيراً من مخطوطاته أصبحت معروفة ومشهورة بين العلماء . وكان من مخطوطات البطريرك فى بطرسبورغ كتاب التوراة العربى فى ثلاثة مجلدات ، وكان وجودها لدينا مبعث غيرة لدى الفاتيكان . وتولد عنها كتب كثيرة خاصة بها . وتولد عنها أيضا جدل ونقاش كثير يتعلق بمقارنة أهمية مخطوطنا بنسخة روما . وكانت من مخطوطات البطريرك أيضاً مجموعة أبحاث الأطباء العرب عن طب العيون . وهى نسخة نادرة جداً أثارت ضجة كبيرة بين المتخصصين فى تاريخ العلم . والنسخة الأخرى لهذه المجموعة الطبية العربية كانت موجودة فى مكتبة صديقى تيمور باشا . وهذه النسخة الأخيرة قد أتاحت نشر جزء كبير من المخطوط فى طبعة منقحة لجامعة القاهرة . وأما وصف جورجيا وهو بخط البطريرك مكاريوس فقد درسه باهتمام مستعرب جورجى . كذلك تشمل المجموعة كثرة من المخطوطات القيمة الأخرى . ومن حسن حظ العلم أن الحياة قد أظهرت أن هذه المخطوطات قد لقيت ما تستحق من التقدير والتقييم .

وهكذا لم يستطع البطريرك غريغوريوس الحداد أن يكون بمثابة « الفارس

البخيل ، الذى اعتقد أنه يستطيع إخفاء كنوزه عن عيون الآخرين . لكن ها هى ذى العيون تفتح هذه الثروة بفرحة جياشة ، وبهذا تمكن العلماء من إنارة صفحات جديدة فى تاريخ الحضارة البشرية .

وها أنا الآن التقى أحياناً مع صورة مكاريوس ، ونظرته ما تزال هى هى كسابق عهدها صارمة مستفسرة تشبه تماما تلك النظرة التى كان ينظر بها إلى ذلك التلميذ الشاب فى تلك المكتبة العجيبة . وأجد نفسى على غير إرادة منى أخاطبه مبرئاً نفسى : « لقد جهدت أن أعمل كل ما فى وسعى من أجل مؤلفاتك ! » ومن جديد ، وبأمى لا يخبو أبداً ، تقف أمامى ذكريات عن المكتبة الأولى التى احتضنتنى فى طفولتى .

٣ — كتاب عرب ومستعرب روسى

١ — « فيلسوف وادى الفريكة »

(١٩١٠ — ١٩٤٠)

يتاح المستعرب القيام با كتشافات كثيرة . ولعله يلقى منها على طريقه أكثر مما يلقى الباحثون فى المجالات العلمية الأخرى التى هى أعمق تنقيباً وتستدعى عدداً أكبر من البحاثة . ولا داعى للتفكير فى أن هــــذه الاكتشافات لا ترتبط إلا بالمخطوطات ولا داعى لمثل حزن تلك الفتاة الشابة الباحثة فى الأدب التركمانى التى قالت لى وهى مهمومة إنه ليس عندهم مخطوطات قديمة إذ أن الأدب التركمانى نفسه أدب ناشىء . فبقدر ما نقترب من أيامنا هذه ، تلعب الكتب مثل الدور الذى تلعبه المخطوطات . فى بطون الكتب أيضاً يمكن المرء أن يتوصل إلى اكتشاف علمى . فأحرى أن يقال هذا فيما يتعلق بالخطابات والمراسلات التى تسنى لها اختزان مشاهدات قيمة معاصرة .

وتكون الاكتشافات أحياناً من الكثرة بحيث لا يعرف المرء إلى أين يهرب منها . فقد كنت على الدوام لا أفهم كيف يمكن المرء أن يبحث عن الموضوع أو يطلب الإشارة إليه حين تلتف شتى الموضوعات حول العالم منذ أول خطوة من خطوات حياته العلمية . والحقيقة أن مأساة مجالنا العلمى هى وفرة الموضوعات فيه . فإذا تقيدنا بطريقة علمية دقيقة فلابد لنا من اقتضاب مجال البحث . وعندئذ تكون النتائج أعمق . ولكن المرء لا يستطيع أحياناً السيطرة على نفسه لا سيما حين يكون عليه أن يبقى فى مجال بصره كلا من الأدب القديم ، والأدب الحديث الذى لا يمكن للمرء إغفاله الآن حابساً نفسه فى إطار الأنانية العلمية لمستعرب كلاسيكى . فى مجال الأدب الحديث تمنح الحياة نفسها اكتشافات عديدة وسعادة كبيرة لمن يستطيع أن يلمح بعينيه هذا الأدب فى مهده .

لكن المقادير لم تهبنى هذه الفرصة . فأنا لم أزر الشرق إلا مرة واحدة .

وبالطبع كانت مهمتى فى الرحلة الأولى تقتصر على التعرف الأولى . وكان ينبغى أن تتبعها رحلات أخرى حقيقية مرسومة منظمة . لكن هذا لم يحدث . وكثيراً ما حزنت على ذلك فى الفترات الأولى بحكم تفكير الشباب . إلا أن الحياة علمتنى أن التعرف الجيد على إنسان لا يقتضى حتما الاتصال به اتصالامباشراً . فالكتب والخطابات والصور تكشف عنه إلى درجة كبيرة بل وتكون أحياناً أحسن تخيراً من المعاشرة الشخصية . ومع أنى لم أتمكن من دراسة الأدب المعاصر إلا من بعيد فإننى مع هذا قد توصلت إلى كثير من الاكتشافات فى هذا المجال .

وقد اعترف بهذا زملائى من المستعمرين الغربيين الذين سافروا كثيراً إلى البلاد العربية . وكنت أشعر أحياناً بالأسف لعدم تمكنى من السفر مثلهم . وفى عام ١٩٣٠ ، وبشعور يشوبه شىء من المرارة تجادلت مع عالم ألمانى محترم عارف بالشرق العربى الحى عندما أراد ، فى أحد مؤلفاته العلمية ، أن يكتب باللغة العربية تحت صورتى : « أول من انصرف فى الغرب إلى دراسة الأدب العربى الحديث » . برهنت له على أنه كان قبلى أيضاً علماء اقتربوا من هذا الموضوع . لكنه كان صارماً ولم يضف جواباً على اعتراضاتى إلا كلمة واحدة : « أول من انصرف بانتظام ... » . وبعد ذلك بخمسة أعوام شاءت المصادفات أن أتسلم رسالة لطيفة باللغة العربية من مستعرب انجليزى كبير على معرفة بمصر والبلاد العربية الأخرى نتيجة لرحلاته المتعددة . ومعرفته بالبلاد العربية لاتقل عن معرفته لوطنه . وربما أكون غير منصف إذا أنا نسبت كلماته كلها إلى ما هو معروف عن الأسلوب العربى . ففى كلامه لى يقول : « لقد فتحت أمامى باب الأدب العربى الحديث وأظهرت لى كثيراً من أسرار الأدب العربى القديم . . . ولقد رفعتنى بتعظيمك لى وإن نجمتى الصغيرة لا تلمع إلا من سنا شعاع شمسك » .

وهكذا جاءت آراء الآخرين تؤكد شعورى الخاص بأنه من الممكن دراسة الأدب العربى المعاصر على بعد منه وبأنه من الممكن التوصل إلى اكتشافات عن طريق الكتب والرسائل . وأننى لأتذكر الآن بشعور خاص من الارتياح كيف

أسعدنى « اكتشاف » بعض الكتاب المعاصرين فى وقت لم يكن يعرفهم فيه أحد فى أوروبا ، حيث لم يكن هناك بصفة عامة من يعرف الأدب العربى الحديث ، وحتى فى بلدانهم بالذات . أما الآن فهم جميعاً كلاسيكيون يعترف بهم كل العالم العربى .

حدث أن التقيت بأحدهم فقط ، وهو أكبرهم سناً ، مرة واحدة فى بيروت . كان لقاؤنا فى ربيع عام ١٩١٠ قبل عودتى إلى روسيا بوقت قليل . كان لقائى بأمين الريحانى مصادفة فى قسم التحرير لإحدى الجرائد الصغرى وكان قد رجع من أمريكا منذ مدة قليلة . واسترعى انتباهى مظهره الخارجى وتعمقه فى التأمل الذى كان يبدو حتى فى أصغر المحادثات . وكثيراً ما رجعت بعد ذلك فى الأفكار إلى ذلك الرجل غير العادى بالنسبة للعرب الذى أصبح فيما بعد قائد المدرسة السورية الأمريكية فى الأدب الحديث (مدرسة المهجر) . ولقد أحسست من الوهلة الأولى بأن لديه مقدرة كبيرة ترتفع فوق مقدرة كل الصحفيين والخطباء الكثيرين آنذاك بل والمشهورين أحياناً فى سوريا ولبنان اللذان عرفتهما جيداً .

على أن الإحساس الأول — وهو غريزى بالطبع — لم يخدعنى ، بل تبين صدق هذا الإحساس عندما ظهرت فى تلك الفترة مجموعة مقالاته وأشعاره المنشورة فى جزئين . وكان ظهور هذا الشعر المنثور حدثاً كبيراً فى الأدب العربى . فأردت تعريف القراء الروس بهذا المؤلف . وفعلا ظهر كتابى الذى يحوى ترجمة من أمين الريحانى . لكن ذلك كان فى فترة صعبة من الزمن ، قبل ثورة أكتوبر بأسبوعين . وبحسب وجهة نظر بعض الشخصيات الصحفية كان ظهور هذا الكتاب فى ذلك الوقت كالنغمة النشاز تدق فى غير أوانها . وكانت النتيجة أن المستعرب المترجم لم ينل سوى الزجر والتأنيب على صفحات الجرائد . لكن شخصاً واسع الأفق مثل نيقولاى مار لم يبال بالخوف وأوضح فى مجلة خاصة أهمية أمين الريحانى فى ضوء واقع حياتنا فى تلك الفترة .

وفى النهاية استطاع كتابى أن يجد طريقه إلى الريحانى ، ووصل إليه ،

ولكن ببطء . كان ذلك بعد أن رجعت مرة أخرى إلى أشعار الريحانى المنشورة فى مجلة « الشرق » الروسية التى أسسها مكسيم غوركى . وكانت نظرة غوركى إلى كل من المؤلف والمترجم تختلف عن نظرة أولئك النقاد الصارمين قصيرى النظر فى تلك الفترة ١٩١٧ — ١٩١٨ . ووصلت عن طريقنا إلى الغرب معلومات عن أمين الريحانى . كان ذلك فى إحدى المحاضرات التى أعددتها لجامعة أوبسالا فى ردى على الدعوة التى وجهت إلى للسفر إلى هناك لإلقاء بعض المحاضرات . وقد حاولت فى هذه المحاضرة أن أعطى صورة لمعالم المدرسة السورية الأمريكية «المهجر» فى الأدب العربى الحديث . وكانت هذه الدراسة « الباب » الذى أشار إليه المستعرب الإنجليزى . واحتوت المنتخبات من الأدب العربى الحديث المطبوعة فى ليننغراد على مقطوعات للريحانى فى مختلف الفترات من حياته . ومن هذا الكتاب انتشرت ترجمات مطبوعة فى كل البقاع من أمريكا حتى أوكرانيا حيثما يوجد قراء بالعربية .

كنت سعيدا جدا عندما تسلمت من الريحانى عام ١٩٢٨ رسالة من وادى الفريكة فى لبنان ، ذلك الوادى الذى ارتبط إلى الأبد عند العرب باسم الريحانى . وفى هذه الرسالة نظم الريحانى كلماته بخطه الشخصى الذى يحمل طابعه وبالطريقة الماثلة فى الكتابة حسب التقاليد القديمة ، وفى هذه الرسالة يقول : « إنى أكتب إليكم من الوادى الذى له فى قلبكم شىء مما له فى قلبى . وقد يكون الصدى أعجب وأجمل فى بعض الأحايين من الصوت نفسه . أما هذا الصدى البعيد فان هو إلا الحب الأصيل الأكيد . والغريب فى من ينتقدون الكتب والكتاب من أبناء وطنى هذا أن أرقهم شعورا . وأعمقهم فى التفكير غورا ، لم يدرك ما ادركتموه من كنه الطبيعة وصورها الباطنية التى حاولت فى ما كتبت أن أنقل بعضها إلى قرائى . وقد جئتم أنتم فى ما كتبتم عنى وعن هذا الحب بما هو كنه حبى وصورته الباطنية أو بالحرى الروحية . بل أراكم تتغلغلون إلى القلب ، وفيه ، فتقرأون فى لوحته الشخصية السرية ما لا يستطيع قراءته حتى أقرب الناس إلى . مما يثبت اعتقادى ويوطد يقينى أن نسب الروح هو أقرب الأنساب وأصحها ... سلام أزكى من زنبق الوادى فى هذه الأيام وأرق من دوين الجبل وهذه زهرة منه

تحمل اليكم حبي وسلامي » . وكانت موضوعة فى الخطاب زهرة جافة ما زالت تذكرني حتى الآن بوادى الفريكة وفيلسوفه .

ومرت أربعة أعوام . واستطعت أخيراً ، بعد عمل استغرق عشرين عاما أن أنشر رسالة هجائية دقيقة لأبي العلاء هي « رسالة الملائكة » . وكان من أوائل الأشخاص الذين تذكرتهم هو أمين الريحاني الذى سبق له فى بعض كتبه باللغة الانجليزية أن عرف القـــراء الأوروبيين بالحكيم المتشائم الأعمى مؤلف « اللزوميات » و « رسالة الغفران » و « رسالة الملائكة » . ولم يحدث أن أثار نشرى « لرسالة الملائكة » مثل الصدى الذكى الذى أثاره لدى « ناسك وادى الفريكة » . فقد كتب إلى يقول : أنكم معشر المستشرقين لمن أعجب الناس لأنكم من أقربهم إلى تلك القوة الالهية التى « تحيي العظام وهى رميم » . وكأني بالمعرى أبي العلاء ، وقد علم بما أحييتم من رميم آثاره ، يقول متواضعا : « ما ظنناها والله تتجاوزنا سنا . وها هى تفوقنا بنحو ألف سنة . إنه لعجيب أمرها . فقد تخيلناها ملائكية ، لتعزيز اللغة العربية فى اخوان جبريل صديق الرسول ، عليهما السلام ، وقلنا : حسبها أن تنتشر هناك أى فى السماء . وما تخيلنا أن ستجيئها الحرارة من الشمال ، ولو بعد ألف سنة ، فتبعث فيها الحياة الأرضية ، فتنطق ثانية بلغة الأنس ، بلسان العرب ، وقد تخللته درر من لسان الروس ! حياك الله ، يا أخى الروسى الكريم ، وبياك . أن « رسالة الملائكة » تجثو أمامك وتقبل الأرض ، ثم تستأذنك فتقول : « قد كان لمنشىء نزعة فى نشر رسالته اللغوية الأدبية الفلسفية الالحادية بين الأنس والجن والملائكة فاختار لكل كتابا وأسلوبا . فأخص الانس بـ « رسالة الغفران » ثم كتب « رسالة الملائكة » ثم شرع يكتب « رسالة الشياطين » خصوصا للجن . وقد رأيته يرسم عنوانها ، والمرجح أنه كتبها وأتمها . وهى اليوم ، على ما أظن ، كما كنت أنا بالأمس . فهل لكم ياحبيب الله أن تطلبوها ، ستجدونها ، ان شاء الله ، فتحيونها كما أحييتموني . هل لكم أن تتموا نعمتكم على فتبحثون عن شقيقتى « الشيطانية » فتجمعوني بها بعد هذا الفراق الطويل ؟ ! إنى باسمى وباسم منشئ سيد « اللزوميات » وصاحب الرسالات الثلاثة أشكركم وأدعو لكم بطيب الإقامة فى هذه الفانية » . وان كاتب هذه الأسطر ، صديق المعرى بالفريكة ، يحيي صديق المعرى بـ « لننغراد » ويدعو له بالصحة والسعادة ،

وبدوام التوفيق فى البحث والتنقيب ، خدمة الآداب العربية والروسية ، وتمكينا لروابط الأخاء والسلام بين الشعوب .

وهكذا كان كل خطاب منه ، تارة جادا يحمل مسحة رومانتيكية خفيفة ، وتارة يحمل سخرية لطيفة تكسوها ظلال من الحزن . كان الخطاب دائما ينطوى على « نكتة » مصاغة بتلك البراعة الفنية العزيزة على العرب جميعا ، من تلميحات وتلاعب بالألفاظ والأشكال التى لا يمكن ترجمتها إلى لغة أخرى وإنما يمكن تذوقها فقط فى شكلها الأصلى . ولقد كتب إلى سنة ١٩٣٥ آسفا لأن المرض قد عقله هناك فى فلسطين فى مياهها المعدنية ، وأنه لهذا لم يتمكن فى ذلك الحين من الاستجابة لما يتطلبه أحد الاحتفالات التذكارية . وبعد ذلك أضاف قائلا : « وأنا أفكر فى الكتابة اليكم ولو سطرين فيهما وردتان من بستانى العقل والقلب ... وأنا لا أزال فى حالة غير صحية وغير مرضية . ومع ذلك فقد استحثثت الضعف باسم الحب فقام اليوم يلبينى ويقول : حيا الله الأستاذ كراتشكوفسكى ومتعه على الدوام بالصحة والعافية وجمل أحواله بطول العمر والاقبال » .

وقد كتب إلى الريحانى بعد أن استلم من لندن نسخة من طبعة « كتاب البديع » الذى أصدرته وهو أول كتاب فى فن الشعر العربى لابن المعتز الذى تولى الخلافة يوما واحدا : « وقد وصل الكتاب من لندن . ذلك الكتاب البديع بطبعه وشرحه وفهارسه ومقدمته الانكليزية « كتاب البديع » لابن المعتز . فحق لمؤلف الكتاب وان كان فى أعلى الفراديس ، أن يعتز بما أغدقتم عليه من عملكم وحبكم وغيرتكم . أدامكم الله للعلم مصباحا منيرا . وللعرب صديقا نصيرا » .

تملكنى الحزن عندما بدا لى واضحا من الرسائل مدى الضعف والوهن الذى أصاب يد الريحانى وأحسست بأن حمامات فلسطين المعدنية التى كانت تساعده خلال زمن طويل تعجز الآن عن أضعاف حركة المرض . وجاء عام ١٩٤٠ ، وفى الخريف ، تسلمت من أخيه بطاقة مطبوعة يجلل السواد زاويتها وفيها إعلام « العالم العربى فى الوطن والمهجر » بأن « فيلسوف الفريكة » قد انتقل إلى جوار ربه فى ١٣ أيلول (سبتمبر) . كان هذا بعد ٣٠ عاما من لقائنا فى بيروت . ولقد مات الريحانى فى الفريكة ، موطنه الذى أحبه شديد الحب والذى أرسل منه إلى لينينغراد أكثر من زهرة جافة .

كان الشعار الذى صدر به أول مجموعة من مؤلفاته هو «قل كلمتك وامش» . وقد استطاع أن يقول هذه الكلمة التى رنت فى آذان العالم العربى وفى أمريكا مدة أربعين عاما بنغمات لينة تارة وصارخة مشهرة تارة أخرى . وكان مكتوبا على خاتمه : « القوة فى الحق ، والحق لا يموت » . وكلمات الريحانى لن تموت لأن فيها كثيرا من الحق .

لقد عرف كل منا الآخر معرفة حقيقية صادقة مع أننا لم نلتق إلا مرة واحدة خلال ثلاثين عاما قضيناها فى جولات حول العالم .

٢ — أرستقراطى القاهرة ((الفلاح))

كنت فى محطة صغيرة قرب المدينة ، بانتظار القطار العائد إلى القاهرة . وكانت جولتى هذه عديمة الفائدة . فقد كنت أريد الاطلاع على مكتبة تيمور باشا التى روى لى عنها الكثير من العجائب ، عن طريق السماع حقا ، وقيل لى أن صاحبها يرى مخطوطاته النادرة عن رغبة صادقة إلى الناس الفاهمين . وكانت المكتبة موجودة فى منزل تيمور باشا الذى لا يبعد كثيراً عن المحطة . فاعتزمت زيارتها صباح أحد الأيام قبيل رحيلى من القاهرة .

وللأسف ، كان صاحبها غائبا فى سفرة إلى صعيد مصر وكان لن يعود من هناك إلا بعد أسبوع . واستضافنى البواب الوقور حارس المنزل وقدم لى قهوة حسب العادة الراسخة هناك ، وكان مستعدا أن يرينى كل غرف البيت لكننى لم أكن شغوفا إلا برؤية المكتبة . وكانت مقفولة . وجلسنا وتجاذبنا أطراف الحديث مع البواب وبالطبع عن موضوع لا تفادى منه هو السياسة . وفى النهاية تركت له « بطاقة » طالبا منه أن يعطيها للباشا عند عودته ثم توجهت عائدا إلى المحطة .

وهناك وجدت أن القطار قد ذهب منذ فترة قصيرة وعلى أن أنتظر طويلا . لم يكن على رصيف المحطة أحد غيرى سوى ماسح أحذية صغير هو واحد من الكثيرين ذوى الجلابيات الزرق لباسهم الوحيد . وتراهم فى كل مصر بل وأحيانا تراهم فى أماكن من غير المتوقع وجودهم فيها . ومن الأشياء العجيبة أنك تجدهم يعرفون كل شيء يتعلق بمنطقتهم التى يعيشون فيها . على أنى بعد أن انتهى ماسح الأحذية الصغير من تنظيف حذائى استأنفت معه الحديث فى انتظار القطار الذى

قد يأتى بزبون آخر . وسألنى الصبى بطريقة عملية عن الغرض من رحلتى وعندما سمع اسم « تيمور باشا » أخذته النشوة فقال :

ــ أعرف ... أعرف ... إنه يسكن هنا طول العام ، ويقرأ الكتب دئماً ، ولديه منها ما لا يوجد فى القاهرة نفسها . وأنه ليأتى إليه حتى شيوخ الأزهر ، وأعرف أولاده : إنهم فلاحون حقيقيون !

وسألته حائراً :

ــ كيف ذلك ؟

ــ آه ، مضبوط . يأتون إلى هنا فى الصيف فقط . وهم الآن فى المدينة يتعلمون . إنهم يجرون بسرعة إلى جدى ــ وهو حارس على فرن القرية ــ أتعرف الفرن ؟ حيث يخبز فيه الخبز الفلاحون من القرية كلها . وفى الوقت الذى لا يكون هناك احد ، يطلب هؤلاء الأولاد من جدى أن يقص عليهم حكاياته . وعندما تجتمع النساء ويحضرن العجين يغنين الأغانى والأولاد يحبون أن يسمعوا هذه الأغانى . وهم يجلسون فى هدوء . وكل النساء تعودن أن يعتبرنهم كأطفالهن ويستضفنهم بالخبز الطازج الساخن . وفى المساء عندما يجتمع صبياننا للعب بالكرة فإن أولاد تيمور باشا يجرون معهم ويهرولون ويصرخون . إنهم فلاحون تماماً ! ــ هكذا أتم كلامه باعتزاز وبلهجة لا تقبل المعارضة .

وسألنى الصبى بعد أن أشبع حب استطلاعه عن الغرض من رحلتى : لماذا لا آتى مرة أخرى عندما يرجع الباشا ؟

ــ حان الوقت للعودة إلى وطنى روسيا . فأنا روسى . ونظر الصبى إلى بجد مدة دقيقة ثم قهقه :

ــ أى ! لا تخدعنى ! إنى أعرف كل الافرنج . إن كثيراً منهم يأتون ليروا شجرة مريم وبيت النعام . إننى أميز بينهم . صحيح أنك من سوريا لا من مصر . إننى عرفت ذلك بسرعة من لهجتك ، إن قبعتك لا تخدعنى ... كيف أنت روسى ؟

ووصل القطار . وكان ينبغى الإسراع إلى العربة . ولكن الصبى قفز إلى النافذة صارخاً : « مع السلامة ! سلم على دمشق ! » وغمزلى بعينيه بطريقة ماكرة كما لو كان يريد أن يقول بالضبط مرة أخرى : « لا تستطيع أن تخدعنى » .

لا أخفى أن هذا الإطراء البرىء غير المتوقع قد أفرحنى لأنه أوضح لى أننى بعد سنتين فى الشرق قد تعلمت رغم كل شىء « أن أبيع » لا « أن أشترى » فقط ، وهو ما كان صعباً على فى البداية إلى هذا الحد البعيد .

تسلمت بعد رجوعى إلى روسيا بوقت قليل رسالة صغيرة من القاهرة من تيمور باشا يبدى لى فيها تأسفه لعدم التقائى به ويطلب منى زيارة مكتبته عندما تسنح الفرصة. لكن هذه الفرصة لم تسنح ولم يخطر لى آنذاك أنى ، بعد خمسة عشر عاماً ، سأتعرف عن قرب لا بتيمور باشا فحسب بل وبأحد أولاده « الفلاحين » الذين حدثنى عن صورتهم بروعة ذلك الصبى ماسح الأحذية .

وقامت الحرب العالمية الأولى وتلاها ما تلاها من أحداث . وكان ذلك سبباً فى قطع ما بينى وبين العالم العربى لمدة طويلة . ورحت أبحث بظمأ عن كل أخبار الأدب ، واكتشفت رويداً رويداً أنه قد حدثت فيه حركة كبيرة فى بحر عشرة أعوام . ولم تكن هذه الحركة مقتصرة على ظهور أسماء جديدة لمع من بينها اسم غير معروف لأستاذ كفيف فى القاهرة متخرج من جامعة السربون. وإنما شعرت فى هذه الحركة أيضاً بميلاد ألوان جديدة فى الأدب لم تكن موجودة فى فترة إقامتى فى الشرق . وكان الحديث يدور حول أخبار المسرح الشعبى وعن أحد شخصياته ومؤسسيه محمد تيمور الذى مات فى شبابه عام ١٩٢١ . فحملنى توافق الأسماء ، عفو الخاطر ، على تذكر الابن الصغير « الفلاح » للباشا . وعلى كل حال فقد فقد كانت كل هذه الأخبار تلمع بشكل غير واضح تماماً .

على أنه فى عام ١٩٢٤ وفى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ظهرت مقالة لتيمور باشا عن الشيخ الطنطاوى الذى كان يوما ما أستاذ اللغة العربية فى جامعتنا. وكنت فى ذلك الوقت أقوم أيضاً بجمع مادة عن تاريخ حياته ، فأردت أن أسعد الباشا فأرسلت له — مع بعض الإضافات لمقالته — صورة مأخوذة عن لوحة

للشيخ الطنطاوى وصورة لقبره الموجود فى مقبرة المسلمين فى مدافن فولكوفو . وإلى جانب ذلك حدثته عن اهتمامى بالأدب الحديث وأشرت — بتحفظ — إلى محمد تيمور الذى ينعت بأنه مؤسس المسرح الجديد ولكننا لا نعرف هنا حتى الآن شيئاً عن مؤلفاته وتصنيفاته .

وجاء الجواب سريعاً . لقد سعد الباشا برسالتى التى تضمنت مادة علمية عن حياة الشيخ الطنطاوى ونشر مقالة على أساس هذه المادة ،كما نشر صورة خطابى نفسه . وعلى هذا ارتبطت مراسلاتنا التى لم يقطعها إلا موت الباشا فى ٢٦ نيسان (أبريل) ١٩٣٠ . كانت تجمع بيننا اهتمامات وموضوعات مختلفة وكان للشيخ الطنطاوى الفضل فى إعطائنا الدفعة الأولى نحوها . وفى عام ١٩٢٦ أثيرت مناقشة لمسائل مختلفة حول « رسالة الملائكة » لأعمى المعرة الذى كان يهتم به أيضاً اهتماماً شديداً . وكان الباشا يدهشنى بدقته واهتمامه بالتفصيلات ، الأمر الذى كان يبدو واضحاً من خلال كل خطاب منه . وكان يجد من الوقت ما يسمح له بالكتابة إلى عن بعض المقارنات والمصادر لكل نقطة من النقط المتعلقة بمخطوطات مجموعته التى لا تقدر بثمن والتى كان يعرفها حق المعرفة . وكان يكتب إلى دائماً بخط واضح متناسق على أوراق رباعية متساوية الحجم . وقد يحسب المرء أنه كان فى تلك اللحظة مشغولا بهــذا الموضوع فحسب ، وهو الذى لديه الكثير من المراسلين أمثالى .

وقد أخبرنى بجلد واتزان فى خطابه الأول أن محمد تيمور المرحوم ابن له وأما الأخبار عن مؤلفاته فسيتولى أخوه محمود تيمور تزويدى بها . وكان واضحاً أن سؤالى قد مس منه جرحا مؤلماً لم يندمل .

وبالفعل ، تسلمت بعد فترة من الزمن لا خطاباً فحسب ، بل ومجموعة مؤلفات الكاتب المسرحى الشاب محمود تيمور فى ثلاثة مجلدات نشرت بعد موته بفضل مجهود أخيه الأصغر . ويبدو أن هذا الأخ الأصغر هو الثانى من « الفلاحين » الذين حدثنى عنهم ذلك الصبى على محطة القطار . ولقد عرفتنى هذه المجلدات لتوها بحياة الكاتب المسرحى الذى مات قبل أوانه . وعرفتنى أيضاً بكل نتاجه الإبداعى . فأحسست بأن أمام عينى مرحلة أدبية جديدة فى طريقها إلى النضج .

وأذهلتنى مؤلفاته الدرامية التى هى فى حقيقة الأمر التجربة الأولى للمسرح الشعبى . وهى ممتعة بلغتها العامية التى اتخذت طريقها عبر اللغة الفصحى ، تلك اللغة العامية التى لم تظهر على خشبة المسرح حتى ذلك الوقت إلا لماماً . وليس هذا فحسب بل أدهشتنى أيضاً محاولاته السابقة فى خلق الأقصوصة العربية الاجتماعية أو السيكولوجية التى تصور واقع الشعب وحياته ، وهذا ما يمكن القول بأنها لم توجد فى الأدب العربى فى مصر قبل ذلك الوقت . على أن شخصية الأخ الثانى لمحمد وهو محمود تيمور الذى أرسل لى تلك الهدية الكريمة لم تكن بالطبع واضحة لى فى ذلك الوقت .

ولذلك تملكتنى الدهشة عندما تسلمت فى حزيران (يونيو) ١٩٢٥ ، أى بعد أقل من سنة ، مجلدين صغيرين عليهما توقيع محمود تيمور يتضمنان مجموعة قصصه . وأحسست منها بأن اشتغال مؤلفها بالأدب ليس مجرد هواية أو تسلية وإنما هو عمل جدى من الدأب المتواصل الأصيل . وعبرت المقدمتان عميقتان التفكير عن متطلبات كبيرة وضعها الكاتب أمام نفسه ، كما عبرتا عن مدرسة أدبية عميقة يعتبرها الكاتب ضرورية له . ولمست فى الحال من واقع القصص نفسها حياة المجتمع المصرى سواء فى ذلك مجتمع المدينة أم مجتمع القرية الذى عرفه الكاتب واستشعره جيداً . أما فيما يتعلق بالطريقة الأدبية للكاتب فقد لاحظت بكثير من الارتياح لا تأثير موباسان فحسب وإنما تأثير تشيخوف أيضاً . وكما حدث قبل عام عندما التهمت بنهم ثلاثة مجلدات كبيرة لمحمد تيمور ، فانى الآن ألهث لأننى قرأت دون توقف كتابين صغيرين لمحمود تيمور . وما تمالكت نفسى عن قطع السير الطبيعى لمحاضرتى التالية فأعلنت للطلاب أنه قد تم فى الأدب العربى إبداع قصص أصيلة ثابتة ، وأن محمود تيمور إذا لم يخطئنى التقدير سيلعب دوراً كبيراً فى تطويرها . وبسرعة ضممنا إلى كتاب المنتخبات من الأدب العربى ، الذى كنا نعده ، إحدى قصص محمود تيمور . ومنذ نهاية العقد الثانى لهذا القرن ابتدأ طلابنا فى التعرف بالأدب العربى المعاصر استنادا إلى دراسة نتاج محمود تيمور . وما كنت أخفى انطباعاتى عنه . وفى خطابى الطويل الذى بعثت به اليه أبديت بكل الطرق مؤازرتى لاتجاهه على الطريق التى اختارها . وربما كان لخطابى هذا تأثير

عليه ، فلقد رأيت صورة الخطاب منشورة كلها تقريبا فى ملحق المجلد الثالث من مجموعة قصصه عندما تسلمته منه بعد ذلك بعام تقريبا .

ومنذ ذلك الوقت كنت أتسلم منه كل عام مرة أو مرتين مجموعة قصصه الجديدة . وحتى الحرب العالمية الثانية كان يقف على الرفوف أربعة عشر كتابا دون اعتبار لما لها من طبعات ثانية . ورأيت بسرور كيف تتعزز موهبته وكيف أنه فى عمله الصارم يعرض بوضوح تام طريقته الخاصة . وقد أدى نشاطه بالتدريج إلى خلق مدرسة فى الحياة الأدبية لا فى مصر فحسب بل وفى غيرها من البلدان العربية ، وبدأ صوته يسمع أكثر فأكثر فى سوريا وفى العراق ، ولقبوه عن جدارة برائد القصة المعاصرة . واقتحمت مؤلفاته أوربا وأصبحت تصدر من حين لآخر مترجمة إلى اللغات الأوروبية . فشعرت بأنى لم أخطىء فى تقديرى له من الوهلة الأولى .

على أن علاقاتنا لم تدعمها مؤلفاته فحسب وإنما مراسلاتنا أيضا . فلقد كان يرسل إلىّ بسخاء ما هو جديد فى الأدب الحديث . وكان سعيدا بتعليقاتى على جهود زملائه وعلى تطورهم السريع فى مختلف المجالات . وتعودنا تدريجيا إزعاجه بشتى الأسئلة عندما كان من اللازم استيضاح بعض النقط الصعبة التى كانت تواجهنا فى إعداد معجم للغة الفصحى الحديثة ، أو عندما كنا نحتاج إلى معرفة ما إذا كان هناك ترجمات باللغة العربية لمؤلفات غوركى . وكان محمود تيمور ، مثل أبيه فى زمنه ، يجيب على كل شىء باهتمام وجد دون تشك من كثرة العمل . وكان الفرق الوحيد بينه وبين أبيه هو اختلاف العصر والزمن . فتبعا لعصره الحديث كان فى الغالب يرسل خطاباته مكتوبة لا بخط اليد بل بالآلة الكاتبة .

ومن خلال السطور كنت أشعر أحيانا بأن عواطفنا متبادلة ، مع أن كلا منا لم ير الآخر مطلقا . ووجدت بيننا تلك القرابة الروحية التى سبق أن كتب عنها الريحانى ، وأن كلامنا ليس غريبا عن الآخر . ولقد شعرت بهذا التأثير الوجدانى بصفة خاصة فى عام ١٩٣٥ عندما وقع فى يدى عدد من إحدى المجلات القاهرية رأيت فيه فجأة المقالة التى كتبها عنى محمود تيمور . وأردت أن أقتبس منها كما سبق.

أن نقلت ختام محاورتى مع ماسح الأحذية . لا بغية تعظيم نفسى بل كما يقول الدراويش « للتحدث بالنعمة » ، للتحدث عن التوفيق الذى يلقاه الإنسان فى تقويم الناس له حتى فى تلك البلاد البعيدة ، لدى شعب آخر حيث يبدو أن هناك أناساً آخرين مختلفين .

وقد كتب تيمور : « فى عصر يوم من الأيام من نحو عشرة أعوام ذهبت لزيارة المرحوم والدى — كما كنت أفعل دائما بمنزله الخاص بالزمالك حيث كان يسكن وحيدا بين كتبه معتزلا العالم . دخلت عليه فى حجرة عمله فوجدته أمام مكتبه بين أكوام من الكتب والدفاتر — شأنه دائما — يطالع ويقيد . فلما أحس بوجودى رفع رأسه وأزاح نظارته (الخاصه بالقراءة) ودعانى إلى الجلوس ووقع نظرى على صورة لقبر إسلامى ضمن الأوراق العديدة التى يزدحم بها مكتبه . فسألته ، فابتسم وقال : « هذه صورة قبر الشيخ طنطاوى المدفون فى روسيا » . وعجبت لأمر هذا الطنطاوى الذى اختار بلاد الروس مدفناً له . فاستوضحته الأمر . فأخذ يحدثنى عن هذا العالم المصرى الذى نزح إلى روسيا فى العصر الماضى ليدرس اللغة العربية وآدابها فى جامعة بطرسبورغ — كما كان اسمها فى ذلك العهد — وكيف أقام فيها حتى وافاه الأجل فدفن بها . ثم كيف قام اليوم من بين الأساتذة المستشرقين من يعنى بهذا العالم المصرى فيحقق أمره ويؤلف رسالة عنه تخليداً لذكراه .

واستهوانى هذا الحديث ، وجعلت أنظر إلى الصورة وأنا معجب بخور بهذا الأستاذ المستشرق الذى انبرى لعالم من علمائنا المنسيين ينشر حياته على الملأ ويشيد بذكراه . فينشر معه صفحة من صفحات تاريخنا المغمور ويشيد بذكرى بلادنا بين أصدقائنا البعيدين ، ورفعت رأسى ونظرت إلى والدى مستفهما . فقرأ فى عينى ما يجول بخاطرى وقال :

— إن صاحب هذا البحث هو الأستاذ كراتشكوفسكى الروسى .

فى هذه اللحظة أحببت الأستاذ كراتشكوفسكى وشعرت فى صميم قلبى بأنه ليس غريبا عنى . وشاهدت صورته فيما بعد فراعنى منها مسحة الوقار المنطبعة على

محياه ، وذلك الإشعاع العجيب الذى يشع من عينه — إشعاع الطيبة والإخلاص. واتصلت بالأستاذ عن طريق المراسلة ، فعرفت فيه رجلا ذا خلق متين وعزيمة صادقة وأدب جم ، فقد وهب حياته منذ نحو ثلاثين عاماً لخدمة اللغة العربية وآدابها فلم يهن ولم يتراجع بل ثابر وثابر حتى امتلك ناصيتها وتبحر فيها ، فأصبح علماً راسخاً من أعلامها ، وقوة من قواها العتيدة .

وأنى لا أنسى أول خطاب جاءنى من الأستاذ ، فقد وقفت أمامه حائرا مبهوماً: خط عربى جميل ونظيف يماثل فى وضوحه وتنسيقه خطوط الآلة الكاتبة . تسوده روح لطيفة من سلامة الذوق فى التعبير والبساطة والهدوء ، كل ذلك فى سلامة عجيبة وصفاء غريب . وغمرنى شعور لطيف فيه شيء من الزهو لوجود مثل هذا الصديق الكبير لنا — معشر العرب — فى بلاد نائية قد وقف حياته على خدمة آدابنا واعلاء كلمتنا .

وازداد اتصالى بالأستاذ فتوالت الرسائل بينى وبينه . وأهدى إلى كثير من مؤلفاته بالروسية ؟ ومضت الأعوام ومعرفتى بالأستاذ تزداد اتساعاً وكلما عرفت عنه شيئاً جديدا قويت محبتى له وعظم تقديرى اياه ...

أكتب هذه الكلمة الصغيرة بمناسبة الاحتفال بتكريم الأستاذ فى روسيا . أحييه فيها أصدق تحية ، معبرا له عما يكنه له العالم العربى عامة والأمة المصرية خاصة من عواطف الولاء والشكر له . فان رجلا قصر حياته على نشر ثقافتنا العربية فى العالم الغربى . وأوسع لنا الطريق لنتبوأ مكانتنا بين آداب الأمم العالمية لجدير بأن يحتل فى قلوبنا أكبر مكانة » .

وإنى اعتقد أنه لا يمكن توطيد « روابط الأخاء والسلام بين الشعوب » التى سبق أن كتب عنها « فيلسوف وادى الفريكة » الريحانى إلا شرط وجود هذه الأمانى الطيبة والرغبة الخيرة التى عبرت عنها هذه السطور .

وقامت الحرب العالمية الثانية فعزلتنى عن العرب والأدب العربى ، تماماً مثل ما حدث فى الحرب العالمية الأولى منذ ثلاثين عاماً . على أننى عرفت عن طريق الصدفة من بعض الجرائد والمطبوعات المتسربة أن تيمور كسابق عهده يعمل دون كلل وأنه كأخيه أخذ يحبس قواه بنجاح فى مجال الدراما . وأفادتنى المعلومات التى

وصلتني بأنه صار كاتباً مشهوراً ومحبوباً فى أدبه العربى المعاصر . وحدثنى عن ذلك أيضاً بطريقة أوضح أحد الكتب التى وقعت فى يدى بعد الحرب ، وهو مؤلف كبير مطبوع سنة ١٩٤٤ ، وفيه يتحدث ناقد عربى شاب عن مؤلفات تيمور ، وعندما كنت أقرأه بسرعة لمجرد التعرف على ما فيه وجدت فجأة أحد الأماكن التى لم أستطع إلا التوقف عندها . وفى هذا المكان يقول المؤلف : « أنه لا يخالجنا شك فى أن الطبقة التى تميل إلى حب تيمور أكثر من غيرها هى طبقة الفلاحين ... ومما يساعده على إيجاد هذه الصلة القربية بتلك الطبقة هى طفولته وذكرياته عن الريف التى قضاها هناك فى تلك الأماكن حيث كان يجتمع الفلاحون فيسمع أحاديثهم و يسعد بأغانيهم ويلعب معهم بالكرة فى الساحة . وأن تيمور الارستقراطى يختزن حباً لايقاوم نحو هذه الطبقة المظلومة من الشعب المصرى . إنها الطبقة الوحيدة الخالصة فى مصريتها من حيث أساسها وأصلها ... » .

ولقد فكرت تلقائياً فى كلمات هذا الناقد الواسع الثقافة وتحليله المنهجى . لقد كان على صواب حقاً ذلك الصبى ماسح الأحذية عندما أكد لى منذ ٣٥ عاماً وفى محطة قريبة من القاهرة أن أبناء تيمور باشا « فلاحون تماماً » .

٣ ــ طالب المدرسة الدينية فى بولتافا

كنت خلال رحلاتى التى استغرقت عامين فى سوريا أحب التردد كثيراً على مدارس الجمعية الفلسطينية الروسية . ومن لم يعش مدة طويلة خارج وطنه روسيا يصعب عليه ، فى الغالب ، أن يتصور نفسه مدى الآلام التى تسببها العزلة عن اللغة الروسية . وكان الضيق الذى ينتابنى أحياناً يأخذ أشكالا مؤلمة تارة وهزلية تارة أخرى وأذكر أنى عندما كنت شتاء فى بيروت وددت بلهفة لو أن الحوذى المار عبر الشارع شتم خيله باللغة الروسية . ولكنه للأسف ما كان قادراً على أن يفعل ذلك ، ومر بقربى مسرعاً إلى مكان ما ، صائحاً بخيله بتلك الكلمة العربية البعيدة عن الشتم « يللا » .

وحين وصلت إحـــدى القرى فى لبنان سألت قبل كل شىء هل هناك « مدرسة موسكوبية » . وتوجهت إليها بسرعة . وكنت أعرف جيداً أننى لن ألتقى بمعلمين روس . فقد كانوا لا يعيشون عادة إلا فى المدن الكبرى كبيروت أو طرابلس والناصرة . كذلك كان من النادر جداً رؤية معلمين عرباً سبق لهم

أن كانوا فى روسيا ، لـكننى كنت على علم بأننى لو دخلت صدفة إلى غرفة التدريس فإن الأطفال سيقفون ويتلفظون بما يشبه الغناء كلمة « زدرا ستويتى » * وكنت أعلم أنه بمجرد السماع عن أصلى فسيحيط بى — على وجل للوهلة الأولى ، المعلمون والمعلمات ذوو العيون السود ، وأن أسئلتهم لن تنتهى بخاصة عندما يتضح لهم أننى لا أمثل أى سلطة رسمية . وأحياناً يتحدث أكثرهم شجاعة بلغة روسية ترن فى الآذان بما بها من أخطاء لطيفة فى النبرة وذلك بالطبع يرجع إلى تعودهم منذ الطفولة على نطق صوتيات أخرى . إلا أننى كثيراً ما قابلت بعض المعلمين الذين يعرفون اللغة الروسية بطلاقة ، والعجيب فى الأمر كيف استطاعوا أن يسيطروا على اللغة بهذه الدرجة مع أنهم لم يفارقوا وطنهم . ومع أنهم لم يكونوا جميعا يتكلمون الروسية بسهولة إلا أنهم كانوا جميعاً يعرفون جيداً مجلة « نيفا » وكانوا مشتركين فيها . ولدى كل منهم فى بيته مؤلفات تورغينيف وتشيخوف وحتى مجموعات « زنانيه » أى (« المعرفة ») ذات اللون الأخضر والتى كانت قد بدأت تظهر فى ذلك الوقت ، بل كان لديهم أحيانا من تلك المطبوعات المعتبرة فى روسيا نفسها من المحرمات .

ومع أن هذه المدارس الصغيرة كانت فقيرة الأثاث إلا أن لوجودها كان مغزى عظيما . فلقد وصل إلى هناك من روسيا عن طريق مدارس المعلمين للجمعية الفلسطينية الوصايا العظيمة والأفكار العالية لبيروغوف ** وأوشينسكى *** . وكثيرا ما كانت المبادىء التربوية للمدارس الروسية فى فلسطين وسوريا أعلى مما لدى المؤسسات التبشيرية المختلفة لغرب أوروبا وأمريكا على الرغم من جودة تجهيز هذه المؤسسات . ومع أن معرفة اللغة الروسية كانت نادرا ما تجد الممارسة فى مستقبل نشاط الخريجين إلا أنه كان يبقى لديهم من الثقافة والأدب الروسى أثر لا يمحى مدى الحياة . فلقد كشفت قوة الـكتاب عن نفسها هنا بكل ما لها من قدرة وتأثير . وعلى ذلك ظهر كثير من الـكتاب العرب المعاصرين من الرعيل الأول لا كمترجمين من الروسـية فحسب بل ومؤلفين مبدعين بالعربية ، قالوا

---

* هى كلمة التحية الروسية الشائعة ومعناها « مرحبا » . المعرب .

** جراح ومرب روسى عظيم (١٨١٠ — ١٨٨١)

*** مرب روسى كبير (١٨٢٤ — ١٨٧٠)

كلماتهم لكل العالم العربى ، وكان هؤلاء الكتاب من خريجى مدارس الجمعية الفلسطينية . ولقد جذبنى على وجه الخصوص مجتمع أولئك المعلمين المتواضعين . وكثير منهم كانوا منذ ذلك الوقت كتابا وصحفيين . أما بقية الأعمال الاجتماعية فكان السبيل إليها مقفولا فى وجوههم فى تركيا القديمة . ولقد رأيت قوة المستقبل فى هؤلاء المثقفين الحقيقيين الذين خرجوا من الشعب وعاشوا مع الشعب . وقد برهن تاريخ البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى على صدق ما رأيته .

كان هؤلاء الناس يعرفوننى لا بإسمى العربى المستعار المعروف « الرحالة الروسى » فحسب بل كانوا يعرفوننى أيضا بلقب « غنطوس الروسى » وهو اللقب الذى لبسنى بعد أن تخيلته لنفسى على الطراز اللبنانى . وكان هؤلاء المعلمون أكثر الجميع إصرارا على بقائى فى سوريا شاعرين بظمأى الشديد إلى اللغة العربية والأدب العربى وهو أمر كان من النادر أن يروه لدى المسافرين الأجانب . وبدأت أحيانا أنا أيضاً أفكر بجد فى البقاء بسوريا . ولم أدر لماذا تملكنى هذا الشعور بصفة خاصة عندما كنت فى بلدة لبنانية صغيرة «بسكنتا» حيث كانت هناك أيضاً مدرسة روسية للجمعية الفلسطينية .

كانت هذه البلدة تشبه بالأحرى قرية كبيرة . وكانت تقع عاليا جدا على سفوح لبنان فى مكان ليس ببعيد أبداً عن قمة جبل صنين الدائمة الثلوج . وكنت قد وصلت إلى هذه البلدة مشيا على الأقدام من الشوير حيث عشت بها آنذاك . وبقيت هنا (ببسكنتا) عدة أيام . إلى هـذا الحد أعجبتنى البلدة بطابعها اللبنانى الصرف . وتشير بعض المنازل الصغيرة بأسقفها البهيجة من القرميد إلى أنه كان بالبلدة كثير من « الأمريكيين » ، وهـو ما يطلقه سكان لبنان على إخوانهم الموجودين فى المهجر . ولقد بدت لنا السفوح الثلجية قريبة تماما وهناك فى جانب آخر كانت « المصاطب » تميل على البحر بأسوارها الحجرية . تلك اصاطب التى يتفنن فى شغل تربتها دائماً أهل لبنان .

وكنت جالساً فى المساء على سقف أحد تلك المنازل الصغيرة المتواضعة عند معلم من المواطنين . وفى أحاديثنا اللانهائية المتأنية ، مرة عن روسيا التى لم يزرها أبداً ومرة أخرى عن مستقبل البلاد العربية بعد انقلاب قام به أعضاء حزب

تركيا الفتاة ، تذكر هذا المعلم أحد خريجى مدرسة الجمعية الفلسطينية الموجودة بالبلدة والذى أنهى بامتياز مدرسة المعلمين فى الناصرة من مدة قصيرة وأنه توجه الآن ليكمل تعليمه فى روسيا . ولم أستطع أن أفهم من المعلم اسم المدينة التى رحل إليها هذا الخريج فى روسيا لأن المعلم فى تلفظه لإسم المدينة كان أقرب إلى كلمة « بلىكوفو » فرأيت أن الأمر قد إلتبس عليه ليس إلا . وصارت المدينة الصغيرة هادئة فى ذلك الوقت . وأضاء القمر كل ما حولنا ملقيا عليه حجاب الأسرار المعروف عن الشرق خاصة . وساد الصمت بيننا . وفى ذلك الوقت لم أدر لماذا شعرت فجأة بوضوح كامل بأننى لا أستطيع العيش بدون روسيا وأننى لن أبقى فى سوريا .

ومرت بعد تلك الأمسية أعوام عديدة وأحداث أكبر عدداً وأدت الحرب العالمية الأولى إلى انهاء حياة مدارس الجمعية الفلسطينية . وانقطعت علاقات « غنطوس الروسى » مع أصدقائه السوريين . لكننا ما زلنا نتذكر أحياناً هذه المدارس . وقد حدث أنه كان من بين أقرب زملائى فى التدريس بمعهد اللغات الشرقية اثنان من المعلمين السابقين بالجمعية الفلسطينية . وكان أحدهما طالباً قديماً لى فى الجامعة واشتغل معلماً لمدة عامين فى الناصرة . ثم سافر من هناك إلى روسيا بسبب الحرب . وكانت انطباعاته ما زالت حية . وكثيراً ما تذكرنا فلسطين ومدارسها والمعلمين حين كنا نؤلف كتاباً للقراءة باللهجة السورية .

أما مصير مساعدتى الثانية فقد كان جد معقد . فهى عربية من الناصرة أنهت مدرسة المعلمين فى بيت جالة قرب بيت لحم . وكنت قد قابلتها فى الناصرة ذاتها . وكانت آنذاك معلمة ناشئة إلى جانب عملها فى بعض المجلات العربية . وانتهزت فرصة العطلة الصيفية عام ١٩١٤ فسافرت لزيارة روسيا . ثم نشبت الحرب وحالت دون عودتها فبقيت عندنا فى روسيا مدى الحياة . وصارت تعلم فى ذلك المعهد منذ العقد الثانى من هذا القرن . وفى الغربة عن الوطن كانت تقوم باهتمام بجمع كل الأخبار الأدبية التى بدأت تتسرب من البلاد العربية آنذاك . وظهرت أسماء جديدة كثيرة فى الأدب العربى لم نكن قد سمعنا عنها قبل

الحرب . وصارت لدينا تدريجياً فكرة عن تأليف كتاب القراءة للتلاميذ عن الأدب العربي المعاصر مع مقدمة صغيرة له عن الكتاب .

وكان من الصعب الحصول على معلومات عن هؤلاء الكتاب . ومع أن مؤلفاتهم نفسها موجودة في مختلف الجرائد والمجلات إلا أن مجرد تواريخ حياتهم لم يستطع دائماً مراسلونا الذين توجهنا إليهم بالسؤال أن يخبرونا عنها ، وبينهم كتاب أيضاً . ولقد أحزننا هذا بصفة خاصة عندما كان الأمر متعلقاً بأحد النقاد الناشئين الذين شعرنا — على الفور — بأن لديه جرأة وقوة كبيرة . وخشيت أن أستسلم لانطباعاتي الأولى عنه إلا أنني شعرت بأن أفكاره تتضمن صدى أفكار النقاد الروس التي لم تكن معروفة إلا قليلا في الأدب العربي في ذلك الوقت . واشتدت انطباعاتي هذه عن هذا الناقد العربي الشاب عندما صدرت ، في ١٩٢٣، مجموعة مقالاته تحت عنوان ذي مغزى كبير هو « الغربال » فإن مؤلفه لم يخش أن يغربل به المكانة المعترف بهم لدى الجميع . وفي « الغربال » أعيد طبع مقدمة مسرحية « الآباء والبنون » غير المعروفة لنا والتي كانت ترن في عنوانها من جديد نغمة توافق مع الأدب الروسي* .

والمؤلف يسمى ميخائيل نعيمة ويشير اسمه إلى أنه مواطن من سوريا وعاش على ما سمع — في أمريكا . ولم نستطع أن نعرف أكثر من هذا برغم كل استفساراتنا من مصر وسوريا . واضطررنا لضم مقالته إلى كتاب القراءة الذي ظهر ١٩٢٨ بدون الإشارة إلى تاريخ ولادة الكاتب ، خلافا لأغلب الفصول الأخرى للكتاب. وبعد ذلك بعامين صدر كتاب إنجليزي مماثل لكتابنا عن قادة الأدب العربي المعاصر . ولقد نفد صبري عندما رأيت أن ما في هذا الكتاب عن نعيمة ليست إلا المعلومات الناقصة التي يحويها كتابنا . وكتبت إلى نيويورك إلى إدارة تحرير إحدى الجرائد العربية طالبا منها إخباري بعنوان ميخائيل نعيمة إذا كان معروفا .

---

* يشير المؤلف بذلك إلى رواية تورغينيف التي اسميت بهذا الاسم أيضاً « الآباء والأبناء » .

وكانت دهشتى الكبرى عندما وصلنى بسرعة جداً خطاب مكتوب باللغة الروسية الخالصة . وكان مرسل يعتذر عن كونه « قديم العقيدة » ، وأنه يكتب حسب قواعد الكتابة القديمة التى كانت موجودة فى روسيا عندما غادرها عام ١٩١١ . وكان مرسل الخطاب هو ميخائيل نعيمة الذى سبق له أن كان طالباً فى مدرسة بولتافا الدينية ما بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١١. وفى الحال انكشف لى ذلك الخريج من مدرسة الجمعية الفلسطينية الذى حدثنى عنه المعلم العجوز على سقف منزله الصغير فى بسكنتا. وفى خطاب نعيمة التالى كان تاريخ حياته مكتوبا بناء على طلبى، وعرفت منه أن نعيمة يعيش فى أمريكا منذ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١١ . وأوضح لى فيما أوضح دور الأدب الروسى فى مؤلفاته وهو ما كنت قد شعرت به من قبل . وذكر لى ، وكأنه يجيب على أفكارى :

« إن الموضوع الذى كان محبباً لى منذ أن كنت فى الناصرة هو الأدب... وفى المدرسة الدينية غرقت فى الأدب الروسى . وانفتح أمامى تماماً عالم جديد مملوء بالعجائب. ولقد قرأت بنهم ؛ ولم أترك كاتباً روسيا أيا كان إلاوقرأته ...وعندما غادرت روسيا صدمت بركود الأدب فى كل العالم المتكلم بالعربية . وأدى هذا إلى إنقباض نفسى وكان مؤلماً إلى أقصى الحدود بخاصة للانسان الذى تربى على الفن الرفيع لبوشكين وليرمونتوف وتورغينيف وعلى « الضحكات عبر الدموع » لغوغول وعلى واقعية تولستوى الجذابة وعلى الأفكار الأدبية لبيلينسكى*. ومن هنا يمكنكم أن تفهموا بسهولة السبب فى أن أول خبراتى الأدبية باللغة العربية كانت أساسا ذات طابع نقدى » .

وفى عام ١٩٣٢ عاد نعيمة إلى وطنه فى بسكنتا حيث كنت منذ ٣٥ عاما . واتسع نشاطه الأدبى ونمت شهرته ، إلا أن نظرته الصارمة إلى رسالة الأديب كانت أحيانا على غير هوى بعض مواطنيه . على أن كلا منا كان يتتبع الآخر . وكان موقفه من الأدب الروسى يفيض بحب لم يوجد، فى الغالب، لدى أى أديب عربى آخر . وكان هذا الموقف يحمل تقاربا مخلصا فى تقدير كل منا الآخر. ونحن

---

* من أعظم النقاد الروس وديمقراطى ثورى فى القرن التاسع عشر .

لم تتحدث عن هذا ، إلا أننى رأيت فى عام ١٩٣٥ إحدى مقالاته التى نشرت فى مجلة بيروتية تتعلق بذلك الموضوع الذى كتب عنه محمود تيمور مقالته. فليدو صوت اللبنانى كما دوى صوت المصرى .

« غنطوس الروسى أغناتى يوليفتش كراتشكوفسكى اتصلت به بالمراسلة منذ خمسة أعوام . وتلطف فأهدى إلى طائفة من مؤلفاته الروسية فى نواحى مختلفة من نواحى الآداب العربية قديمها وحديثها . ولعله فى طليعة المستشرقين الذين أعاروا آدابنا الحديثة الاهتمام الذى تستحقه » .

« أما رسائله فكانت تطالعنى من خلال سطورها روح نيرة صافية ، سليمة ومسالمة ، روح جمعت بين دعة المعرفة ورفعة البساطة ، روح تفيض عطفاً على الناس وإيماناً بمستقبل الإنسانية ، روح تقابل الخيبة ببسمة الأمل ، والألم بصلابة الصبر » .

« وأما مؤلفاته فكانت تحدثنى عن طول باعه ، وطول أناته ، وإخلاصه لنفسه ولموضوعه ، وعظيم محبته للغة العربية وآدابها . ولكم سألت نفسى عن العوامل الخفية التى تدفعنا إلى هذا العمل أو ذاك فتجعل رجلا كالأستاذ كراتشكوفسكى يخرج عن نطاق بلاده بكل ما فيها من ميادين واسعة للبحث والعمل وتحمله على درس لغة لا علاقة فى الظاهر بينها وبين لغته ، ثم تدفعه على تكريس حياته لتلك اللغة وآدابها وهو بعيد عن مواطنها » .

« وقد كان بإمكانه ، لو هو شاء ، — وكان أقرب تناول عليه — أن يكرس حياته للغة بلاده وآدابها . لكنه لم يشأ ولم يفعل . وفى ذاك وحده درس وعبرة » .

« لقد كان آخر ما متعنى به أستاذنا المحبوب من أبحاثه الشيقة كتابه فى « رسالة الملائكة » لأبى العلاء المعرى الذى نشرته أكاديمية العلوم فى لينينغراد فى سنة ١٩٣٢ » .

« تصفحت الكتاب فإذا بى أقرأ فى المقدمة أن صاحبه بقى ٢٠ عاماً — من ١٩١٠ إلى ١٩٣٠ — يهتم فى الوصول إلى مصادره وجمع مواده وتمحيصها

وشرحها وترتيبها . وقد كانت العقبات فى سبيله — من حروب وثورات وسواها — أكثر من أن تحصى . وهو ، لتواضعه ، لا يذكر شيئاً منها . ولا يذكر كيف أنه بثباته ، وشغفه بموضوعه تغلب عليها كلها . فأبرز رسالة المعرى التى لم يكن يعرف بوجودها إلا القليل حتى من أبناء لغة المعرى — أبرزها فى أصلها العربى مع ترجمته لها بالروسية وشروح وتعاليق وفهارس تركتنى مذهولا بسعة اطلاع صاحبها وجميل صبره ، ودقة تمحيصه . هو عمل شاق ليس يأتيه إلا من ملك ناصية موضوعه مثلما ملكها الأستاذ كراتشكوفسكى ، وكان شغفاً بعمله ، مخلصاً لعله مثل شغفه وإخلاصه . وما الكتاب هذا غير أنموذج واحد من آثار الأستاذ الكثيرة » .

« أحب الأستاذ شرقنا العربى إلى حد أنه يريد أن يكون معروفاً فيه لا باسمه الروسى « أغناتى » ومعناه أغناطيوس بل بصيغة ذلك الاسم الشائعة فى لبنان وسوريا . فقد أهدى إلى « رسالة الملائكة » وعليها هذه التقدمة بخط يده : « هدية الإعجاب والاحترام من ناشر الرسالة — غنطوس الروسى » .

« الا ألف أهلا وسهلا بك يا « غنطوس » ! كن منا وفينا نكن من الرابحين. ولا أخالك تكون من الخاسرين . لقد أحببناك كما أحببتنا . وها أنا واحد من أبناء العربية التى فتحت لها قلبك وفكرك أدعو لك بازدياد النشاط . وأحييك بإعجاب من عرف جمال روحك وأحب لغة أجدادك كما أحببت لغة أجداده » .

وكان هذا الخطاب مكتوباً فى آيار (مايو) ١٩٣٥ وفى حزيران (يونيو) تسلمت من نعيمة كتابه الكبير الجديد . وهو عن صديقه جبران أحد قادة « المدرسة المهجرية » فى الأدب المعاصر والذى مات سنة ١٩٣١ ، فى نفس الوقت الذى تسلمت من نعيمة خطابه عن تاريخ حياته .

وقد أثر الكتاب تأثيراً كبيراً فى نفسى بغناء مادته ومهارته الأدبية ونغماته العالية الرفيعة . وفى الكتاب نقطتان حملتا إياى من جديد على أن أتذكر مدارس الجمعية الفلسطينية واللغة الروسية بين العرب . وعرفت أن الرابطة الأدبية التى

لعبت منذ ١٩٢٠ الدور القيادى الأدب العربى الحديث فى أمريكا كانت تضم من بين أكثر الأعضاء نشاطاً — عدا نعيمة — اثنين من خريجى المعلمين فى الناصرة . وجبران خليل جبران رئيس الرابطة يرجع بنفسه إلى المارونيين فى شمال لبنان . ولم يكن يعرف الروسية لكن عاطفته نمت بسرعة جداً وفى خطاباته العربية إلى صديقه الطالب الدينى السابق فى بلتافا استعاضة عن الكلمة العادية « عزيزى ميخائيل » بكلمة أخرى غير متوقعة من العرب هى « عزيزى ميشا » وبقيت هذه الكلمة فى خطاباته حتى النهاية . وإن هذا الإسم الروسى المصغر فى ثياب اللغة العربية يبدو شيئاً لطيفاً مؤثراً ولا سيما فى رسالة شخص عربى .

ولقد كان نعيمة على حق عندما قال إن الغموض يكتنف تلك العوامل التى تفسر اختيار الإنسان لأعمال حياته . ولم يكن من الواضح دائماً تفاصيل الطرق التى يسير عليها نماء العاطفة بين الناس والشعوب . ولكن إذا كانوا فى سوريا يعرفون « غنطوس الروسى » وإذا كان الكاتب العربى المشهور يسمى صديقه وابن بلده « ميشا » من بسكنتنا فإن هذه الإشارة الصغيرة تظهر بجلاء إلى أى عمق تنفذ أحياناً مثل هذه العاطفة . وأنه ليخيل لى أن مستقبل الإنسانية يتوقف بدرجة كبيرة على المهارة فى الكشف عن مسالك هذه العاطفة .

فى المتحف الآسيوى

١ ـ مقدمة لأسطورة

(تذكار ف. ا. روزنبرغ)

(١٩٠٣ ـ ١٩٣٤)

فى يوم من أيام شتاء عام ١٩٠٣ ، أثناء محاضرة بوريس الكسندروفيتش توررايف عن تاريخ الحبشة ، حانت منه التفاتة عادية إلى مكان ما فوق رأسى مستمعيه الدائمين ثم وجه الكلام إلى قائلا : « عليك أن ترى طبعة بريوشون ، وهى غير موجودة عندى . إنما توجد فى المتحف الآسيوى وهناك اسأل عنها عند « لم » » . ولقد كان من الصعب على طالب فى الصفوف الأولى ، ومن خارج العاصمة أن يتغلب على حيائه ويتوجه إلى مكتبة جديدة ، هذا بالإضافة إلى أننى سمعت أن عمل الطلبة هناك يتطلب إذناً من المدير .

وكان المتحف الآسيوى آنذاك يقع فى بناء قديم عند المبنى الرئيسى للأكاديمية فى زقاق تاموجنى مقابل متحف الأجناس البشرية والعنصرية ولم يكن المتحف الإسيوى متحفاً بالمعنى الكامل وكان لا يخزن إلا الكتب والمخطوطات الشرقية . وكان المبنى جديداً بالنسبة لكثيرين إذ أن المتحف لم ينتقل إلى هنا من بنائه السابق فى جناح آخر لمبنى الأكاديمية نفسه إلا منذ سنتين تقريبا . وهناك قام مستخدم فى زيه الرسمى العادى آنذاك بتعليق معطفى ثم صعد عدة درجات وفتح بابا لحجرة إلى اليمين من المدخل . وفى جو الحجرة شبه المعتم لم أتمكن من التعرف عليها جيداً فى الحال . إلا أن مساحتها كلها تقريباً كانت مشغولة بمنضدة مربعة ضخمة تقع إلى يسار الباب . ولم يكن يجلس عليها أحد . وعند الجانب المواجه للمدخل كانت تقوم خزانة قصيرة إلا أنها جد عريضة تحوى أقساماً لا تعد خاصة ببطاقات الفهارس الأبجدية . وخلف الخزانة ترتفع منضدة ضخمة تشبه المنصة . وهناك كان الجو مظلماً حتى بالنهار . وفى أوقات العمل كان دائماً يضيء مصباح مكتب كهربائى .

لم أكن قد انتهيت من تفقد الحجرة عندما سمعت صوتاً بعيداً عن التحية يأتى من وراء المنضدة : « ماذا تبتغى ؟ » فى ذلك الوقت فقط لاحظت أن هناك شخصاً جالسا طويل القامة ما زال بعيداً عن الشيخوخة ، بملابس راقية أنيقة ، ذوأنف مشوه يصدم النفس للوهلة الأولى وظننت أنه «لم» الذى أشار إليه تواريف فأوضحت له أنى أريد الحصول على تصريح من المدير بالدخول إلى المتحف للعمل فيه . فسأل الجالس بصوت بعيد عن التحية : « ومن الذى أوصى بك ؟ » لم أكن أتوقع هذا السؤال . إلا أننى أجبت بأن الأستاذ تورايف الذى أدرس عنده وجه نظرى إلى كتاب معين . ومن جديد سألنى ذلك الإنسانى الجاف : « وهل الكتاب موجود عندنا ؟ » فأسندت القول مرة أخرى إلى تورايف . وعندئذ نزل من منصته متوجها نحو الفهرس وأخذ يبحث فى البطاقات . وكان بحثه ، على مايبدو ، بدون جدوى إذ أنه كان يهمهم متضايقاً .

وفى ذلك الوقت سمع صوت غاضب يأتى من مكان ما فى جوف الغرفة حيث يبدأ من وراء المنضدة صف الرفوف المظلمة بما عليها من كتب . وكان هذا الصوت عبارة عن سؤال بالالمانية : « ماحاجته ؟ » فذكر محادثى إسم الكتاب . وهنا سمع صوت خطوات سريعة عرجاء . وظهر كهل نحيف شائب متوسط القامة تنتشر حوله رائحة سيجار نفاذة . وكان يبدو عليه الضيق فصاح فى وجهى بفظاظة : « هذا الكتاب من سلسلة ، ولابد من تعيين السلسلة » ، ثم إنه عثر على بطاقة مافى الفهرس وأراها بغضب إلى شخص آخر . وكان هذا الشخص أستاذ تورايف والعالم فى تاريخ مصر القديمة ، بل ولعله أول عالم أوربى فى الثقافة القبطية . إنه «لم» الذى كان آنذاك الحارس الوحيد للمتحف الأسيوى . أما الشخص الثانى فكان ف. ا. روزنبرغ المستشرق الكبير فى الفارسية الذى كان عضوا خارجاً عن هيئة إدارة المتحف . وعلى كل حال فقد كانت طبعة بريوشون فى يدى بعد دقيقة واحدة . وجلست إلى المنضدة أعمل . ولدى سؤالى عن تصريح المدير حرك روزنبرغ يديه وقال : « سنتولى نحن اخباره . ولم تطلب منى أى وثائق . وعلى هذا انتهت كل الرسميات بالنسبة لى . ويبدو أن إسمى بقى مدة طويلة غير معروف فى المتحف . ولست أذكر ما إذا كان قد دخـــل إلى المتحف فى ذلك اليوم مديره

الأكاديمى زاليمان ؛ ذلك الألمانى الريفلى* . العجوز بحركته ومشيته النشيطة وكلامه الحازم وبمنظره الذى يبدو عليه بعض العبوس وبملابسه الرسمية التى يرتديها دائماً ولم يكن فى ذلك الوقت مديراً للمتحف فقط بل ومديراً للقسم الأجنبى بمكتبة الأكاديمية . وقد أقيم فيما بعد ، بناء على رأيه ، مبنى جديد ضخم للمكتبة . إلا أنه لم يقدر له البقاء حتى ينتقل إلى هـــذا المبنى الجديد . واذكر جيداً كيف أن أولدينبورغ — الذى عين فى العام التالى أميناً دائماً للأكاديمية — ظهر لأمرما ، بما هو معهود فيه من سرعة وشباب وحيوية ودار بسرعة حول المنضدة ووجه نظره نحو القارىء الوحيد ثم ذهب إلى ما وراء المنضدة عند بداية الرفوف حيث كان «لم» (كما فهمت بعد فترة من الوقت) يجلس على منضدته الخاصة قرب المدفأة . وسأله بالألمانية بصوت منخفض : « من هذا ؟ » فأجاب لم بالألمانية وهو يلوح بيده باحتقار وازدراء ، على ما بدا لى : « شىء حبشى ! »

هكذا بدأت معرفتى بالمتحف الآسيوى وبممثليه فى ذلك الوقت . بدأت بالاستحباش لا بالاستعراب وبالكتب لا بالمخطوطات . وبقى المتحف بعد ذلك أعواماً طويلة يجتذبنى أكثر من الجامعة أو المكتبة العامة . ولم أكن أشعر آنذاك بأنه مع مرور الزمن سيحجبهما عنى كلية تقريباً وأن أولئك الناس بل المؤسسة كلها ستصبح قريبة منى بصفة خاصة .

وفى سنوات التلمذة كنت أذهب إلى المتحف الآسيوى نادراً ومصادفة . فقد كانت مكتبة الجامعة آنذاك مشبعة تماما لاحتياجاتى بما تحويه من مختلف الكتب . وكانت المخطوطات بالنسبة لى مازالت غريبة ، ولم نكن قد سمعنا بعد عن أهميتها . ومع ذلك فقد نمت معرفتى بالمتحف — بصفة خاصة — بفضل ما كان يقصه زميلى الأكبر ا. ا. فريمان المستشرق فى الدراسات الإيرانية والسنسكريتية والذى كان يعمل هناك فى المتحف . كان يذهب مراراً إلى المتحف « لكتابة البطاقات » — التى كانت كتابتها بالنسبة لى سراً مغلقاً — وذلك بعد أن يتناول غداء مبكراً فى

---

* نسبة إلى مدينة ريفل عاصمة استونيا والتي تسمى الآن تالين . المعرب .

مسكن الطلبة الذى كان يعرف باسم « مجمع الأمبراطور الكسندر الثانى » حيث كنا نعيش فى ذلك الوقت . وعرفت أن هناك فى المتحف أيضاً يعمل زميل أكبر آخر من سكان « المجمع هو ف. م. الكسييف المستشرق فى الدراسات الصينية .

وفى فترات زياراتى النادرة للمتحف كان يجذب انتباهى منظر شخصية طريفة. وكان صاحبها يظهر دائماً من وراء تلك الرفوف اللانهائية السرية وقد بدا على وجهه الخوف . وكان يسير دائماً فى اتجاه غير مستقيم . بل بخط منحرف . تلك هى شخصية س. ا. فينر العالم اليهودى الذى كان على معرفة كبيرة لا باختصاصه فحسب بل وبالكتب الروسية فى القرن الثامن عشر. وكان هو أيضاً يعتبر خارجاً عن هيئة المتحف ، وبعث به خصيصاً لوصف « مكتبة فريدلاند » . وهذه المكتبة كانت مجموعة مشهورة لمخطوطات وكتب يهودية . وقد ظلت هيئة المتحف مدة طويلة كما كانت عليه فى السابق . وعندما انتهيت من الجامعة وأصبحت منذ ١٩٠٦ أكثر من زياراتى المتحف ، ظل ا. ا. لم الخازن الوحيد. أما الآخرون فقد كانوا يعملون كموظفين خارج هيئة المتحف .

وكنت فى ذلك الوقت مرتبطا بالمتحف الأسيوى من جهتين : أولا من جهة تفكيرى فى رسالة الماجيستر . فقد أبت إرادتى إلا أن أعمل على بحث ونشر مؤلفات شاعر عربى من القرن العاشر هو الوأواء الدمشقى . وكان أن اتفق وجود مخطوطين له فى المتحف الأسيوى وأخذت بإصرار أفك رموزهما وأنسخهما وأقارن بينهما . ووجدت أن المخطوطين ليسا فى حالة حسنة وأنهما من فترة متأخرة ومكتوبان بحروف غير واضحة بل أن أحدهما يحوى أخطاء كثيرة . فكانا مصدر حزن كبير لى كطالب ناشىء يلتمس الطريق ، وطالما جرانى إلى خيبة أمل وحملانى على الشك فى قدرتى .

وقد حدث من بين المرات النادرة أن دخل المتحف ف. ر. روزن بتلك الحيوية التى كان عليها دائما . وكنت فى ذلك الوقت جالسا إلى هذين المخطوطين فتوجه إلى بمرحه المعتاد قائلا : « كيف حال وأواءك الصغير ؟ » ولم أكن اجرؤ عادة أن أتوجه إليه بالشكوى من أحزانى الصغيرة مؤملا أن أفعل ذلك عند ما

يكون كل عملى قريبا من الانتهاء . ولسوء الحظ لم أكن أتصور أن عندها سيكون الوقت قد فات .

والجهة الثانية التى ربطتنى بالمتحف الآسيوى تتعلق بعمل آخر كنت قد أخفيت أمره عن روزن مدة طويلة . ذلك لأنى كنت أخاف من اللوم بسبب توسعى الكبير . وكان هذا العمل قد ظهر تحت تأثير اهتمامات لم الذى كان يعمل بلا كلل وتعب فى « دراساته القبطية » . وغالبا ما كان يضطر فى عمله إلى الاهتمام بموازيات عربية . وهنا بدأ ينظر نحوى تدريجيا باحترام خاشع لمعرفتى العربية . وهذا بالطبع ، لأن الموضوعات العربية المسيحية كانت قريبة منى آنذاك . وطالما توجه إلى بأسئلة مختلفة ، بلهجته الدائمة غير الراضية . وبالنسبة لى كانت مثل هذه الأحاديث مع عالم من الدرجـــة الأولى لا تقل فائدة عن الدروس المنتظمة . وكان أ. ا. لم يجمع طول حياته مواد علمية لبحثه الكبير لأسطورة عن رئيس الملائكة ميخائيل . وعلى هذا استكتب ذات مرة من غوتا إلى المتحف الآسيوى مخطوطا ضخما يحوى أشعاراً غنائية قبطية ورواية عربية فريدة للأسطورة .

وقد جذبنى هذا الموضوع الأسطورى بتأثير « لم » وقررت أن أنسخ المخطوط كاملا . وكان على عكس مخطوط الوأواء واضحا جداً . وكان العمل الأساسى فيه لايتطلب إلا قوة آلية جسيمة . وبالطبع كان الوقت اللازم لنسخ أكثر من ثلاثمائة صفحة ليس بالقليل . ولكننى قررت أن أعترف لروزن بجريرتى عندما انتهيت من نسخ كل المخطوط . غير أنه لم يغضب خلافا لما كنت أتوقع ، وقال بمنتهى المرح : « هذا عظيم . تؤلف رسالة الماجيستر عن الوأواء ورسالة الدكتوراه عن ميكائيل » . إلا أن هذا لم يحدث وما زالت النسخة حتى هذه اللحظة مخزونة عندى ، ولم تفدنى لا بمادة لبعض المقالات الصغيرة . على أن جو تلك المدرسة ، مدرسة العمل الاستقلالى العميق فى المخطوطات ، والذى عشت فيه فى المتحف الآسيوى ، ظهر أنه كان بالنسبة لى مفيداً للغاية . وسرعان ما صار اندفاعى أمراً ملحوظا . وفى عام ١٩٠٧ حدثت لى مفاجأة غير متوقعة . فقد اضطرتنى الدراسات المرتبطة برسالتى ، إلى دراسة أشعار المتنبى ؛ وعندها أسفت لأنه لايوجد لدينا مخطوط تعليقات الشاعر والفيلسوف المشهور أبى العلاء على هذه الأشعار . وسألنى روزنبرغ ولم بجعجعته

الدائمة عن مكان وجود هـذا المخطوط فأجبت بأنه فى مدينة مونيخ . إلا أنى بالطبع لم أعط هذا السؤال أهمية . وذات مرة ، وقبل أن يمر أسبوعان على ذلك جئت من أجل عملى العادى عن الوأواء ، إلى ذلك المكان الدائم ، على تلك المنضدة المربعة وهناك وجدت مخطوط مونيخ بنفسه . وأخذت أتأمله بذهول كامل فى حين كان لم وروزنبرغ وراء المنضدة الصغيرة ، يتتبعان بحب استطلاع ، انطباعاتى عند رؤية هذا المخطوط الذى لايتوقع وجوده . ويبدو أنهما قاما فى السر بكتابة خطاب لإرسال المخطوط من مونيخ إلى المتحف الآسيوى حيث ظل المدة اللازمة لى للعمل .

وفى عام ١٩٠٨ ، بعد نصف عام عقب امتحان الماجيستر ، سافرت إلى الشرق حيث غرقت فى حياة أخرى ، ومخطوطات أخرى حجبت المتحف الآسيوى . وبعد رجوعى من هناك ، سنة ١٩١٠ ، بقيت مدة طويلة أيضاً بعيداً عن المتحف . ذلك لأننى شغلت بالاشراف على مكتبة اللغات الشرقية المعروفة باسم روزن والتى تأسست فى ذلك الوقت ، وقد أعطيت معظم وقتى لتنظيمها .

ثم إن عدم تعودى بعد على إلقاء المحاضرات بالجامعة وضرورة استعدادى لها ، كل هذا ابتلع كل أوقات نهارى وكثيراً ما لم يمكننى من زيارة المتحف . وكان يرتبط بهذا الموقف طبعا مواقف أخرى . فلم يكن فى المتحف الآسيوى متخصص فى الاستعراب على أن مديره الأكاديمى زاليمان — كما هو أحياناً طابع العالم العجوز — كان يريد أن يعمل كل شىء بنفسه وظن أنه سيتمكن من إيجاد وقت لأجل هذا العمل الاستعرابى . وعلى هذا تولى بنفسه وصف مخطوطات الشرق الأدنى الواردة حديثا المتحف . وكان لا يتوجه إلى بسؤال إلا فى بعض الحالات الصعبة بشأن بعض نسخ منفردة من هذه المخطوطات لتوضيح كنها له . وهكذا ، وبسرور عظيم ، استطعت التمتع بنسخة رائعة لمخطوط من القرن الثانى عشر هو « الآثار الباقية عن القرون الخالية » للبيرونى الخوارزمى المشهور . وكانت هذه النسخة قد اشتريت حوالى ذلك الوقت فى إيران . وكنت أحلم بأن « أعانق ما لا يشتمل » ونسخت بعض قطع من هـذا المخطوط تكمل الأماكن الخالية فى طبعة زخاو المشهورة ، وافترضت أننى سأتمكن من نشر هـذه القطع

القطع فيما بعد . لكن الأمر بدا أصعب مما كنت أظن وظلت هذه النسخه ملقاة عندى حتى الآن لا تزال تنتظر دورها . وكان عيداً عظيماً لى يوم أن اكتشفت بين الكتب الآتية حديثاً ، أحد مجلدات تاريخ ابن مسكويه وهو مجلد مخطوط كتب بخط جميل فى آسيا الوسطى فى وقت ليس متأخراً عن القرن الثانى عشر وهو نفس المجلد الذى قرأه ياقوت الجغرافى المشهور فى ذلك الوقت هناك فى مدينة مرو على أغلب الظن . وقد اتضح هذا الأمر مع مرور الوقت عندما عثر فى مدينة قزان على مجلد آخر لنفس هذه النسخة وعليها بعض كلمات بخط ياقوت نفسه . وبعد ذلك اكتشفت فى آسيا الوسطى المجلدات الثلاثة الباقية كلها ،مؤكدة من جديد تلك الحقيقه القديمة القائلة بأن « للكتب أقدارها » . وبسعادة لا تقل عن سابقتها . وفى مخطوط متلف من مجموعة حديثة آتية من بخارى ، اكتشفت « ديوان » أشعار « الأعرابى الأخير » ذى الرمة ذلك الشاعر الأموى الكبير فى القرن الثامن .

وفى نهاية ١٩١٦ مات زاليمان مدير المتحف وفى نفس الوقت أخذت تتوالى بانتظام على المتحف الأسيوى مخطوطات كثيرة متنوعة أنقذت أثناء الحرب من الجبهة القوقازية . وكان أكثر هذه المخطوطات عربية تعلن فى إصرار وبصوت داو عن ضرورة وجود مستعرب فى المتحف الأسيوى . وقد دعانى المدير الجديد للمتحف أولدنبورغ فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ للعمل على هذه المخطوطات بصفة أساسية . وكان هذا بالنسبة لى عيداً عظيما . وفتحت لى خدمتى بالمتحف الأسيوى مجالا كاملا إلى المادة العلمية بما فى ذلك المخطوطات التى أستطيع الآن أن أغرق فيها بحرية إلى المدى الذى تستطيع بلوغه قوتى ووقتى ، وفى أية ساعة من الليل أو النهار . هكذا عملت وعمل الآخرون . ولم يكن وقت العمل محدوداً اللهم إلا بعض ساعات اليوم للخزنة . وكان العمل الشخصى العلمى يتداخل مع عمل المتحف . وكان هذا العمل الشخصى لا يعرف أى حد أو معدل . ولقد كنا نحن الشباب نضحك من لم لأنه كان يأخذ بطاقات المكتبة لكتابتها بالمنزل . وكان الكثيرون فى المتحف يعملون هم النصف الثانى من اليوم ، وكثيراً ما كانوا يجلسون حتى آخر الليل . وكان هذا شيئاً عادياً بالنسبة لروزنبرغ نفسه .

وفى عام ١٩١٦ تغيرت حال المتحف إلى درجة ملحوظة إذا ما قورنت بحاله فى الزمن السابق عندما كان لم هو الخازن الرسمى الوحيد . أما الآن فأصبح هؤلاء الخزنة ثلاثة : لم وقد نال لقب كبير الخزنة والثانى فى مرتبة لم أيضاً هو روزنبرغ ، أما الثالث وهو أصغر درجة فكان الكسييف . أما خارج هيئة المتحف فكان يعمل إلى جانب عن س. ا. فينر ، المستشرق فى الفارسية ، ف. ا. إيفانوف ذلك الرجل البالغ الغرابة والمختص الكبير فى التصوف والمحب الولهان المخطوطات . وكان « صياداً » ناجحاً جداً لهذه المخطوطات. فقد أرسلته الأكاديمية مرتين لجمعها فى آسيا الوسطى . فاغتنى المتحف بالمجموعة الضخمة التى جمعها والتى تسمى بمجموعة « بخارى » . وكان إنسانا لاذعاً سليط اللسان يتكلم بالمجاز . وكان دائماً وبخاصة عند تناول شاى الظهيرة يوجه لذعاته إلى ذلك الشخص الهادىء الذى يشتغل فى المتحف ، وهو الأرمنى ا . ا. كالانتاريان ، الذى لم تكن تظهر عليه إستجابته للسخرية عادة إلا بعد أن يتفرق الجميع . وكان المستشرق فى الدراسات المونغولية الموهوب ب . ى . فلاديمير تسوف قد دعى للعمل فى فترة سابقة قليلا لعملى فى المتحف . وظلت هيئة الموظفين تنمو بعد إلتحاقى بالعمل فى المتحف . ومحل لم حل ب . ف . برنشتادت ، العالم فى الدراسات القبطية والهللنية وظهر أيضاً شاب متخصص فى الدراسات القوقازية هو ا. ن. غينكو .

وفى عام ١٩١٨ وقع حدث كبير فى المتحف الأسيوى . فقد انضمت إلى عداد الموظفين وبمبادرة من أولدنبورغ أول امرأة هى ن. م. ديا كونوفا تلميذة ب. ا. تورايف ، العالمة فى الدراسات المصرية القديمة والتى أصبحت زوجة الكسييف فيما بعد . وأخذ يظهر تدريجياً للعمل بالمتحف أفراد من جيلنا والجيل الذى يليه بل ومن تلاميذنا .

وقد أعطى لوناً ناصعاً للحياة بالمتحف المستخدمان ديمترى بريادوف ويبريمى زيوزين اللذان أمضيا هنا معظم فترة وجود زاليمان وكل فترة وجود أولدنبورغ وكل من بريادوف وزهيوزين خرج من الوسط الفلاحى البسيط ، وكانا بطبيعتهما يملكان مواهب ليست بالقليلة . وقد استطاعت هذه المواهب أن تتطور بفضل

وجودهما فى هذه المؤسسة الثقافية . وبصرف النظر عن القول بأن كليهما استطاع أن يفهم جيداً الرموز المكتبية المختلفة والحروف اللاتينية ، فإن كلا منهما كان بنفسه يجيد كل صنعة . فبريادوف تعلم بنفسه تصليح الساعات بمنتهى الروعة . وأما زيوزين فقد تعلم تصليح الأحذية . إلا أنه يمكن القول بأن هذه المواهب ليست إلا مواهب معيشية ، ولكن الأمر الأكثر إمتاعا أن بريادوف صار مصوراً وصور المخطوطات الشرقية بطريقة فنية . وقد أرسلته الأكاديمية فى مهمة لهذا الغرض إلى دير باسم « أفون » . ولما كان المتحف يرسل صوراً من المخطوطات بناء على طلبات من العلماء الأجانب ، فقد وصلت إلى المتحف رسائل كثيرة خاصة للشكر على أن الصور التى أرسلت إليهم تمتاز بمهارة عجيبة . وبالطبع فإن هؤلاء الأجانب لم يكونوا يدرون من الذى كان يعمل على تصوير هذه المخطوطات . وعندما اتسعت هيئة إدارة المتحف بحيث أصبح عدد المستخدمين ثلاثة كان المستخدم الثالث هو الذى يتغير عادة، أما كل من بريادوف وزيوزين فكان يعملان باستمرار دون أن يتغيرا . وبدونهما كان من الصعب تصور المتحف أو تصور وقوع أى حدث فى حياته . وانتقلا كلاهما فيما بعد مع المتحف إلى مبناه الجديد . إلا أن بريادوف أصابه المرض هناك وأصبح صعبا علية صعود السلم ، ولم يعد يستطيع القيام بتصليح الساعات . ثم وافته المنية فى العقد الرابع من هذا القرن بعد موت روزنبرغ . ورقى زيوزين إلى درجة مستخدم علمى فنى . إلا أنه أيضاً أخذ يذبل رويداً رويداً ، ولم يذبل عوده تماماً إلا فى سنة ١٩٤٢ القاسية . وبموته انتهى آخر ممثل للمتحف الآسيوى القديم . اقد ذهب وهو يذكر جيداً ما كان من فترات مختلفة فى حياة ذلك المتحف .

كانت فترة إدارة أولدنبورغ وبخاصة أعوام ١٩١٧ — ١٩٢٥ فترة إزدهار كبير للمتحف عندما أصبح فى الحقيقة على نحو غير ملحوظ مركزاً لكل الاستشراق العلمى فى ليفينغراد . وقد انتقل إلى المتحف إلى حد ما الدور الموحد الذى لعبته فيما مضى كل من كلية اللغات الشرقية التى تفتتت والشعبة الشرقية لمجمع الآثار التى حل محلها لعدة أعوام « مجلس المستشرقين » التابع للمتحف الآسيوى وكان روح كل هذا الانتعاش هو بالطبع س. ف. أولدنبورغ إلا أن ارتباطه

بالعمل العلمى التنظيمى الواسع فى الأكاديمية وخارجها لم يكن يمكنه دائماً من إعطاء وقت كاف للمتحف الأسيوى . واتضح أن كل الأعمال اليومية وكل ما يتعلق بتنظيم العمل وتوزيعه كان فى يد ف. ا. روزنبرغ الذى اكتشف على غير انتظار موهوباً كبيراً لتوحيد الجيل الأصغر حوله . أما لم فسرعان ماأصابه ثم مات سنة ١٩١٨ . وبقى روزنبرغ كبير الخزنة محتفظاً كسابق عهده بنغمة الجعجعة ، لكنه استطاع — على نحـــو غير ملحوظ — أن يقرب إليه جميع الموظفين فى العمل ، وأن يسيطر عليهم بسلطانه العلمى الرائع وبخاصة بهالته الثقافية الرفيعة الشامخة : فقد كان إلى جانب كونه من علماء الصف الأول علامة دقيقاً فى الفن والأدب العالمى .

وقد كان العمل سهلا فى مثل هذا الموقف . برغم جميع المصاعب التى كانت كانت تواجهها بتروغراد فى ذلك العصر . وبالنسبة لى كانت فترة ١٩١٦—١٩٢١ فترة غرق لا فى مخطوطات منفردة فحسب بل وفى مجموعات كاملة فيها ذخائر وكانت تنهال على أحياناً بكثرتها ، إلا أن الاحتكاك الدائم مع المواد الحية المتجددة ساعد بصفة خاصة على تجدد همتى والإسراع بالعمل العلمى .

وكان على قبل كل شىء أن أقوم بترتيب أكثر من ألف مخطوط تعرف باسم مجموعة القوقاز كانت قد أحضرت من جبهة الحرب هناك . وفى كل أسبوع كان يسلم إلى فى المتحف « طرد » منها . وكان هذا التيار المستمر يهددنى أحياناً بالغرق . وكانت هذه المخطوطات فى أغلب الأحوال من الدرجة الثانية بل إن أكثرها كان من الدرجة الثالثة . إلا أن النظر فى هذه الكمية الضخمة علمنى سرعة الاستدلال فى مادة جديدة ، ووسع من نظرتى إلى جميع مجالات الكتابة . ولقد أعطتنى هذه المجموعة لأول مرة فى حياتى صورة مرئية عن معارف أدبية تتصل بالثقافة العربية وتخص إحدى مقاطعات العالم الإسلامى . ومرت أمام ناظرى كتب تعليمية ومؤلفات علمية مدرسية وباختصار كل « حلقة القراءة » التى إلتهمتها أجيال كامله مدة مئات من السنين حتى القرن العشرين .

وما كدت أنتهى من التغلب على تلك الموجة العارمة حتى ابتلعتنى أخرى أكثر خطورة من السابقة : هى تصنيف المخطوطات التى بقيت بعد وفاة روزن

والتى أرسلها إلى المتحف فى ذلك الوقت تلميذه الأقــدم المستشرق المشهور فى الدراسات الإيرانية ف. ا. جوكوفسكى الذى مات ١٩١٨ . ولقد ظننت أننى كنت أعرف روزن عن قرب بدرجة كافية فى آخرفترات حياته . لـكننى آنذاك فقط ، عند دراستى لمخطوطاته ومراسلاته الواسعة ، استطعت تقدير ذلك الشخص الـكبير والعالم العالمى حق قدره . وكان المتخصصون فى كل البلاد يعدون الاتصال به تشريفاً لهم ، فهو منظم الاستشراق الروسى ، ومن مدرسته تخرج نجوم علمنا أمثال أولدنبورغ ومار وبارتولد وآخرون كثيرون . وأن أعمال روزن العلمية التى لم تنشر وأبحاثه التى لم تكتمل ومسوداته ووثائق تاريخ حياته ومراسلاته كل هذا أعطانى مواد للنشر طول حياتى . إلا أن كثيراً منها لم يستنزف بعد .

وإذا ما أضفت إلى ذلك أنه قد وصلت إلى المتحف فى تلك الأعوام مخطوطات البطريرك غريغوريوس من القصر الشتوى ومجموعة كبيرة من القسم التعليمى السابق لوزارة الخارجية ، وكانت « مجموعة بخارى » التى جمعها ايفانوف تنمو باستمرار . وإذا ما أضفت إلى هذا أنه كان لابد أن يمر كل مخطوط عربى من بين يدى ، أصبح من السهل تصور أى بحر كنت موجوداً فيه وأية حال من التوتر كان عليها عملى الذى كانت المـــواد الجديدة تجعله دائماً على مستوى زائد .

وكانت السعادة بالاكتشافات الـكبرى تتناوب مع الارتياح لنمـو ذخيرتنا ودخولها مجال العلم على نحو أوثق فأوثق . وكانت مجموعات المخطوطات الجديدة توضح بجلاء أكثر قيمة المجموعات القديمة السابقة . وشعرنا كلنا بهذا ، بصورة قوية عندما كتبنا — بمبادرة من أولدنبورغ — كل حسب اختصاصه ، مختصراً لأقسام المتحف بمناسبة الذكرى المئوية له ، سنة ١٩١٨ . وأن الاطلاع على المواد العلمية لمؤسس المتحف وأول خازن له خ. د. فرين ليرفع إلى الذرى هذا الشخص العالم من الطراز الأول الذى عمل بكل قلبه من أجل صالح المتحف . وإن شعور المرء بأنه يواصل العمل الذى أوصى به من السابقون العظام ليساعده على قهر المصاعب وأداء عمله المتواضع المغمور بلا كلل . بالنسبة لى كانت أعوام ١٩١٦ — ١٩٢١ فترة غرقت فيها تماماً فى مخطوطات المتحف الآسيوى .

وفى نهاية ١٩٢١ انتخبت عضوا فى الأكاديمية . وبحسب النظام المتبع فى ذلك الوقت كان من اللازم أن أترك وظيفتى فى المتحف . وبالطبع فان هذا الموضوع لم يعقنى عن العمل بالمتحف ولكن الاختيار وقع على فى السنة التالية لوظيفة أمين قسم التاريخ واللغة والآداب فى الأكاديمية . وكانت وكانت هذه الوظيفه قد أنشئت حديثاً فى ذلك الوقت . وعملت المهمات التنظيمية الإدارية الجديدة المرتبطة بضرورة الوكالة عن الأمين الدائم للاكاديمية س. ف. أولدنبورغ وقت رحلاته المتعددة على اقتطاعى من المتحف مدة تقرب من السبعة أعوام وقللت كثيراً من إمكانية عملى العلمى الشخصى .

وفى الوقت نفسة كان المتحف الآسيوى القديم يسير فى طريق النهاية . ففى عام ١٩٢٥ ، وبمناسبة ذكرى مرور مائتى عام على تأسيس الأكاديمية انتقل المتحف إلى مبنى جديد فوق مكتبتها . وفيما بعد اتحد المتحف مع المنظمات الاستشراقية الأخرى للأكاديمية وتحول الجميع إلى معهد الاستشراق . وبعد هذا بدأت فترة جديدة . كان الموظفون جميعاً يذكرون هذا ، إلا أنه كان من الصعب على الكثيرين مفارقة البناء القديم غير المريح ، لكنهم ألفوه وارتاحوا اليه . وكان ذلك البناء القديم للمتحف فى زقاق تاموجيني حيث كان يشغل الطابق الأول . أماهنا ، فى المبنى الجديد ، فلا بد من الصعود إلى الطابق الثامن . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير على الجميع حتى من الناحية الجسمية . كان روزنبرغ أول من شعر بهذا ، وأصابه المرض فى الأعوام الأخيرة ، فكان يتحرك أحياناً بصعوبة . وبدأ نوره يخبو تماما بعد الانتقال إلى البناء الجديد . ولم يستطع الأطباء مدة طويلة أن يحددوا « سل المسنين » الذى أصابه. وأمام أعيننا كان الخازن الأخير يخطو إلى العدم . وكان ا. د. زيوزين كالممرضة المخلصة يزوره كل يوم تقريباً فى وحدته هناك فى شقته . وربما كان ينفذ بعض رغباته التى لم تكن فى صالح مرضه. وكان روزنبرغ عالما بطلا حتى وهو فى طريقه إلى الموت . فى تلك الساعات القليلة من الليل وفى تلك الفترات القصيرة التى كانت تنخفض فيها درجات حرارته الأربعين ، وتختفى عندها رؤية الأصدقاء الراحلين إلى عالم الفناء ، كان يعد لذكرى الفردوسى ترجمة وتعليقات عن بعض قطع مختارة من « الشاهنامة » وهو أحسن العارفين بها . وقد ظهر كتاب صغير أنيق الطبعة كان آخر عمل له ، لكن للأسف بعد موته .

وما كان روزنبرغ الحزين الوحيد على المتحف الأسيوى القديم . ونحن بالطبع كنا ندرك جيداً أن الأكاديمية لا بد لها أن تنتقل من صورة ذلك العمل البدائى والحرفى أحيانا فى تلك الأقسام الصغيرة إلى معهد كبير بفروع مختلفة وبمجموعة كبيرة من المستخدمين . ولكنه كان من المحزن لنا أن العمل على المخطوطات وذخائرها . ذلك العمل الذى كان فى السابق للصعب الأساسى للحياة فى المتحف الاسيوى والذى ملأ كل هذه الحياة ، قد أصبح الآن فى المرتبة الثانية . ولم يكن الجميع يدركون معنى هذا العمل وقيمته . فالحلقة الصغيرة لأولئك العلماء الذين عاشوا فى المكتبة من أجلها قد ذابت فى المعهد الكبير للأبحاث العلمية بما يوجد فيه من عشرات المستخدمين ، يعدون المائة ، وبما له من برامج واسعة . كل هذا كان مفهوما وطبيعيا . ولكننا كنا نتذكر المتحف الآسيوى القديم كما يتذكر المرء الآن جمال الصناعة اليدوية قديما والتى اندثرت تحت ضغط الإنتاج المعاصر ، وهذا أمر لا بد منه حسب قانون الزمن . لكن من شب فى الحالة القديمة لهذه الصناعة يتحسر على جمالها وإن يكن يفهم ذلك . وربما لست أنا وحدى الذى يتذكر باحساسه الخاص أسطورة عن المتحف الآسيوى نشأت فى أجوائه فى العقد الثالث من هذا القرن ودارت حوادثها فى مملكة المالك « بوك الخير » فى قصر الفارس « الجبل الوردى » وكان من بين الذين يعيشون هناك ساحر عربى خير وبطرس الفلاماندى القاسى وكان هناك ثلاثة من التروبادور هم : جيول — الطويل الشعر — Aux cheveux longs ونوس — Aux cheveux blonds — الذهبى الشعر ودوس — Aux cheveux noirs — الأسود الشعر وكان هناك أيضا اللاعب بمجموعة الكرات الكسيس لى بيف وكثيرون كثيرون آخرون ولا أزال أرى كلا منهم اليوم على مهاد الخزانات الحمراء نفسها والكتب والمخطوطات نفسها التى أحاطت بنا عشرات الأعوام فى المتحف الآسيوى القديم .

٢ — مخطوط وحيد وعلماء « اثنتى عشرة لغة »

كنت فى حياتى الاستعرابية ألتقى غالباً بمخطوطات. اكتشفت منذ زمن بعيد دون أن يشعر أحد ودون أية جلبة أو ضوضاء. إلا أن قصة دخولها بالتدريج إلى دنيا العلم، تذكر أحيانا بأسطورة سحرية يقوم بالأدوار فيها مجموعة من الشخصيات ارتبطت أقدارهم معاً على غير انتظار. ومع أن موضوع القصة «بدون رتوش» إلا أنها تعطى صورة دالة للعمل الجماعى لعلماء كثير من الشعوب. هذا هذا العمل الذى جذب إلى مجراه موهوبين ممتازين وعاملين بسطاء وشعوباً كاملة بتراثها الاستعرابى القديم، وقوميات نالت استقلالها أمام عيوننا بل وجذب إلى مجراه الشرق والغرب كافة على اختلاف أشكالها الظاهرية. حقاً إنها لصورة جذابة تحمل بين جوانبها قوة معلمة، ومثلها كمثل «الشمس على قطيرة ماء»، فى عكسها حركة الثقافة الإنسانية التى لا تعرف الكلل.

فى القرن الثانى عشر، كان يعيش فى قرطبة شاعر عربى، قليل الشهرة فى أوساط رجال القصور عند أمراء أسبانيا الكثيرين من ملوك الطوائف الذين تقاسموا الخلافة القرطبية فيما بينهم. إلا أن الناس فى الأسواق وفى كل مكان يجتمع فيه الشعب البسيط، كانوا يقابلون شاعرنا هذا كضيف محبوب لا فى قرطبة فحسب بل فى المدن الأندلسية الأخرى، كاشبيليا وغرناطة. وكانت لغة شاعرنا القومية هى العربية. أما شكله بعينيه الزرقاوين ولحيته الذهبية المائلة إلى الحمرة فيشير إلى أن بين أجداده من كان دمه من سلالة أوروبية. وحتى اسمه نفسه «ابن قزمان» كان مستعملا بين العرب والأسبان على السواء. وهو فى أشعاره لم يقتف النماذج العربيــــة القديمة للمدح التمجيدى باللغة الفصحى الكلاسيكية. وتتحدث أغانيه الحية المرحة أكثر ما تتحدث عن الحب والخمر مع تلميحات ليست بالنادرة عن ضرورة مساعدة المغنى الفقير دائم الترحال. وجعلت موهبته الكبيرة فى كل أغنية صورة جريئة ناصعة براقة عن كامل وضع الحياة والمعيشة وكثيراً ما كان يتناول الغزل المكشوف. وكان ابن قزمان لا يستخدم اللغة الفصحى تقريباً. ويفضل استخدام لهجة التخاطب الشعبية لأقاليم وطنه. بل ولم يخجل من استخدام

الكلمات والتعبيرات الرومانية التى كانت مفهومة آنذاك . وليس عجيبا أن يكون مثل هذا الشعر بعيداً عن روح الأدباء المحبين للغة الخالصة التى تتقيد بكل القواعد ويعيداً عن روح المعجبين بالتقاليد القديمة ، الذين نظروا إلى تسجيل زجله المرح نظرتهم إلى شيء غير جدير بهم . لكن كان هناك أيضاً الكثيرون الذين أعجبتهم هذه الأزجال . وابتدأت تشق طريقها رويداً رويدا نحو الشرق العربى . وهناك فى فلسطين ، فى مدينة صغيرة ، فى صفد ، قام شخص عربى بعد مائة سنة بنسخ هذه الأزجال بدافع من اهتمامه الخاص . وقام بكتابتها بدقة وعناية . إلا أنه لم يكن يعرف اللهجة العربية الأسبانية البعيدة عنه ،ولم يكن لديه بالطبع أية فكرة عن اللغة الرومانية ، ومن هنا يمكن أن نتصور بسهولة أية أخطاء تسربت إلى هذه النسخة لا سيما فى تلك الكلمات الرومانية التى نسخها بحروف عربية بطريقة آلية . وعلى كل حال فما كنا لنعرف الشيء الكثير عن ابن قزمان لو لم يخزن هذا المخطوط — الوحيد المعروف حتى الآن — عندنا فى المتحف الآسيوى . وكان طريق المخطوط شاقاً . وأخيراً وقع عندنا بفضل بعض المصادفات السعيدة .

فى نهاية القرن السابع عشر وصل من جنيف إلى سوريا شخص غير معروف يدعى روسو وهو ممثل لعائلة جان جاك روسو التى صارت لامعة فيما بعد . وهناك فى سوريا كان روسو هذا يحيا حياة أفضل مما كان يحياها فى وطنه . وقد استطاع بالتدريج أن يجمع بعض الثروة . وعشية الثورة الفرنسية كان ابنه قنصلا لحكومته فى حلب وبغداد . وكان حفيده قد ترعرع فى الشرق بثقافته الفرنسية إلا أنه صار فيما بعد نموذجا حقيقيا لسكان الطرف الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط . فقد سيطر هذا الحفيد تماما على اللغة العربية والفارسية والتركية واكتسب بنفسه وبطريق مباشر انطباعات عن تركيا وإيران حيث كان يقوم بتنفيذ أوامر دبلوماسية وتجارية هامة خاصة بحكومته الفرنسية . وقد اقتفى الحفيد خطوات أبيه كتاجر رسمى ووكيل قنصلى وصار أحسن من أبيه من حيث معارفه واهتمامه العلمى نوعاً ما بتلك البلاد التى عاش فيها . وأقام الحفيد فى حلب وقتاً طويلا . واقامته فى هذه المدينة ، التى كانت آنذاك « مركزا ثقافياً » أصيلا للمنطقة . وقد طورت فيه ذوقا نحو الأدب وجمع المخطوطات .

وتجمعت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة اختيرت بمهارة ولم يكن ديوان ابن قزمان المخطوط الفريد الوحيد فى هذه المجموعة . أما النصف الثانى من حياة الحفيد فقد كان بعيداً عن الهدوء والراحة . فقد قضاه فى طرابلس الغرب . وفى ذلك الوقت تغيرت ظروفه المادية إلى حد جعله فى ١٨١٥ يفكر فى أن يتخلص من مجموعة مخطوطاته ببيعها .

فتوجه إلى الحكومة الفرنسية أول ما توجه يعرض عليها شراء المجموعة . إلا أن عجز الميزانية بعد حروب نابليون لم يمكن الحكومة من الموافقة على المبلغ الكبير نسبياً الذى طلبه صاحب المجموعة بكل حق . وهنا جاء دور سلفستر دى ساسى أكبر مستشرق مشهور فى عصره ،وكان يقدر جيداً قيمة هذه المجموعة فأخبر عنها — بواسطة تلاميذه الذين كانوا أساتذة زائرين فى بطرسبورغ — وزير المعارف العمومية أوفاروف . كان هذا معروفا لدى ساسى شخصياً وصاحبا لمشروع « المجتمع العلمى الآسيوى » الذى لقى اهتماما كبيراً من «غوته» . وقد بيعت المجموعة على دفعتين فى عام ١٨١٩ ، وعام ١٨٢٥ . وحرمت فرنسا من مجموعة قيمة . إلا أن هذه المجموعة لعبت عندنا دوراً ضخماً بوضعها أساساً لمجموعات المتحف الآسيوى العالمية الشأن. وكانت لهذه المجموعة قوة جذابة لاتقل عن مجموعة النقود القديمة للأكاديمية . وهاتان المجموعتان اجتذبتا فى روسيا إلى الأبد فرين المشهور أثناء عودته من قازان —حيث خدم عشرة أعوام — إلى وطنه فى مدينة روستوك ليشغل كرسى أستاذه المتوفى فى ذلك الوقت . وفرين ، أول أمين للمتحف الآسيوى ومؤسس استعرابنا العلمى ، قدر قيمة المخطوطات حق قدرها . وقام فى مجلداته الكثيرة بأول وصف لمادتها وأعد فهرساً لها . وبهذه الصورة أنقذت أشعار ابن قزمان ووجدت لنفسها مكاناً أمينا تختزن فيه لكن هذه الأشعار لم تشق طريقها إلى العلم بسرعة إلا بعد أكثر من ٦٠ عاماً .

ف . ر . روزن ابن ألمانى أمه نصف جورجية ونصف روسية وهو مؤسس المدرسة الحديثة فى الاستشراق الروسى، كان قد انتخب فى ١٨٧٩ عضواً معاونا للأكاديمية ولديه من العمر ٣٠ عاما . وفى أول أعماله وضع خطة لطبع الفهارس العلمية للمخطوطات العربية بالمتحف الآسيوى . وكتب هذا الفهرس

بالفرنسية وبطريقة حية هي من خصائص روزن الملازمة له. وبفضل هذا الفهرس سرعان ما دخلت فى حلبة العلم ثلاثمائة مخطوط، تشتمل بصفة أساسية على مجموعات روسو التى كان من بينها أشياء نادرة ليست بالقليلة. وقد وجه روزن اهتماما خاصا نحو ديوان ابن قزمان . وقام بدقة بتقويم الشكل الخاص بأشعاره. وكتب وصفا مختصراً للشاعر وأورد بعض أشعاره التى طبعت هنا فى المرة الأولى باللغة العربية . وإلى جانب هذا ، كان روزن يستجيب بحيوية لمختلف ظواهر الحياة الاستعرابية . وقد أراد أن يجذب إلى العمل أناسا آخرين . وكان يفهم أن أحسن من يصلح لدراسة ابن قزمان فى أوروبا آنذاك هو المستعرب الهولندى دوزى الذى كانت خبرته بالموضوعات الأسبانية تفوق كل المستشرقين فى أوروبا : ولذلك فإن روزن فى إتمامه لوصف مخطوط ابن قزمان أشار متحرشا — إلى عالم من مدينة ليدن ولمح إلى أن هذا العالم هو أفضل الجميع لدراسة أثر ابن قزمان . إلا أن دوزى كان يشعر بأن أيامه تميل نحو الغروب . وقد مات فعلا بعد عامين . ومن ثم لم يجرؤ على أن يربط نفسه بعمل جديد مجهداً . ولم يستجب لتحرش روزن إلا بخطاب يتضمن بعض ملاحظات طريفة تتعلق بالشاعر ابن قزمان وبأشعاره .

وبدأت الحياة العلمية لمخطوط ابن قزمان بفضل الفهرس الذى قام روزن باعداده . وفى العقد التاسع من القرن التاسع عشر قام هذا المخطوط برحلة خاصة إلى غرناطة حيث كان يدرسه الأستاذ الجامعى الاسبانى سيمونيت. وقام بتعريف أبناء وطنه بالشاعر القرطبى فى مقالة خاصة كتبها. وكثيراً ما كان يستعين بعناصر من مؤلفات ابن قزمان فى أعماله العلمية عن تاريخ الإسبان المستعربين . وعلى كل فإن أحداً لم يجرؤ على أن يأخذ على عاتقه طبعة محققة منقحة عن ابن قزمان . وظل ديوانه سنين طوالا لا توجد له نسخة مستعملة إلا تلك النسخة الوحيدة . إلا أن أحد تلاميذ روزن بتأثير منه استطاع أن يجد طريقا سليما أمكن به أن يصل هذا المخطوط إلى أيدى جميع العلماء المهتمين به .

ذلك أن بارون دافيد غينتسبورغ — الذى لم يكن تلميذ روزن فحسب بل وتلميذ الفرنسى غيويار العالم بالعروض العربى — كان جامعا مشهوراً للمخطوطات ومحبا للكتب وصاحبا لمصانع تكرير السكر وللامتيازات التجارية.

ومع كل هذا وجد وقتاً كافياً لدراسة أشعار العرب واليهود . وفى أوراقه التى عرفت بعد موته توجد دراسة جاهزة تقريبا عن عروض أشعار ليرمونتوف* .
وكان يهتم فى جملة من اهتماماته العريضة بأسبانيا العربية. فقام فى برلين ، وبأمواله الخاصة ، بنشر نسخة فوتوغرافية من مخطوط ابن قزمان . وهكذا أصبح المخطوط فى متناول كل راغب فى دراسته . وقد أراد غينتسبورغ نفسه أن يكتب بحثا كبيراً متخصصا عن المخطوط . وأعد لهذا العمل خطة عريضة تتضح من عنوان ومقدمة هذا البحث ويمكنهما أن تكون — على حد تعبير أحد العلماء — برنامجا لحياة البشرية بأكملها . وبالطبع فإن هذه الخطة بقيت دون تنفيذ بسبب انجذابه الدائم نحو أعمال أخرى جديدة . ولكن نشر النسخة كان على كل حال خطوة كبيرة إلى الامام . ومنذ ذلك الوقت لم يرحل مخطوطنا إلى بلاد أجنبية : ذلك أن صورة أصل المخطوط التى نشرها غينتسبورغ جعلت المخطوط فى متناول جميع العلماء . على ان هذه الصورة نفسها سرعان ما صارت من الكتب النادرة .

ورويداً رويداً ابتدأ ابن قزمان يقف حيا أمام مواطنيه البعيدين : علماء أسبانيا . وبجهد وإصرار ابتدأ هؤلاء العلماء منذ العقود الأخيرة للقرن التاسع عشر يعملون لجوة للتشكيك فى الاستعراب الأسبانى . وكان انعدام ثقة المستشرقين فى الاستعراب الأسبانى نتيجة لما قام به كوندى وفضحه دوزى عليه . وفى النهاية جاءت أبحاث كل من كوديرا وريبيرا وحملت المستشرقين على العدول عن المبدأ الذى كان سائداً بينهم « لا تقرأوا بالأسبانية » .

واستطاع ريبيرا فى أعماله أن يعيد بجرأة بناء بعض الأغانى لابن قزمان وأن يعيد بناء كل الوضع الخارجى الذى نشأت فيه مضنيئا بذلك مهاد صورة شديدة التعقيد . ولم تكن استنتاجاته المملوءة بالحماسة خالية من الهوى أحيانا . ولذلك قابلها بعض العلماء بتشكك . وشاءت الأقدار ألا يهتم الغرب لنشاط ريبيرا الجدير طيلة نصف قرن إلا بعد العمل الذى قام به عالم روسى كان التلميذ الاصغر لروزن . وبدأ المتخصصون فى الدراسات الرومانية

---

* شاعر روسى كبير (١٨١٤ — ١٨٤١) .

يدركون أن ابن قزمان مهم لهم أيضا كما هو مهم للمستعربين . وكان هناك تلميذ آخر لروزن ومتخصص مشهور فى الدراســـات الأسبانية هو د . ك . بيتروف كان قد شـــغل فى آخر أيام حياته بمخطوط ابن قزمان . لكن سرعان ما انطفأ هذا النور قبل أوانه . أما الشكل العربى للديوان يعنى الحروف العربية فلا تعبر عن صوتياته إلى بصورة رديئة حالت أحياناً دون الدخول إلى معرفة قانون صوتيات وعروض الديوان . أيصبح الأمر أوضح إذا غير شكله إلى اللاتينى ؟. لقد نفذ هذا العمل فعلا عالم متخصص فى ناحيتين : فهو مستعرب من ناحية ومتخصص فى الدراسات الرومانية من ناحية أخرى . إنه التشيكى «نيكل» الذى كان وقتا طويلا أستاذا للغات الرومانية فى جامعات أمريكا الشمالية . وكان ظهور ديوان ابن قزمان فى الصورة اللاتينية مدعاة لاستجابات حية فى أوروبا وأمريكا . وأظهرت هذه الاستجابات أن محاولة نيكل وإن كانت تعتبر متسرعة سابقة لأوانها من ناحية النظرة العلمية الجدية ، قد حققت على كل حال غرضا بالغ الأهمية . وكانت طبعته هى المرحلة الثانية بعد غينتسبورغ فى خلق « أدوات العمل» على أزجال ابن قزمان .

وقد استمرت التأليفات عن ابن قزمان تنمو دونما توقف . وكان لا بد من تقديم ملخص عام عنها . وهناك فى المجلد التكميلى للطبعة العالمية « لدائرة المعارف الإسلامية » ، التى صدرت بثلاث لغات ، ظهرت المقالة الثانية عن ابن قزمان . والمقالة الأولى موجودة فى مجلد أساسى كان قد كتبها علامة ألمانى ، فى ذلك الوقت الذى بدأت فيه فقط دراسة ابن قزمان ، وظهر أن مؤلف المقالة الثانية هو رائد الاستشراق العلمى فى يوغوسلافيا بيرفترافيتش الذى كانت تتوحد فى استعداده جامعتا فينا والجزائر . ولا يقل دلالة أنه بعد ٦٠ سنة من مقالة روزن الفرنسية الأولى المتعلقة بالمخطوط ، ظهر بحث تحليلى دقيق عن بعض أشعار ابن قزمان . وكان كاتبه باللغـــة الفرنسية البليغة أويغو توولیو المستعرب الفلندى الموهوب والمتخصص فى الدرسات الرومانية . وطبعا فإن البحث الأساسى النهائى عن الشاعر القرطبى لا يزال طى المستقبل ، لكن العمل عن ابن قزمان يقف الآن على قدم ثابتة لا تتزعزع بفضل جهود كثير من العلماء من مختلف الأجيال عنها .

هناك فى إحدى لوحات العرض بالمعرض الدائم لقسم مخطوطات معهد

الاستشراق — وريث المتحف الآسيوى القديم — كان يوجد لمدة طويلة مخطوط متواضع بسيط بورق مائل إلى الصفرة وغلاف شرقى ردىء من الورق المقوى بألوان مختلفة انطفأت من تأثير أشعة الشمس ، وفى كل مرة كنت أمر فيها أمام المخطوط كنت أتوقف قريبا منه بشعور خاص يسيطر على : إن هذا الكتاب هو مخطوطنا الفريد المشهور لديوان ابن قزمان ! وبدا لى أن المخطوط يملك قوة جذابة بالنسبة للعلماء . فإن كثيراً منهم من تطلع باهتمام بل وسنوات طويلة فى هذه الأوراق المصفرة أو فى صورها الفوتوغرافية . ومن هؤلاء العلماء : الانجليز والفرنسيون والروس والهولنديون والاسبانيون والالمان . وكان أحيانا كل من اليهودى والتشيكى يحاولان فك رموز سطوره الملغزة باصرار لا يقل عن إصرار الصربى أو الفنلندى . إنها أممية العلم حتما يوحدها هدف واحد وبأى امتاع ترن كلمات العالم الفنلندى الأخيرة ، فى عمله عن ابن قزمان التى أملاها وهو على سرير المرض فى آخر أيام حياته أثنائه فترة قصيرة ما بين الحربين اللتين عذبتا وطنه الصغير : « أيها العمل السلمى العالمى ! ليتك تستطيع أن تستمر وتتصل بصرف النظر عن كل ما يهددك يوم بالدمار ! » Habent sua fata manuscripta — (إن المخطوطات أقدارها) فإن قوتها السحرية التى توحد العلماء الكثيرين فى اندفاع مشترك ، تطرد نهائياً فى يوم من الأيام أرواح الظلام الشريرة التى ترمى إلى التفرقة بين الناس والشعوب .

٣ — معاصر أول غزوة صليبية

(١٩١٩ — ١٩٢١)

فى أعوام ١٩١٨ — ١٩٢٠ كان المستعربون فى بيتروغراد يحيون حياة قاسية . وكانت المدينة بأسرها هامدة جائعة . وكان على المؤسسات العلمية أن تقطع أعمالها مع حلول ظلام المساء . وانزوت المحاضرات الجامعية عن الاستعراب فى أحد أركان المكتبة ، ولكن درجة الحرارة كانت هناك أيضاً لا تزيد عن ثلاث درجات مئوية . وأحيانا كان الحبر يتجمد . وقد تماسكت صحبة المستعربين الصغيرة على متانتها . إلا أن هذه الصحبة كانت حزينة على فراق أصدقائها :

ذلك أن أحسن مخطوطات المتحف الآسيوى انتقلت سنة ١٩١٧ إلى مدينة ساراتوف . وفى الوقت نفسه كانت كثيراً ما تعاودنى رغبة فى التطلع إلى صديق قديم من هذه المخطوطات ، وأن أتصفح أوراقه المألوفة لى ، وأن أتحقق من الفكرة التى تلألأت فى ذهنى لأول مرة .

وقد شعرت بكل هذا شعوراً قوياً عندما أسس مكسيم غوركى داراً لنشر « الآداب العالمية » . وتمكن المجمع الاستشراقى لهذا الدار من توحيد جميع المستشرقين الموجودين فى عمل جذاب ذى برنامج واسع لأول مرة . وكان قد أعد برنامج كبير من الكتب العربية التى يلزم ترجمتها . وفى الدور الأول جاء « كتاب الاعتبار » وهو ذكريات الأمير السورى أسامة بن منقذ (١٠٩٥ — ١١٨٨) ، معاصر الغزوات الصليبية الأولى . ولأول مرة كان على القراء الروس أن يتعرفوا مع صورة حية لكل ذلك العصر ، صورت بأسلوب بسيط حى فى ذكريات ابن منقذ ذلك الكاتب القصاص القديم والفارس الصياد .

وفى مراجعتى لترجمة ابن منقذ وإعدادى لمقدمتها ، فكرت من جديد فى المؤلفات الأخرى لذلك الأمير الأديب . وكان قد كتب عن هذه المؤلفات أكثر من مرة . لكننى رأيت بدهشة كبيرة أنه لم يوجد من وجه اهتمامه إلى مقالات فرين القديمة التى كتبها فى العقد الثالث من القرن الماضى . وكان فرين قد أشار إشارة خاطفة عابرة إلى مؤلف بخط شخصى لأسامة بن منقذ هو « كتاب المنازل والديار » المخزون فى المتحف الآسيوى وقد وجدت هذه الإشارة صدفة أيضاً فى بحث خليفة فرين وأعنى به دورن المدير الثانى للمتحف الآسيوى . وإننى أعترف بأننى لم أصدقه للتو فى هذه الإشارة . فقد بدا لى أن ذلك أمر أقرب إلى الاستحالة . ذلك لأن العلم الأوروبى وبخاصة المستشرق الفرنسى ديرانبور الذى قضى نصف حياته تقريباً فى دراسة أسامة ، لم يعرف شيئاً عن هذا المخطوط الذى كتب بخط يد فارسه — أسامة . وبالطبع فإن مكانة فرين العلمية كانت ضخمة جداً . وعلى هـــذا كان من الواجب الاستماع إليه حتى فى ملاحظاته العرضية . على أن فرين كان يكتب منذ أكثر من مائة عام وفى ذلك الوقت لم تكن تعرف أى مؤلفات أخرى لأسامة بن منقذ ، وكان من الممكن أن يخطىء ويخلط

بين هذا المؤلف لأسامة وبين مؤلف آخر له كان معروفا قليلا في ذلك الوقت . لكن كيف استطاع فرين أن يحدد أن هذا المخطوط هو بخط شخصي المؤلف ؟ لقد حاولت دونما فائدة أن أجد أية اشارة في مصادر ومراجع أخرى يمكن أن تجيب عن هذا السؤال فلم أحصل على شيء ، وبدون فائدة اذن كان تحطيم رأسي من أجل هذا العمل في ليالي الشتاء القاسية لعام ١٩٢٠ عندما كنت أقف على حراسة بوابة المنزل .

لم تعد المخطوطات ثانية إلى منزلها إلا في صيف ١٩٢١ . ولعل أول ما خطر لي من أفكار في ذلك الوقت ، عندما كنا نفك أربطة هذه المخطوطات ، هي عن المخطوط الذي كتبه أسامة بخط يده . وحملت صناديق المخطوطات إلى البناء القديم للمتحف الآسيوي المألوف بهيئة إدارته الصغيرة آنذاك . ومن جديد ، وكما هي الحال في كل مرة ، ارتعشت يداي عندما وقعتا على مجلد ضخم نسبياً برموز مكتبية ضرورية . وتملكني الرعب من فتح هذا المجلد : فقد فكرت رغم تشككي — « لعلني سأرى حقاً داخل هذا المجلد سطوراً كتبت في حياة صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد بيد معاصرهما الشريف صديق الأول وعدو الثاني! » إلا أن أول انطباع عن هـذا المجلد كان مخيباً للأمل . فجلده الأسود غير جميل وعديم الذوق وربما لا يرجع قدمه إلى أكثر من صاحبه الأخير الذي كان لديه قبل أن يصل إلى المتحف الآسيوي وأعني به الفرنسي روسو الذي عاش في بداية القرن التاسع عشر . وفي النهاية وبإرادة متوترة حملت نفسي على فتح هذا الكتاب ذي الجلد الأسود . وتبعاً لرد الفعل العادي لدى المتخصص في المخطوطات فإنني أخذت في هـذه المرة أتطلع في نهاية المخطوط وبدايته بعطش شديد . وكانت خيبة الأمل أكبر . فقد ظهر أن المخطوط ناقص في بدايته ونهايته . ذلك أن نهايته كانت غير موجودة وبدايته معاد كتابتها في فترة متأخرة جداً عن كتابة الجزء الأساسي . وهي مكتوبة بخط آخر وعلى أوراق جديدة . وبالرغم من أننا نعلم جيداً أن المخطوطات تضيع منها في الواقع أوراقها الأولى والأخيرة بصفة خاصة — وذلك تبعاً لنظام خزنها في وضع منسطح وهو المتبع في الشرق وليس في وضع قائم كما هو متبع لدينا — فإن تحقيق المخطوط يقتضي دائماً التساؤل عن أصالته . وكثيراً ما كان يحدث أن مالك المخطوط أو أي تاجر للآثار القديمة

يقوم بتقليد بداية ونهاية المخطوط حتى يعطى له شكلا أكثر قدما أو ينسبه إلى أى مؤلف مشهور . وقد مررت مروراً سريعاً — بحزن وتشكك — على السطور الأولى المخطوط المعاد كتابتها وفيها : « قال أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى غفر الله ... » . وقد كان الوضع القائم لنفس هذه السطور المكتوبة بخط مغاير ، غير باعث على اقناعى . وتساءلت من جديد : لماذا قرر فرين أن هذه النسخة هى بالخط الشخصى للمؤلف .

على أننى عندما فتحت المخطوط من منتصفه بلا أمل أو رجاء معين شعرت فجأة بأن خيبة أملى قد اعتراها الضعف والشحوب وأخذت أتصفحه وأنا تحت سيطرة مد انفعالى جديد ذلك أننى وجدت أن أوراقه وكتابته حسب الشكل الخارجى ، يمكن أن ترجع إلى القرن الثانى عشر . وأحسست بثقة فى يد ذلك الإنسان الذى يبدو أنه تعود كثرة الكتابة وصار واضحاً من نظام حركات الإعراب وربط بعض الحروف ببعضها أن هذا الكاتب ليس خطاطاً مهنياً بل أديباً عالما . والانطباع الذى ولده المخطوط هو انطباع الدقة والجمال العظيم الخاص به . وأخذت أتطلع فيه باهتمام أكبر ، وفجأة شعرت بانفعال مألوف لى يصحب شرارة اشتعلت فجأة هى شرارة الاكتشاف العفوى . فقد بدا لى أن هناك رعشة يد عجوزة فى كتابتها لبعض الحروف . فإذا كان هذا حقيقة خطاً شخصياً لمؤلفه أسامة فهل كتبه — ياترى — بعد أن أصبح عجوزاً ؟

ومن جديد رجعت إلى المقدمة لا تحقق من وجود أى تلميحات عن سبب تأليف المخطوط أو إشارات إلى التواريخ . فالمؤلف لم يكن يمت بأى صلة للأدب الجغرافى الأمر الذى كان من الممكن افتراضه من عنوان المخطوط . وتبدأ المقدمة بالحمد والثناء التقليدى على الله ورسوله محمد ومن عبارتها المقتضبة المسجوعة أحسست بعنصر شخصى لمع من بين هذه الاشكال اللغوية التقليدية . وعندما انتقلت إلى جوهر موضوع المخطوط اهتديت على الفور إلى خيط المؤلف . فقد كتب المؤلف فى جمل قصيرة مصاغة بأسلوب بلاغى رفيع ، ترن بالأسى واللوعة : « ... فإنى دعانى إلى جمع هذا الكتاب ما نال بلادى وأوطانى من الخراب . فإن

الزمان جر عليها ذيله ، وصرف إلى تعفيتها حوله وحيله . . . قد دثر عمرانها ، وهلك سكانها فعادت مغانيها رسوما والمسرات بها حسرات وهموما ولقد وقفت عليها بعد ما أصابها من الزلازل ما أصابها . . . فما عرفت دارى ، ولا دور والدى ، وإخوتى ، ولا دور أعمامى وبنى عمى وأسرتى فبهت متحيراً مستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ماخوله من نعمائه . ثم انصرفت فلا أبثك خيبتى رعش القيـــام أميس ميس الأصور وقد عظمت الرزية حتى غاضت بوادر الدموع وتتابعت الزفرات حتى أقامت حنايا الضلوع . وما اقتصرت حوادث الزمان على خراب الديار دون هلاك السكان بل كان هلاكهم أجمع ، كارتداد الطرف أو أسرع . ثم استمرت النكبات تترى من ذلك الحين وهلم جرا فاسترحت إلى جمع هذا الكتاب فجعلته بكاء للدار والاحباب وذلك لايفيد ولا يجدى ولكنه مبلغ جهدى وإلى الله عز وجل أشكو ما لقيت من زمانى ، وانفرادى من أهلى وإخوانى واغترابى عن بلادى وأوطانى » .

وكان التلميح على الزلازل بمثابة شعاع ساطع أضاء أمـــام عيونى على الفور تاريخ الكتاب . فنى آب (أغسطس) ١١٥٧ ثارت الطبيعة ثورة عارمة اجتاحت كل شمال سوريا ودمرت ثلاثين مدينة كبيرة من بينها مدينة شيزر موطن أسامة بن منقذ . وكان أقاربه جميعا موجودين فى قصر أحدهم فى احتفال عائلى . وهلكوا جميعهم تحت الأنقاض . واتضح لى أن المقدمة لا تعكس هكذا ببساطة صوراً بلاغية بل حدثا واقعيا . ولاشك فى أن مؤلف الكتاب هوأسامة بن منقذ الذى صدمت نفسه بفاجعة كبرى خلقت وراءها آثاراً أبدية لا تمحى . لكن إذا كان هـذا الكتاب حقيقة بخط أسامة نفسه فمتى إذن كتبه ؟ فى عام ١١٥٧ كان عمر أسامة ٦٢ عاما وهى سن كبيرة ؛ إلا أنها لا تعتبر هرما كبيرا لمن عاش ثلاثة وتسعين عاما عندما ترتعش اليد فى الكتابة .

وقد أعطانى المخطوط الإجابة على هذا السؤال وذلك بفضل التقاليد الطيبة عند محبى الكتب من العرب الذين تعودوا كتابة ملاحظات فى بداية ونهاية الكتب التى وقعت فى حوزتهم . وإحدى هذه الملاحظات على الصفحة الأولى

للمخطوط ترجع إلى أديب دمشقي مشهور عاش فى نهاية القرن السادس عشر . ووضح منها أن الصفحة الأخيرة من المخطوط كانت موجودة فى ذلك الحين وأنه كتب عليها بيد أسامة بالذات أنه قد فرغ من كتابة المخطوط فى حصن كيفا فى جمادى الأولى ٥٦٨ (أى كانون الأول — ديسمبر ١١٧٢) . ومن جديد أضاء لنا تقاطع هـــذا الشعاع مع الشعاع السابق ، إحدى فترات تاريخ حياة أسامة . ذلك أنه كان مدة عشر سنوات من حياته (من ١١٦٤ إلى ١١٧٤) ضيفاً على أحد الأمراء فى حصن كيفا على نهر دجلة غير بعيد عن ديار بكر . وكان الكبر قد أخذ منه كل مأخذ . وفى هذه الفترة من تاريخ حياته ، قلما سمع عن اشتغاله بالمعارك والقنص وإنما كان أكثر ما يسمع عنه هو اشتغاله بالأدب . وينتسب إلى هذا الوقت جزء من تاريخ حياته . ففى هذا الوقت نفسه ، سنة ١١٧٢ قام بكتابة المخطوط الذى طالما أثارنى . وكان له من العمر آنذاك ٧٧ عاماً ، وإذن فمن المستبعد أن أكون قد خضعت لإيحائى الذاتى فى تفسير الرعشة الموجودة فى كتابة بعض الحروف .

عاش أسامة آخر أعوام حياته فى دمشق يشاهد مآثر صلاح الدين متذكراً أيام شبابه هو . وأغلب الظن أنه حمل فيما حمل إلى دمشق مكتبة من حصن كيفا كما فعل منذ أعوام كثيرة عندما رحل من مصر إلى سوريا . إلا أن تلك المكتبة التى حملها من مصر تلفت إذ ذاك مع جميع أملاكه فى البحر الأبيض المتوسط . ويذكر أسامة أن تلف الكتب وحده ظل فى قلبه جرحا لم يندمل مدى الحياة . لكن رحلته من حصن كيفا إلى دمشق تمت بسلام . ومن هنا ظهر فى دمشق مخطوط بخط شخصى لأسامة هو « كتاب المنازل والديار » .

فى نهاية القرن السادس عشر كان هذا المخطوط هناك فى سوريا كاملا تماماً . إلا أن الحاشية التى كتبت فى النصف الثانى من القرن السابع عشر تشير إلى أن آخر أوراقه قد فقدت . وفى القرن الثامن عشر وقع هذا المخطوط فى مركز آخر من مراكز الأدب العربى فى ذلك الوقت وأعنى به حلب ، وهو ما يشير إليه حاشية أخرى ، كتبها عام ١٨١٠ مالك جديد للمخطوط هو شاعر حلبى وشخصية اجتماعية . وكان صديقا لروسو الفرنسى المعروف لنا ؛ وربما كان هذا الشاعر

قد أهدى المخطوط نفسه إلى روسو . ثم وجد المخطوط لنفسه طريقاً إلى المتحف الآسيوى ضمن المجموعة الثانية لروسو فى عام ١٨٢٥

وقد حاولت بظمأ المحموم أن أفهم كل تلك الحواشى التى كتبت بخط جميل تارة وبصورة سريعة تارة أخرى والتى وضعت بالأسلوب الشعرى طوراً وبأخطاء كثيرة طوراً آخر . وتداعى فكرى عفوياً ، فتذكرت كيف أن فرين نظر قبلى بمائة عام فى هذه الحواشى باهتمام مماثل لما أوليته إياها . والآن أصبح واضحاً لى تماماً خط سير أفكاره الذى كشف عن أن هذا المخطوط كتب بخط الأمير أسامة . وكانت إشارة فرين إلى كشف المخطوط بدون أى تهليل ، بل أشار إلى ذلك بتواضع وفى سطرين صغيرين فى فهرس غير مطبوع. وكانت إشارته الأخرى فى مقالة صحفية اختفت . وقد ظل الاستعراب الأوربى مدة مائة عام لا يعرف شيئا عن هذا الاكتشاف . وكان المتحف الآسيوى القديم — الذى خزن بعناية هذا المخطوط الفريد — شاهدا على هذا الكشف الثانى للمخطوط فى حياة الجيل الرابع من العلماء بعد فرين . والآن حملت موجة جديدة للاستعراب إلى بحر العلم الزاخر ، معلومات عن هذا المخطوط . وقد تدعمت هذه المعلومات فى « دائرة المعارف الإسلامية » وفى كتاب بروكلمان الذى يفوق كل تقدير والآن، كيف لا يرد مرة أخرى ذكر الحقيقة القديمة القائلة بأن « للكتب أقدارها » ؟ والواقع أن هذا القدر لا يبدو هكذا واضحا فى كل مراحله بمثل ما بدا فى مراحل هذا المخطوط الناقص فى بدايته ونهايته والذى ظهر أنه كتب بخط الأمير السورى معاصر أول غزوة صليبية .

٤ — ربان فاسكو دى جاما

إن الاشتغال بدراسة المخطوطات يحمل فى ثناياه السرور والحزن معا ، شأنه فى ذلك شأن أى شىء فى الحياة . إلا أن المخطوطات غيورة : فهى تطمع دائما فى أن تستحوز على كل اهتمام الإنسان . وعندئذ فقط ، تعرض أسرارها وتكشف عن روحها وروح أولئك الناس الذين كانت مرتبطة بهم . أما المتطلع العابر فإنها تظل خرساء لا تنبىء عن شىء . وهى كأزهار « الست المستحية » ،

تقفل أوراقها عندما تلمس بدون حذر . وهى لا تفضى بشىء إلى من يتطلع اليها بنظرة موحشة ملولة . وبالتالى لا يرى أى شىء فيها ، اللهم إلا تلك السطور المتشابهة غير الواضحة والتى تكون عادة على ورق ردىء رخيص يحتويها جلد بال ممزق .

ولكن المتخصص فى دراسة المخطوطات ، تظهر له أفراح الأعياد أيضاً عندما يتلألأ أمامه أى اكتشاف يلمع فى البداية كشرارة صغيرة . بل يظل المتخصص متوجسا خيفة أن تكون هذه الشرارة ليست إلا خداع بصر . وعندما يغمر الاكتشاف كل شىء بشعاعه الساطع لا يبقى هناك مجال للشك أو التردد . لكن لما كانت كل دقيقة من البناء العلمى تحتاج لسنوات من التحليل فإن هذه الأعياد لا تكون إلا مكافأة على ذلك العمل اليومى الطويل الذى انقضى فى التطلع بدقة واهتمام فى عشرات ومئات النسخ المملة المتشابهة لمخطوطات قد تكون من النوع الثانى أو حتى من النوع الثالث . وقد يتولد لديك تحامل شخصى ضد بعضها ، وقد تتناولها فى يدك بتنهدات عندما يدركها الدور ، أو عندما يسوقها اليك القدر بالمصادفة .

وتنتمى إلى مثل هذه المجموعة من المخطوطات — التى هى أشبه بابن زوجتك — مجموعات تتضمن مؤلفات كثيرة ، ومعظمها مقالات تقليدية تعليمية كان كل دارس نشيط قد قام بجمعها لنفسه فى كراسة عامة شاملة . وهذه المجموعات تتكرر وتتردد بكميات لا تتشابه مع بعضها ولا تختلف إحداها عن الأخرى إلا قليلا . ومنذ عصور سابقة رسخت قوانين ثابتة فى كل علم سواء فى النحو أو فى الفقه أو فى المنطق أو فى الحساب ، ولم تتغير تقريباً ، ومن هنا فان هذه الكراسات لا تختلف عن بعضها إلا من ناحية الحجم ومن ناحية مستوى الدقة الكبير أو الصغير للطالب الذى قام بجمعها .

ومن حسن الحظ ، وإن كان هذا نادراً ، أنه كان هناك أحياناً مجموعات ذات طابع آخر يبدو أنها مؤلفة حسب الموضوعات وقد استهدف فيها المتخصص بجمع المؤلفات اللازمة له . ومن هذا النوع ما قام به أحد أطباء العيون العرب فى القدس

فى منتصف القرن الثانى عشر إذ ألف مجموعة من عشر مؤلفات علمية لفائدته الشخصية، تختص بطب العيون من ناحية تشريحها ، ووظائف أعضائها ، وأمراضها ، مع صور ورسوم مختلفة . وكان هذا الطبيب نفسه علامة كبيرا وظهر أن مخطوطه جد قيم وثمين وعندما وقع هذا المخطوط الرائع فى المتحف الآسيوى ضمن مجموعة البطريرك غريغوريوس أحدث ضجة لا فى أوروبا فحسب بل وفى البلاد العربية. وقد قامت كلية الطب بجامعة القاهرة بطبع بعض مقالاته كان قد أعدها م. ميرهوف، أحسن العارفين فى هذا الموضوع ، والعالم المؤرخ فى ميدان العلم ، الذى عاش فى مصر منذ زمن بعيد .

وتظهر أحيانا قيمة تلك المجموعات التى كان من الصعب أن نجد فيها محوراً محدداً والتى جمعها ، مع ذلك ، هاو ومحب ذو معرفة وذوق جميل . وبهذا الصدد تجدر الإشارة إلى مخطوط من مدينة قازان يتضمن بعض مقطوعات من مراسلات أبى على بن سينا وكلمات الملحد الحلاج الذى صلب فى القرن العاشر . ويتضمن أيضا المقالة الفريدة المجهولة حتى الآن عن لعبة الشطرنج . كل هذا جمع فى نسخة دقيقة جداً يبدو منها أن جامعها خبير ومحب للكتب .

لكن كان من النادر جداً التصادف مع مثل هذه المجموعة وعلى وجه العموم يمكن اعتبار هذه المجموعات قليلة الأهمية والباحث لايتناول هذه المخطوطات عادة إلا بحكم وظيفته وما أن يأخذها حتى يحاول بأسرع مايمكن أن يطلق سراحها ويتخلص منها ومن هذا العمل المتعب قليل النتيجة . ويهبط المستوى المزاجى أكثر من ذلك عندما يجىء الدور على مخطوطات تتضمن مقالات بلغات مختلطة أكثرها بالعربية والفارسية أو بالعربية والتركية . ومع تخصص العلم فى أيامنا كان من النادر أن يقوم بوصفها شخص واحد . وأن وجود أجزاء تركية فى المجموعة ، يظهر للمستعرب أن المقالات العربية هى من فترة متأخرة وهذا يعنى أنه لا يوجد بها غالباً أى شىء يمتع من الفترة الكلاسيكية المزدهرة فى الأدب العربى . وكان المستشرق فى الدراسات التركية ، ينظر بدون إرتياح إلى الأجزاء العربية فى المخطوط ، وكان يفترض أن الأجزاء التركية ما هى إلا شرح لها أو تعليق عليها . وهذا ما كان يوجد مراراً فى « مخطوطات الكراسات العامة » . وهكذا بقيت

هذه المجموعة المسكينة مدة سنوات طويلة «كالصفر» لا تنتمى فى تبعيتها إلى أحد. ولو اتفق لأى متخصص أن لقى هذه المجموعة على طريقة ابتعد عنها متفاديا إياها. ولكن المجموعات تتطلب هى أيضا قدراً كبيراً من الاهتمام. فالمخطوطات تكون أحيانا غدارة وتود أن تثأر لنفسها على نحو غير متوقع ، من جراء إهمالها. وبهذا الصدد أريد أن أتحدث عن واقعة حدثت معى.

كنت فى بداية عملى فى المتحف الآسيوى أحلم أكثر من مرة بمواصلة ما قام به روزن من وصف مجموعات المخطوطات القديمة. وقد تناولت بيدى مجموعة عربية تركية لم تجذب انتباه أى شخص من قبل. وكانت هناك فى الفهرس ملاحظة خطية عن هذه المجموعة لا يعرف كاتبها ، وهذه الملاحظة قليلة الأهمية. وكانت الأجزاء التركية تحتل مركز الصدارة فى المجموعة وهى مكتوبة بخط جميل يمكن أن يرجع إلى أوائل القرن السادس عشر ، أى إلى فترة تعتبر قديمة من وجهة نظر المستشرق فى الدراسات التركية. وقد استطاع مضمون هذه الأجزاء أن يحمل ما هو ممتع. فهناك مقالة مجهولة عن الموسيقى. وقد استطاعت هذه المقالة بعد أبحاث فارمر أن تحصل على مكانها فى العلم. وهناك أيضا صورة أخرى لقصة رومانتيكية حزينة عن سلطان جم ، ومن المحتمل أن تكون هذه الصورة من عصر قديم نسبياً. والسلطان جم هو ابن محمد الغازى. وكان قد أراد بعد موت أبيه أن يجلس على سرير الملك ، لكن أخاه بايزيد الثانى تمكن من هزيمته ففر أولا إلى مصر إلى السلطان المملوكى قايتباى. ثم حاول مرة أخرى أن يسيطر على الدولة العثمانية من شمال سوريا لكنه فشل ثانية ، فهرب إلى جزيرة رودس عام ١٤٨٢. إلا أن رئيس الفرقة الدينية العسكرية المعروفة بفرسان القديس يوحنا خشى من التأزم السياسى فأرسله من رودس إلى فرنسا أولا ثم سلمه بعد ذلك إلى البابا. ووضع السلطان جم فى الأسر بناء على رغبة أخيه بايزيد الثانى الذى قدم فى سبيل ذلك مبلغا من المال. وفى آخر الأمر مات السلطان جم مسموما عام ١٤٩٥. وربما كان دس السم له بناء على رغبة أخيه أو بناء على رغبة مجهولة للبابا الاسكندر السادس. وبعد أربعة أعوام حمل جثمانه إلى مدينة بروسا حيث دفن هناك. والمخطوط الذى يتحدث عن مصيره ، قريب ، على ما يبدو من هذا الحدث. ولعل فيه متعة للمستشرقين فى الدراسات التركية.

أما الأجزاء العربية فقد بدا لى أنها أقل أهمية وكانت مكتوبة بيد أخرى وبخط غير دقيق . وتمثل هذه الأجزاء بصورة رئيسية ثلاث أراجيز من أشعار شخص يدعى أحمد بن ماجد . وهي كما بدت لى وصف جاف جداً لطرق بحرية قرب جزيرة العرب . ولم أستطع أن أحدد شخصية المؤلف ، ولم يساعدنى فى ذلك بروكلمان أو حاجى خليفة وهما اللذان نستعين بهما فى مثل هذه الأحوال . ولم أكن مصراً على ضرورة تحديد أو معرفة شخصية مؤلف هذه الأشعار . ذلك أن الانطباع الذى تركته فى نفسى هو أنها مجرد حشد مجموعة أسماء من أجل غرض تعليمى غير واضح . وقد تناولت هذه المجموعة من المخطوطات فى يدى عدة مرات إلا أن عملية وصفها لم تسر إلى الأمام .

ومع اقتراب منتصف العقد الثالث ، أخذت علاقاتنا الخارجية تتجدد رويداً رويداً . وابتدأت الكتب تأتى من الشرق والغرب لتسد تدريجياً ذلك الفراغ الكبير الذى سببته الحرب . وكنت أنا نفسى لا أعرف أحيانا أى خرق فى معرفتى يلزم الاسراع برقعه . فقد حملت هذه الكتب معلومات كثيرة ممتعة . فانقضضت على الكتب المصرية بسرور عظيم وآمنت بأن القصة والمأساة العربية (الدراما) — وهما لم تكونا موجودتين من قبل تقريباً — قد استطاعتا أن تنموا خلال تلك السنوات الانقطاعية فى فترة الحرب . وانقضت أيضاً على الاستعراب الاوروبى والتهمت كتبه الجديدة بنصوصها القديمة (الكلاسيكية) ومقالاته عن الاكتشافات الجديدة . وقرأتها بسرعة وأمتعتنى منها فنية المستشرق الفرنسى فران Ferrand فى بنائه لفصل ممتع — كان مجهولا من قبل — عن الجغرافية البحرية فى القرن ١٥ . وقد تمكن ذلك بفضل معرفته بلغات الشرقين الأدنى والأقصى وباللغات الهندية ولغة الملايو وقد أدى ربطه بين الأصول الشرقية والغربية إلى نتائج ثابتة . وابتدأت تتضح له معالم الربان العربى لفاسكو دى غاما . وقد كان معروفاً منذ زمن بعيد أن رباناً من العرب كان يصاحب فاسكو دى غاما فى رحلته الأولى من ملندى إلى كلكتا عام ١٤٩٨ . لكن الأصول البرتغالية تردد أسماء غير واضحة لهذا الربان مثل « ماليمو كانا كا » أو « عربى من الكجرات » . وعندما ربط فران بين هذه المعلومات البرتغالية وبين المعلومات العربية والتركية استطاع آنذاك أن يحدد الاسم العربى الحقيقى لهذا الربان وأن يوضح مسقط رأسه . وإلى جانب هذا أمكن

اكتشاف مؤلفات شخصية لهذا الربان نفسه فى المكتبة الوطنية بباريس فى تلك الفترة التى انقطعت فيها الصلة بين علمائنا وبين العلم فى الخارج . ولم يكن هذا الربان البحرى على معرفة بالناحية العلمية فحسب بل وبالناحية النظرية أيضاً . وعلت وجهى ابتسامة ساخرة نوعاً عندما قرأت أن مؤلفات الربان البحرى هذه ظلت ملقاة فى المكتبة الوطنية ، غير معروفة حتى عام ١٩١٢ مع أن إحدى مخطوطاته كانت موجودة هناك منذ العقد السادس للقرن التاسع عشر .

وفى هذه اللحظة بالذات شعرت بحمرة الخجل تصعد إلى وجهى . آه ، أحمد بن ماجد ! إن هذا الاسم هو اسم مؤلف الأراجيز الثلاث التى توجد فى تلك المجموعة التى تناولتها يدى مراراً بنظرة تضجر وسأم ! وبشعور تلميذ مذنب أو ربما بشعور جرو مضروب تناولت فى يدى من جديد مخطوط الأراجيز الثلاث الذى سخر منى شامتاً من تعالى عليه وإهمالى اياه . ولم يكن هناك أى احتمال للشك . فالأراجيز من ناحية الشكل والمضمون مشابهة تماماً لتلك الأراجيز التى اكتشفها زميل فران فى باريس . وبالطبع فإن هذه الأراجيز التى كانت فى يدى آنذاك ليست بخط هذا الربان المشهور نفسه ولكن ، حسب كل احتمال ، يمكن أن تكون هذه النسخة قد كتبت فى وقت قريب منه . والأراجيز الثلاثة جميعها عبارة عن وصف لطرق بحرية مع إشارة إلى مراحلها المختلفة وبعض المعلومات العامة عن الطرق . وتتعلق أولاها بالابحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالابحار عن طريق المحيط الهندى والثالثة وصف الطريق من هذا المحيط إلى أفريقيا الشرقية. ولما كانت هذه الأراجيز غير موجودة فى مخطوطات المكتبة الوطنية ، أسرعت بالكتابة إلى فران طالباً منه أن يخبرنى عما إذا كان يعرف أى مصدر آخر يتضمنها . وكان جوابه بالنفى ، ورأيه فيها أنها فريدة . على أن دراسة وتحليل هذه الأراجيز دون إعداد سابق لها لم تكن عملية ليست سهلة أو بسيطة . ورغم كل ما كان لدى من رغبة فقد صرفتنى عنها فى ذلك الوقت واجبات أخرى فلم أستطع القيام بهذا العمل ، اللهم إلا فى كلمة لى بالجمعية الجغرافية عرضت فيها على الشاشة صورة من الصفحة الأولى لاحدى هذه الأراجيز . وقد استمتع بحارتنا بمشاهدة هذه الصورة وحازت إعجابهم . ثم أن فران أخذ على عاتقه تنفيذ اقتراحى بالعمل على تحقيق هذا المخطوط واعداده للنشر . ولم أدر ما إذا كان قد استطاع أن يبدأ

العمل فيه فعلا أو لا . ذلك أنه بعد ذلك بفترة قصيرة وصلنى عام ١٩٢٨ خبر قصير مطبوع — بحسب تلك العادة الغربية الحسنة — يفيدنى بوفاته . وكان لا يوجد فى فرنسا من يواصل هذا العمل من بعده . ومن جديد بقى هامداً على الرف مخطوطنا عن الطرق البحرية الثلاثة لربان فاسكو دى غاما .

إلا أنه بعد عدة أعوام ظهر لى تلميذ موهوب أظهر تحمسا ذاتياً نحو الجغرافيا والخرائط العربية . وتعرف بسرور كبير على هذه الأراجيز البحرية وقدر أهميتها حق قدرها وكنت أشاهد بعين الرضا كيف أنه تغلب بإصرار على صعوبات المصطلحات وكيف أنه باصرار أيضاً أوجد تحديداً للمسميات الجغرافية . وأنبأ حماسه الذى لم يعرف الوهن عن نتائج حسنة . وكنت أراه ينمو أمام عينى . لكن القدر لم يمهله ، وحطم عمله العلمى فى أول بدايته .

وهكذا ظلت هذه المجموعة الرائعة تنتظر دراستها وتحقيقها . ولكن الشيخوخة أصابت يدى بالوهن شيئاً فشيئاً ، ولم تعد تستطيع بالتالى تناول أى شىء أو الدنو منه . ولا يسعنى إلا أن أردد عبارة ذلك الموسيقى حين قال : « كان فى رأسى أيام الشباب ألحان كثيرة لكننى لم أملك أن أسطرها والآن أستطيع بسهولة أن أسطر لكن لا أعرف أى لحن أختار » . ومع ذلك كان يتملكنى أحيانا حتى فى ليالى السهد حلم وأمل . « ألا ليت خمسة من المستعربين من مختلف التخصصات والاتجاهات يجتمعون من أجل وصف المخطوطات ! عندئذ لأمكن أن تقسم مجموعات مخطوطاتنا بحسب نظامها الموضوعى . ولأمكن ، فى مدة لا تتجاوز عمر الإنسان ، وضع فهرس كامل يحمل إلى المجال العلمى مادة هائلة ومهمة . وعندئذ لما قدر لمخطوط أراجيز ربان فاسكو دى غاما أن ينتظر مائة عام أخرى حتى يثير اهتمام شخص ما فيعمل على نشره » . لكن ويحك ! إن المثل العربى الشعبى يقول . « كلمة ياريت ما تعمر بيت » .

على أنه فى عام ١٩٤٨ أسعدنى القدر بعض الاسعاد . ففى كلية الاستشراق بجامعتنا نوقشت رسالة لدرجة المرشح فى العلوم كانت قد بدأت بجد فى بحث ودراسة أراجيزنا واعدادها للنشر » .

---

* نشرت فى سنة ١٩٥٧ فى موسكو بتحقيق تيودور شوموفسكى ، ذلك الـ « تلميذ الموهوب » لكراتشكوفسكى .

٥ — فى المكتبة الجامعية

١ — المكتبة وأمناؤها

(١٩٠١ — ١٩٣٠)

من وراء الحائط ... عبر نافذه صغيرة ... من حجرة المستخدمين ، وصل إلى مسمعى صوتان . وفى هدوء الليل بالمكتبة تمكنت من تمييزهما جيدا . أما الصوت الأول فهو للاستونى أر اللاتنى ايفان الذى لقبته منذ زمن بعيد بالمتفائل . وأما الصوت الثانى فهد صوت جهورى أجش لشخصية جديرة بنفس القدر فى المكتبة هى شخصية بيوتر ، كان الوقت يقترب من التاسعة ، موعد اغلاق المكتبة ، وعندها ينتهى عملهما الليلى . وقد كانا — وهما الصديقان القديمان المتجادلان دائماً — يتحادثان فى هدوء وسلام كما هى العادة عن الموضوعات المكتبية التى لا حياة لها خارجها منذ أكثر من عشرين عاما .

وكان الحديث العرضى يعكس بوضوح طبع كل منهما : وبصرف النظر عن صداقتهما فإن أحدهما لا يشبه الآخر فى شىء . فايفان « المتفائل » قصير القامة ، سريع الحركة ، ذو شعر مائل إلى الصفرة ، هاش باش دائماً . كثير الكلام وخاصة عندما يكون تحت تأثير خفيف من الكحول ، الأمر الذى كان يحدث معه مرارا . كان يعتبر عمل كل واحد من العلماء الوافدين إلى المكتبة كباراً وصغاراً عمله هو ، وتراه بدون تعب يحمل الكتب اللازمة لهم من أعلى ومن أسفل . وكان يفعل ذلك دون اللجوء إلى مساعدة أمناء المكتبة أو إلى فهارسها . فهو يعرف الحروف اللاتينية جيدا ويعرف اللغة الألمانية إلى حد ما ، ومكنه ذلك من الاعتماد على ذاكرته فى معرفة أماكن مختلف « محاضر الجلسات » بما فى ذلك المحاضر الخاصة بمجمع فيينا العلمى ومجامع علمية أخرى . ولم يكن يعترف بالدرجات أو الرتب . وكان يقدر الناس على حسب علاقتهم بالكتب وعدد مرات زيارتهم للمكتبة . فذات مرة عندما كان فى الطبقة السفلى المكتبة دخل الأستاذ ف. ف. مارتينس النجم اللامع فى القانون الدولى الذى كان مراراً

رئيسا لمحكمة العدل الدولية بلاهاى ، فوجهه ايفان إلى مدير المكتبة قائلا له وهو فى طريقه : « هنا فى الطبقة السفلى ، لا يوجد أى عمل لكم . فهنا يشتغل العلماء » . وإلى جانب هذا ، كان ايفان يستلطف بعض الأشخاص سواء كانوا من بين مساعدى الأساتذة الشباب أو من بين الذين أنهوا الجامعة وأبقوا للعمل فيها . وعندما كان المستلطفون يظهرون فى القاعات الداخلية الكتبة ، يقوم ايفان بمساعدتهم بصورة لا تقل عن مساعدة أى أمين من أمناء المكتبة ، ويقدم لهم دون تقتير شايا بالسكر من الشاى « المخصص رسمياً » لموظفى المكتبة . على أنه يجدر القول بأنه نادراً ما كانت تخطىء عيناه ، فقد لاحظ موهوبين كثيرين فى عصره قبل أن يعترف بهم العلم الرسمى .

أما بيوتر « المتشائم » ، فهو لا يشبه زميله . فهو طويل القامة ، نحيف ، يخالط شعره المشيب . ما زال يحتفظ ببعض عاداته العسكرية ، فهو صارم دائماً ، لا يكثر من الكلام . ومع ذلك فهو الآخر يعرف المكتبة جيداً من قديم ، وهو مهذب وخدوم . إلا أن المرء كان يخجل من أن يتوجه إليه بطلب مفضلا أن ينتظر حتى ينزل ايفان من الطبقة العليا . وايفان عزب أما بيوتر فأرمل ، وكما يقال أنه ابتدأ يشرب الخمر منذ وقت ترمله ، لكن لم يكن أحد يراه سكران فى المكتبة : فهو لا يشرب إلا عشية الأعياد ، وفى منزله فقط . ولم يكن لديه إلا ولد راشد كان يعمل هناك فى المكتبة كمعاون . وكان يقوم بتسليم الكتب للطلبة فى قاعة المطالعة . وكان أبوه يعامله بنفس الخشونة والجفاف . ويبدو أن بيوتر لم يكن يكثر من الحديث إلا مع ايفان .

ووصلت آنذاك إلى مسمعى ملاحظة قصيرة بصوته الأجش فى الرد على عبارة ايفان المتقطعة بصوتها الهادىء وخطوها التلفظى غير قليل . فلم أميز كل شىء فيها ولم أصغ إليها . وكنت جالسا طول اليوم فى المكتبة من أجل الاقتباسات اللانهائية اللازمة لرسالتى المقبلة . ولم أترك العمل إلا ساعة واحدة ذهبت فيها للغذاء . وتعبت عيناى . وعن قريب ستقفل المكتبة أبوابها . ونسيت أمر الاقتباسات . وتحت « الأباجورة » الخضراء ، وسط رفوف الكتب ، أخذ فكرى يدور لا حول رسالتى أو سفرى القريب إلى الشرق ،

وإنما حول ذلك الحديث ، الآتى من وراء الجدار ، يصحب أفكارى . وسمعت فجأة ذكر اسمى يتردد . وبدأت استمع الحوار ، من وراء الجدار . قال ايفان « المتفائل » :

— ها هو كراتشكوفسكى صار يأتى فى المساء ... واليوم يجلس من جديد .

— رأيته ... — قالها بيوتر غير راض — طول النهار لا يكفيه ! . .

— لا بد أنه متعجل — استرسل ايفان كأنه لم يسمع — عن قريب سيذهب إلى الشرق ، إلى العرب فى مهمة رسمية . فليدرس هناك أيضا ويتعلم .

— أما أنه يأتى إلى المكتبة فهو يأتى ، لكن أية فائدة من هـذا ؟ — قالها بيوتر غير راض وبصوت أجش وكما لو كان يريد التحرش بزميله .

— لماذا لن تكون فائدة ؟ — قالها ايفان وما زال هادئا — يأتى إلى هنا فى المكتبة ثم يكتب رسالته ثم يناقشها ويحصل على درجة الماجيستر . إن المستشرقين مثل الكلاسيكيين (المتخصصين فى الأدب اليونانى واللاتينى القديم) . هم أناس حقيقيون ، وليسوا كعلماء القانون . عالم القانون يأتى إلى المكتبة مرة واحدة فى الشهر وبعدها يكون قد ألف كتابا . هل هذا عمل ؟ لكن ها هو العالم اللغوى أو المستشرق يجلس كل يوم لمدة سنتين . هذا هو العمل الحقيقى .

— أما أنه يأتى المكتبة فهو يأتى — قالها بيوتر وهو لا يريد أن ينسحب — لكن أية نتيجة سيحصل عليها ؟ لقد أتى رودنيف أيضاً إلى المكتبة . وماذا كانت الفائدة ؟ رسالة ؟ لا توجد رسالة ... وشعره تساقط من على رأسه . انظر ، هذا ما قد يحدث مع كراتشكوفسكى » .

ولقد سرنى هذا الكلام لتوه ، وبصورة عفوية أخذت أفكر لا فى الرسالة وإنما فى شعرى الذى قد يحدث له فجأة أن يأخذ فى التساقط . وهذه الحاله حدثت فعلا منذ وقت قريب لزميلى الأقدم المستشرق فى الدراسات المونغولية رودنيف .

وكان ذلك بسبب إصابته بمرض عصبي مجهول . ولـكن هـــذا بالطبع لم يعقه وبالرغم من نبوءة ذلك « المتشائم » فقد أصبح مع الوقت عالما كبيراً مشهوراً . على أنني لم أسمع إجابة « المتفائل » . ومرت دقيقة سادها . على ما يبدو ، الارتباك والصمت وبعدها سمع صوت مغتاظ « تفو ! » وحرج ايفان من الحجرة خابطا الباب خلفه بشدة . ومن جديد افترق الصديقان فى الآراء .

ولم تـكن نها يتهما واحدة . وفى فترة الحرب العالمية الأولى ذهبت إلى المـكتبة صباح يوم من أيام الاثنين فوجدت ايفان وقد انتفخ وجهه من الدموع . « بيوتر ... آه .. بيوتر . » — هكذا لم يستطع أن ينطق سوى هذه الكلمات فسألته فى قلق : « ما الأمر ؟ » — « مات يوم السبت ، فقد ذهب إلى البيت بعد العمل ووضع على المنضدة زجاجة صغيرة وشرب كأساً صغيراً ثم صب الثانى وبعدها مات وهو على المنضدة . ووجده ابنه هناك والـكأس الصغير ما زال ملآن . يالها من ميتة سعيدة ! » — هكذا أنهى كلامه على غير انتظار وأخذت دموعه تنهمر من جديد . ومنذ هذه اللحظة بعد أن فقد ايفان صديقه الملازم له والمتجادل معه ، صار يشعر بالوحشة أكثر فأكثر ، واندفع بقوة إلى تعاطى الـكحول . وفى عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط (فبراير) رجع إلى وطنه وعمل هناك فى مكتبة كبيرة ، على حد ما سمعت .

ولم أتمكن من أن أحصل بسرعة على مكانى هذا الذى سمعت منه ذلك الحديث البالغ الدلالة . فقد كان المـكان على الطبقة الأولى بين الرفوف حيث تقوم منضدة كبيرة كانت تحت أمرى تماماً . وبالقرب منه كان يوجد القسم "O" (Orientalia) (« قسم الاستشراق ») القريب من قلوب المستشرقين . وكان من السهل أن أحمل منه كل ما يهمنى آنذاك من المطبوعات الشرقية . وفى طرف آخر من هذا المـكان كانت تقوم رفوف خشبية صفراء تحتوى على المخطوطات التى أقدر جوهر محتوياتها إلا مع مرور الزمن . وكان العمل هناك مريحاً . وكان يوجد فى هذا الطابق كله منضدتان كبيرتان أو ثلاث من أجل العاملين . وكان الهدوء يكاد يكون تاماً ، ولم يكن يقطعه إلا تلك الأصوات الخفيفة الصادرة عن خطوات المستخدمين فى المـكتبة عندما كانوا يأخذون الـكتب أو يعيدونها على الدفوف . والنافذة تطل

على حديقة الجامعة التى ترتدى فى الشتاء لباساً ثلجيا ناصع البياض مترا كما فوق الأغصان . وفى الصيف والخريف تكسوها خضرة كثيفة ترتاح العين لمنظرها. وعلى المنضدة فى المساء كان يضىء مصباح تحت « أباجورة » خضراء . وعندما كنت أمر أحياناً فى « شارع الجامعة » فى يوم لم أتمكن فيه من الذهاب إلى المكتبة ، كان فى وسعى أن أحدد ، من خلال أشجار الحديقة ، مكان منضدتى بضوئها الأخضر الذى ينعكس منها . وكانت هذه المناضد والحق يقال مخصصة فقط لعمل المستخدمين المكتبى . ومن يريد أن يعمل عليها من غير المستخدمين كان لابد له الحصول لا على موافقة ايفان لحسب بل كذلك على موافقة الآخرين ذوى المناصب الأكبر . إلا أن ذلك كان يتحقق على نحو غير ملحوظ وبدون أية رسميات .

وقد اتفق لنا نحن المستشرقين أن تعرفنا على المكتبة منذ الصفوف الأولى . فقد كنا فى حاجة إلى الكتب التعليمية ، والمصادر الأخرى ، وخاصة المعاجم الشرقية ، التى كانت دائماً بلغات أجنبية . وكان من الصعب إيجادها فى محلات البيع . وكان ثمنها خيالياً بالنسبة للطلاب إذا أريد الحصول عليها من الخارج وكانت المكتبة جيدة الترتيب . وكان الطلبة المستشرقون يتمتعون بحق استعارة لا ستة كتب بل ١٢ كتاباً فى وقت واحد . وكان هؤلاء السعداء الذين يفلحون فى أخذ الكتب قبل فترة « التهافت العام » ، يستعيرون المعاجم أحياناً إلى بيوتهم أما الآخرون فكان عليهم أن يعملوا فى قاعة المطالعة . ولم يكن هناك أى تعب أو إزعاج بالنسبة لى من العمل بالمكتبة إذ كنت أعيش فى مبنى من مبانى الجامعة مقابل فنائها .

وكنا نتسلم الكتب من خلال نوافذ القاعات الداخلية للمكتبة حيث كان يعمل صغار أمنائها من ناحية وظائفهم لا أعمارهم وكانوا يتفرسون فينا ويحددون بسرعة وزن كل طالب بلا خطأ . وفى صمت نما معدل الاستعارة لأكثرية الطلاب حتى ١٨ كتاباً بل أنه كان يزيد على الأمناء فى ظروف الحاجة الملحة . وسرعان ما عرف هؤلاء الأمناء احتياجاتنا العادية . وعندما كانت جاكتتى تظهر على النافذة يرن من هناك صوت أمين مكتبة غير مرئى فى الظلام : « أيلزمك اليوم « سوبلمانت "Supplement" » أو « ياقوت » ؟ وبعد جوابى كان يظهر ،

أى معجم دوزى المشهور أو معجم البلدان لياقوت بأجزائه الستة وبشهرته التى لاتقل عن سابقه لدى الطلاب المستعربين الذين قاموا بكتابة « بحث اجازى » بدلا من الامتحان للنقل من السنة الثالثة إلى الرابعة .

وقد مرت ظروف أكثر صعوبة إلا أنها كانت عادة تحسم ببساطة . وذات مرة جذبنى عنوان ممتع لكتاب جديد وصل إلى المكتبة حديثاً هو "Provincia Arabia" لبريونوف ودوماشيفسكى . فطلبت لنفسى هذا الكتاب الذى لم أكن أعرف ماهيته . وفى اليوم التالى وعلى غير انتظار عاد إلى أمين المكتبة لا بالكتاب وإنما ببطاقة الاستعارة وقال لى : « إن الكتاب لا يعطى للطلاب ، لأن فيه كثيراً من الخرائط والجداول ، ولهذا فإن كريسبيرغ يطلب منكم مراجعته بهذا الخصوص » . وانتابتنى الحيرة من هذه الأمور غير المتوقعة ومررت وراء المستخدم لأول مرة فى تلك القاعات الداخلية للمكتبة حيث كان يجلس هناك على منضدة عادية فى قاعة عادية أيضاً كبير أمناء المكتبة آنذاك الذى لم يحصل بعد على لقب « مدير » وهو الكسندر رومانوفيتش كريسبيرغ . وقد عين فى هذا المنصب ليواصل تقاليد « زاليمان » . وزاليمان هذا هو مؤسس العصر الحديث فى حياة المكتبة الجامعية وقد أصبح فيما بعد عضواً فى الأكاديمية ومديراً المتحف الآسيوى ومكتبة أكاديمية العلوم .

وقد قال عالمنا المستشرق فى الدراسات التركية ف. د. سميرنوف الذى لم يكن يحب الألمان وكان يسخر منهم ومن عاداتهم فى طبع كل الفهارس تحت عناوين لاتينية ، أنه كان يسيطر على المكتبة من قبل زاليمان الريفيلى (نسبة إلى مدينة ريفيل) ويسيطر عليها الآن كريسبيرغ الديربتى (نسبة إلى مدينة ديربت) . على أنه ينبغى الإشارة إلى شىء واحد هو أن نظام المكتبة صار عظيما بفضلهما . ومنذ تلك السنين صارت المكتبة تحمل طابعاً أوروبياً كاملا . وفى تلك الفترة ابتدأ كريسبيرغ — الصارم الجاف العجوز القصير القامة — يقاسى من شدة مرضه بالضيق الصدرى ومن مرض آخر يشبه السرطان . وسرعان ماحمله المرض إلى القبر . وقد كانت عادته أن يدور مرة كل يوم وفى ساعات محددة ، على جميع طوابق المكتبة محدثاً أثناء سيره صوتاً موسيقياً رتيباً يسمع دائماً على بعد

عدة حجرات . ولم يكن يخيف أحداً ، ولكنه كان رسمياً إلى حد ما . وكان لا يغير حلته الرسمية . وكان الجميع فى المكتبة يطيعونه دون أية مجادلة .

ومثلت أمام الرئاسة . وأنا ما أزال غير فاهم السر فى استدعائى أنا بالذات . وفجأة رأيت على المنضدة مجلدين كبيرين كتب على كعب غلافهما بخط مضغوط "Provincia Arabia" . وعندما لاحظ كريسبيرغ اتجاه نظرى سألنى : « أتريدون أخذهما إلى المنزل ؟ » وبالطبع فإن هذا لم يخطر ببالى . وكنت أريد أن أطلع على الكتاب فقط فى قاعة القراءة . وإزاء هذه المفاجأة غير المنتظرة لم أتمالك نفسى من أن أتمتم بكلمات غير واضحة ، ولعل كريسبيرغ لم يفهمنى . فقد قال : « إن الكتاب لايعطى للطلاب ، لكن قولوا ، حتى يسجلوه باسمى وتأخذوه » . واستغربت من ثقته فى من النظرة الأولى . وعلى كل فقد أخذت الكتاب إلى المنزل وأخذت هناك أدرس المطبوع اللطيف النادر عدة أسابيع ودونما تسرع .

وكان عملى فى المكتبة كباقى الطلبة فى قاعة المطالعة المخصصة للطلاب والتى كانت تقع فى الطابق الثانى . وكانت نوافذها تطل على فناء الجامعة . وهناك كان الجو هادئاً وخاصة فى المساء . وكان الطلاب الذين يجلسون على المناضد للعمل قليلين ، وكان أكثرهم لا يأتون إلا لتسلم الكتب أو تسليمها . وهناك جمعت مادة لبحثى السنوى ولبحثى من أجل المدالية الذهبية لعامى ١٩٠٤ — ١٩٠٥ . وغرقت لأول مرة مع المؤرخين والجغرافيين العرب الذين انهالوا على بأعدادهم الغفيرة من بطون الكتب المطبوعة بالطبع . على أن صغار أمناء المكتبة — الذين كانوا يعملون عند النوافذ المعروفة الخاصة باستعارات الطلبة — لم يكونوا دائماً ملبين لطلباتى .

فى الحالات الصعبة كان يظهر من قلب المكتبة أحد كبار أمناء المكتبة هو س. ف. لاريونوف الذى كان إنساناً فريداً من نوعه وكان معروفاً جيداً لدى المستشرقين لأنه كان يعتبر فى المكتبة خبيراً أساسياً بالفهارس الشرقية ، وكان يعرف بعض اللغـــات الشرقية . وقد كتب بخط يده معظم البطاقات الفهرسية المطبوعات الشرقية . كان انطباع الطلاب عنه هو أنه غريب جداً . إلا أننى ،

بعد أعوام كثيرة ، عرفت إلى حد ما قصة حياته . إنها حياة أحد الفاشلين فى تاريخ استشراقنا الذين كانوا يلتقون آنذاك لا فى المكتبات فحسب بل وفى إدارة الرقابة الحكومية أو إدارة الضرائب . وكان يبدو عليه دائماً بعض الضيق وكان شديد الخجل قليل الكلام ، وكان يسكن خارج المدينة ، كما يبدو ، فى ضاحية ليغوفو . وكان يسافر من هناك كل يوم إلى عمله . وعلى ما يخيل لى لم يكن له بين زملائه أصدقاء مقربون إليه . ومنذ وقت بعيد تخرج بامتياز من معهد لازاريف للغات الشرقية فى موسكو . وكان لا بد له من أن يشغل فى المستقبل كرسى اللغة الفارسية ثم أرسل بعد ذلك إلى الخارج فى باريس حيث درس بنشاط فى مدرسة اللغات الشرقية الحية حيث كان يتعلم فيها تقريباً كل اللغات التى كانت تدرس هناك حتى اللغة الحبشية . وقد دافع بنجاح عن رسالة بالفرنسية élève diplomé (للدبلوم العالى) فى مجال الأدب الفارسى . وقد نشرت هذه الرسالة فى "Journal Asiatique" (« المجلة الأسيوية ») . وظهرت هذه الرسالة كأنما هى مؤلفه الوحيد المطبوع . لكن لماذا انقطع امتداد نشاطه العلمى بعد رجوعه إلى روسيا ؟ ولماذا قضى كل حياته فى المكتبة الجامعية دون أن يحس به أحد ؟ ولماذا كان منطوياً على نفسه ؟ كل هذا كان غير معروف لى . وهو لم يتحدث عن الماضى مطلقاً ، وكان يلوذ بالصمت دائماً أزاء كل الأسئلة التى توجه له عن فترة وجوده فى الخارج لكنه كان يتحدث بالفرنسية بطلاقة مع الأجانب فى زياراتهم النادرة للمكتبة . هذا بالرغم من أن خجله المألوف يتزايد فى مثل هذه الظروف إلى درجة غير معقولة . وكان يعمل فى المكتبة كثيراً لكنه ينصرف دائماً إلى إعداد فهارس وبطاقات . وقد قام بكتابة بطاقات الفهارس للمكتبة الموقوفة المعروفة باسم ف. ر. روزن ، فى تلك الفترة التى كنت موجوداً فيها فى الشرق . وعاش مدة طويلة وكان أحياناً ما يحتفل فى الجامعة بذكرى تاريخ خدمته . وكان من المؤسف فى وقت الاحتفال رؤية هذه الشخصية المتضايقة الخجولة . وقد واصل العمل فى المكتبة بعد الثورة وكان الانطباع الذى يثيره بين الجيل الثالث من أمناء المكتبة يذكر بالفيل المنقرض فى العصر الثلجى القديم أو بآخر رجل من قبيلة الموغيكان من الهنود الحمر .

وفى فترة تلمذتى كان هذا المستخدم الخفى الغريب إلى حد ما هو الوحيد الذى وضح كل الأشياء المكتبية غير المفهومة والتى تتعلق بالمطبوعات الشرقية . وبعد ذلك عندما تعرفت مع مخطوطات مكتبة الجامعة وجدت من جديد البطاقات التى كتبها بيده . وقد مات فى العقد الرابع من هذا القرن مصاباً بالشلل ومنسياً من الجميع عدا واحد أو اثنين من معاصريه من المستخدمين .

وعبرت من قاعة القراءة للطلاب إلى قاعة الأساتذة التى تقع فى الطابق نفسه ، إلا أن نوافذها تطل على الحديقة ، وهى مجاورة لغرفة تسليم الكتب ذات النوافذ الصغيرة . وكان عبورى هذا فى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٦ مصحوباً بأشياء غريبة ممتعة نوعاً ما .

ذلك أننى كنت قد أديت الامتحانات الرسمية فى كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٠٥ . وقال لى ف. ر. روزن أنه قد تقرر أن أبقى للعمل بالجامعة . وأننى سأكون مسجلا فى عداد هيئة المعلمين من أول كانون الثانى (يناير) . إلا أن مجلس الكلية لم يتخذ القرار الرسمى إلا فى منتصف هذا الشهر . ومنذ أول زيارة لى المكتبة فى كانون الثانى (يناير) برز سؤال شكلى : بأى بطاقة أستطيع أن أستعير الكتب ؟ ببطاقة الطلبة أو ببطاقة الأساتذة كباقى العاملين فى الجامعة ؟ وآنذاك كان كريسبيرغ مريضاً دون أمل فى شفائه وحل مكانه كبير أمناء المكتبة م. ا. كودرياشوف تلك الشخصية العجيبة أيضاً فى كثير من الأحوال . ونحن نعرفه جيداً منذ أيام التلمذة ذلك لأنه كثيراً ما كان يظهر عند نوافذ تسليم الكتب مساعداً صغار أمناء المكتبة خاصة فى تلك الأوقات التى ساد فيها «التهافت العام» . وعلى كل فقد أوصلونى من جديد إلى مكتب المدير الذى كان كان يجلس عليه شخص صغير هو م. ا. كودرياشوف . ونظر إلى من فوق نظارته الكتعاء المتسقرة على أرنبة أنفه وسألنى بجد وبصوت جهورى أجش كعادته : « من أنتم ؟ طالب ؟ » فأجبت : « لا — إننى انتهيت من الامتحانات فى شهر كانون الأول (ديسمبر) » . « من أنتم إذن ؟ يعنى استبقيتم للعمل فى الجامعة ؟ » . وإلى هنا أصابنى شىء من الخجل وأجبت بالنفى موضحاً له أن عملى بالجامعة قد تقرر ، إلا أن مجلس الكلية لم يصدق على هذا بعد . واستغرق فى التفكير مدة دقيقة وهو على سابق جده ثم

انهى هذا الحوار القصير قائلا : « يعنى أنتم — لا شىء . خذوا الكتب مسجلة باسمى » . وهكذا تخطيت ببساطة مشاكل الرسميات وجلست فى قاعة القراءة الأساتذة غير متأثرة تماماً من أننى « لا شىء » . وبعد شهر تقريباً كان قد صدق على قرار عملى بالجامعة من الوزارة .

وبدأت الفترة الثانية لعملى بالمكتبة . وآنذاك أمكننى أن أبحث بنفسى فى المهارس وأن أمشى فى كل الحجرات وأتسلم بنفسى الكتب بكميات غير محدودة. وكان يلزمنى مراراً أن أنزل إلى أسفل فى الشعبة الشرقية.ورويداً رويداً استطعت أن أحصل على عطف « المتفائل » إيفان وذلك عندما رأى أننى لا أستعد لإمتحان دراسات الماجيستير فحسب بل وأفكر أيضاً فى رسالة الماجيستر .

وبدأت الدروس مع ف . ر . روزن . وقد حملتنى هذه الدروس على أن أحيط نفسى بالمعاجم العربية منها « تاج العروس » بأجزائه العشرة و « لسان العرب » بأجزائه العشرين وكلها كانت تحت يدى دائماً. وقد أوجد إيفان « للسان العرب » خزانة صغيرة خاصة تسير على عجلات وذلك عندما رأى أن المنضدة لا تكفى لأكوام الكتب الضخمة المتراكمة . وكان من الصعب على فى الفترات الأولى أن أستخدم هذه الكتب الضخمة وكنت أجلس أحيانا قرابة خمسة أيام لأعد بطريقة مرضية لحد ما عشرين بيتاً من أجل عملى مع روزن كل يوم اثنين. وآنذاك صارت الكتب القريبة إلى قلبى تجذبنى إلى جوانب أخرى أيضاً . ولقد أردت بحيوية الشباب أن أقرأ كل ما يتعلق بالإستعراب فى المجلات الخاصة منذ وقت تأسيسها . ولقد نظرت وقرأت بظهاء عشرات الأجزاء لمختلف المطبوعات الدورية التى كانت موجودة بأكلها آنذاك فى المكتبة. لكننى سرعان ما وجدت أننى لا أستطيع أن أستحوذ أو أحيط بكل هذه الكتل فأخذت أحدد لنفسى مصادر متسلسلة تتعلق فقط بدراسة الشعر العربى وما عدا ذلك كنت أسجله فى بطاقات مكتبتى التى كانت تنمو باستمرار . وكنت أجلس طول الأيام فى المكتبة لا فى الصباح فحسب بل وفى المساء أيضاً عندما لا يوجد عمل لى مع روزن . وعرفنى كل أمناء المكتبة وعرفتهم جميعهم وأصبحت جزءا لا يتجزأ من المكتبة مرتبطاً بكل همومها وشؤونها .

وبعد وفاة كريسبيرغ أصبح المدير بالطبع م . ا . كودرياشوف الذى كان مساعداً له مدة طويلة وتلميذه فى التخصص بالمكتبات . وبه ابتدأ عصر المديرين الروس للمكتبة . وهو من الوهلة الأولى يثير فى النفس إنطباعاً فكاهياً إلى حد ما : فهو قصير القامة ذو رأس كبيرة يزينها شعر منقوش وتراه باستمرار يلتقط نظارته الكتعاء برباطها الطويل التى لا يستقر لها قرار على وجهه . وهو يتكلم دائماً بلهجة الجد وبصوت أجش منخفض ، ولكن غالباً ما كانت تشع فى عينيه شعلة فكاهة طبيعية . وكان من الصعب التسليم بأنه لا يخلع على نفسه رداء الجدية . ولقد كان رجلا خيراً لين الجانب ، استطاع مع ذلك أن يمسك فى يديه بزمام النظام فى المكتبة عملا بوصية زاليمان وكريسبيرغ . على أنه كان عزبا يعيش فى وحدة تامة ولم تكن لديه عدا المكتبة أية هواية أخرى. وكثيراً ما كان يمكث فيها طول الليل قبل أن يعهد إلى مستخدميها بالحراسة الليلية بمدة طويلة . وكان يمضى الليل مرتديا ثيابه نائماً على أريكة صغيرة ، تتناسب مع قامته القصيرة ، قائمة فى أحد الأركان بين الخزائن فى الطابق الثالث . وفى تلك الأمسيات كان يسمح لى بالعمل فى المكتبة كما أريد. ذلك لأنه كان يبقى هناك حتى الصباح ويغلق الباب بنفسه بعد انتهائى من العمل. وكم تحاورنا معاً فى تلك الأمسيات حول كثير من الموضوعات التى تتعلق بالمكتبة وبالعلم وبموضوعات أخرى جد متنوعة. وكان حوارنا هذا بصفة خاصة فيما بعد فى سنوات الخراب والدمار عندما بدأت كل الحياة تذبل ، على ما يبدو ، من البرد والجوع . وقد مات هو نفسه من الجوع والضعف العام . وولى غير آسف على نفسه بل على المكتبة وعلى حياة مستخدميها الذين هلك الكثير منها أمام عينيه لهذا السبب نفسه .

كان كودرياشوف فاشلا فى حياته العلمية مثله مثل س . ف . لاريونوف . وقد قام فى سنوات التلمذة بنشر أحسن المحاضرات التى أعدها وألقاها الأساتذة على الطلبة وترجم فى شبابه إلى الروسية « أغنية عن النيبيلونغ » بوزنها الشعرى الأصلى . وهو عمل يعتبر ضخما وجديا وإن كان ليس بالغ العبقرية إلا أنه جيد الصنعة . وقد أعطته أكاديمية العلوم — عن جدارة — مكافأة عن هذا العمل . على أن المكتبة امتصت كودرياشوف منذ وقت بعيد ولم يعد بعد ذلك إلى

ممارسة عمله التخصصى . وقد يكون ولعه بالشراب جعل الخمرة تفعل مفعولها . ويجدر القول أن ولعه بالشراب كان أشد قبل تعيينه مديراً المكتبة .

وخلفه ، لوقت قليل حقاً ، أمين المكتبة الممتاز . أعنى ا . ب . مورزين ، الذى لم يكن يصلح قط للدور الإدارى . كان يسبقنى فى الجامعة بسنتين أو ثلاث وأذكره جيداً كطالب كان فى قسم قليل الطلبة هو القسم الكلاسيكى بكلية التاريخ واللغة والأدب. وكان من رفاقه المؤرخ المتخصص فى العالم القديم البولونى ك.ف. هيلينسكى والثانى هوا . ا . تولستوى العارف بالأدب اليونانى . وقد تمتع كلاهما فيما بعد بشهرة كبيرة فى العلم . أما مورزين فلم يتغير اللهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار تغييره لحـــلة التلمذة الرمادية بحلة أخرى سيئة نوعا لا يجمعها تناسق أو ترتيب. ومنذ شبابه كان يبدو فى شكل عجوز: فهو قصير غير مكترث بالشباب ذو شعر منفوش ، قصير البصر جداً . وهناك فى المكتبة حيث التحق بالعمل بعد انتهائه من الجامعة مباشرة كان يبدو قزماً قميئاً. وكان أحيانا يهرول على طريقه فى غرف المكتبة اختصاراً للوقت . ولم يكن عارفوه يعجبون لهذا ، أما الطلبة فى دهليز الجامعة الطويل فكانوا يقفون مندهشين من منظره العجيب وهو يجرى. وكان بعد انتهاء عمله بالجامعة يتوجه إلى عمله الليلى بمكتبة الجمعية الجغرافية حيث سرعان ماشغل منصب مديرها . كان مناسباً تماماً لهذا المنصب من ناحية أن هذه المكتبة خاصة وصغيرة وكانت هيئة مستخدميها مؤلفة من شخصين أو ثلاثة . وقد كان موضع تقدير كبير من رئيس الجمعية يو . م . شوكالسكى الجغرافى المشهور . وكان مورزين كبير أمناء المكتبة الجامعية قد صار بالصدفة مديراً لها بعد أن رفض الآخرون أن يتولوا هذا المنصب. والأدهى من ذلك أنه كان مديراً المكتبة فى تلك السنوات الصعبة جداً وكان هو نفسه فى حيرة ولم يستطع أن يسيطر بيد قوية على دولاب العمل الضخم . وكان مستخدموه يحبونه على طريقتهم لكنهم كانوا ينظرون إليه دائماً نظرة سخرية واستهزاء . وكان لا يتمتع بأية سلطة أو نفوذ سواء فى داخل المكتبة أو خارجها . وهو نفسه كان يشعر بهذا وقد قدم استقالته من هذه الوظيفة عند أول فرصة مواتية . وأصبح من جديد لا يحس بوجوده أحد . لكنه مع هذا ظل أمين المكتبة الضرورى فى الجامعة وفى الجمعية.

هكذا كان وهكذا أنهى حياته سنة ١٩٣٩ مقاسياً في آخر أيامه شللا بسيطاً. وكان من الصعب تصور وجوده خارج المكتبة . وكان هو نفسه لا يستطيع العيش بدونها . وكان في شبابه قد داعبته مختلف الأحلام والآمال . فتارة أراد أن يكون قسيساً ، وتارة أخرى فكر في أن يكون معلماً ريفياً . لكن هذه كلها كانت أحلاماً على طريقة بعض أبطال قصص تشيخوف . وطبعاً لم يكن ليذهب من المكتبة لا إلى هنا ولا إلى هناك حتى ولو استطاع ذلك . ولم تكن لديه رغبات علية يمكن أن تقلقه أو تعكر عليه صفوه لكنه لم ينس اللغة اللاتينية كمتخرج من الجامعة . وأحياناً ما كان يدعى لتدريسها لطلبة الطب وعلم النبات. وكان يستطيع في المناسبات تأليف رسالة تحية لأي احتفال تذكاري بهذه اللغة. وكان قادراً على التحادث بها وبصفة خاصة مع ا. ا. ماليين أستاذ اللغات القديمة. وإلى جانب ذلك كان له في المكتبة نفسها مسامر آخر يتمثل في شخصية برونسيلاف أغناتيفيتش أبباخ — شيبلو الذي كان « كبير أمناء » المكتبة الأخير ، الذي أذكره جيداً منذ سنوات التلمذة .

كان أبباخ — شيبيلو يمثل شخصية لا تقل طرافة ، ولكنه كان على النقيض من الآخرين متعدد الجوانب على طريقته . وكان قصيراً ، سميناً ، كروي الشكل ذا شعر نافر مقصوص بعناية ، وكان لطيفاً نظيف الملبس دائماً على عكس الآخرين في المكتبة بل كانت تبدو عليه سمات الأناقة التي تتوفر أحياناً لدى العجوز العزب . وكنت قد سمعت عنه وأنا ما أزال بعد تلميذاً في المدرسة الثانوية . إذ كان يأتي أحياناً إلى مدينة فيلنو لبعض أعماله العلمية في المكتبة العامة وفي قسم المخطوطات. وكانت هذه الأعمال تتعلق بصورة رئيسية بتاريخ الإقليم الغربي . على أنني تصورت أن الجزء الأول من إسم عائلته — « إبباخ » هو إسمه وعجبت كثيراً لهذا الترابط الغريب بين الإسمين . وكان جميع الطلبة الراغبين بالدراسة في مكتبة الجامعة يمرون عليه قبل كل شيء ، إذ كان يجلس إلى منضدة عند نفس المدخل ، وكان يقع عن عاتقه ملء بطاقات الاستعارة . وكانت تتملكنا الدهشة دائماً بسبب تمهله ودقته المعتادة في الكتابة . لكن خطه كان حقاً على درجة فنية لا تضارع ، وبخاصة عند توقيع إسمه غير العادي بإمضاء ملتلو ما كر ، وكان من حيث تحصيله عالماً لغوياً كلاسيكياً وكان يقوم بتدريس اللغة اليونانية باللاتينية في الأكاديمية الروحانية الكاثوليكية

الرومانية التي كانت تقع آنذاك على الشارع الأول في جزيرة فاسيلييفسكي ببطرسبورغ وفي منزل كان تابعاً من قبل لأكاديمية العلوم الروسية . لقد عرفت بعد ذلك أنه كان يعتبر أيضاً خبيراً بمجالات أخرى غير عادية أحياناً، إذ م ينقصه، في عداد ما يدرسه، غير تاريخ الأزياء الدينية الكنسية . وقد تعرفت على أحد جوانب نشاطه عن كثب، مع أنه حاول في حدود الإمكان ألا ينشر أي معلومات عنها وذلك لإعتبارات مفهومة تماماً في ظروف ذلك العصر . فقد كان شخصية بارزة في نهضة الأدب البيلوروسي . وكان على معرفة عظيمة باللغة البيلوروسية سواء في لغة الحديث الحية أو آثارها القديمة. وكان هو نفسه قليلا ما يكتب في الصحافة أو المطبوعات لكنه كان يساعد بكل الطرق قضية النشر باللغـــة البيلوروسية والبيلوروسيين الموجودين في بطرسبورغ . وكان الشاعر البيلوروسي يانكا كوبالا الذي ذاع صيته فيما بعد غالباً مايقضي الليالي عنده في سنوات الدراسة نائماً على صندوق في دهليز شقته الضيقة . ولم يكن يانكا كوبالا وحده المدين له ، بل كان ثمة بيلوروسيون آخرون مدينون بالفضل لأمين المكتبة هذا ، الذي كان لا يعرف أمر مساعدته للنهضة البيلوروسية الا الأقلون . وكان أخوه ينطوي أيضاً على هـــذه الحماسة للحركة البيلوروسية ، وقد كان مستخدما في إدارة الضرائب أو الرقابة . وقد قدم هو وأخوه ، كهواة ، تمثيليات باللغة البيلوروسية الأمر الذي كان حدثاً كبيراً جريئاً بالنسبة لبداية القرن العشرين . ولكن القدر لم يكافئه على كل هذه الأعمال البطولية المتفانية . ولقد دعي إلى مدينة مينسك في وقت ما للعمل في تأليف معجم بيلوروسي . ولكن حدث له أن غادر عاصمة بيلوروسيا بسرعة عائداً إلى لينينغراد كهلا عجوزا حيث مات هناك بعد أن عاش بائساً عدة أشهر رغم المساعدات التي نالها من مساعديه وأصدقائه القليلين في المكتبة الدين ما زالوا يذكرونه .

ولم يكن لنا نحن الطلبة علاقة مع كبار أمناء المكتبة فحسب بل وبصورة أكبر مع صغار أمناء المكتبة الدين كانوا يقومون بتسليم الكتب « عنـــد النوافذ » . وكان صغار أمناء المكتبة مجموعة خاصة من شخصيات جد مختلطة وبدون تحصيل عال عادة . وكان أكثرهم من أبناء الأمناء الصغار أو مستخدمي المكتبات . وكان لي من بين جيلهم الأكبر بصفة خاصة ذكريات مع شخصين —

إيفان كيريلوفيتش سادكوف وصديقه الدائم فوتى بافلوفيتش خريبتوف . ولقد عرفناهما نحن الطلبة تبعا لأعمال أخرى أيضاً . وكانت الخدمة فى المكتبة الجامعية تعتبر غاية فى السوء من ناحية المرتبات . ولم يكن يستطيع أن يعيش بدون مساعدة من عمل آخر إلا العزاب الذين يعيشون بمفردهم أمثال م . ا . كودرياشوف . وكان الصديقان سادكوف وخريبتوف يتوجهان بعد إنتهاء عملهما اليومى فى المكتبة إلى حديقة الحيوانات فى الحى البيتروغرادى . وهناك فى شباكين متقابلين عند بوابة الحديقة كان يبيعان تذاكر الدخول حتى آخر الليل . وكانت حديقة الحيوانات آنذاك مشهورة لا بحيواناتها فحسب بل وبمطعمها أيضا . وكان يتسنى لبعض الطلبة المتوجهين إلى هناك أن يتقابلوا مع معارفهم من أمناء المكتبة فى موقف غير عادى . وكان خريبتوف عابسا وأكبر سنا وغالبا ما كان يقع تحت تأثير بخار الخمرة . كان فيما مضى يعمل فى المكتبة الخاصة بالقسم التعليمى للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية وكان يحاول التأكيد لى بأن البارون روزن عند تأليفه لفهرس المخطوطات العربية والفارسية فى القسم ، قد قام ببساطة بنقل ما فى فهرس المخطوطات الموجود هناك ، الذى أعده المدير السابق البارون ديميزون . أما كيف ألف مثل هذه الأسطورة الخيالية . فقد ظل هذا الأمر غير مفهوم عندى .

أما سادكوف فكان يبدو فى شباب دائم ، وفى الوسع القول أن عيوننا لم تلاحظ أى تغير طرأ عليه مع إنه سرعان ما ظهر بين صغار أمناء المكتبة اثنان من أبنائه وكان على الدوام هادئاً مؤدباً حسن الملبس ، وكان الانطباع الذى أثاره كأمين مكتبة هو أنه إنسان واسع الثقافة . وكان مصدر غمه الدائم أنه لم يحصل على تعليم عال الأمر الذى كان سبباً فى الحيلولة بينه وبين الترقى فى سلم الوظيفة . وعند تأسيس الجامعة فى مدينة « برم » دعى إلى تنظيم مكتبتها ويقال أنه قام بهذا العمل على خير وجه .

وكان من بين صغار أمناء المكتبة أشخاص ظريفون . ففى الطابق الأول كان يجلس « الدكتور فريدولين » لكتابة البطاقات اللانهائية . وقد تعرف بى فى ذلك الوقت عندما كنت انتقل من قاعة الأساتذة إلى الأسفل . وكان لا يستطيع أن يتحدث عن شىء إلا عن علم الأجناس البشرية . وكان يرى .

الأصل الوحيد لكل العلوم هو قياس الجماجم البشرية ، وهو ما كان يستحوذ على كل قوته تقريباً . وكان نزولى إلى أسفل المكتبة — حيث سمعت ذلك الحديث السابق بين اثنين من المستخدمين — دون أو يشعر به أحد . وكان قد أجيز لى الدخول إلى هناك دون أية ضجة . وكانت هذه الأجازة لا من ايمان فحسب بل ومن جميع كبار رجال الإدارة بالمكتبة . وكان هذا فى تلك الفترة التى بدأت أشعر فيها لأول مرة بقلب القسم الشرقى بالمكتبة أى مخطوطاته التى كانت هناك فى الخزائن فى نهاية غرفة المكتبة التى كان يجلس فى مواجهتها « الدكتور فريدولين » . وكانت منضدتى وسطهما تقريباً . وكان كل من الشعبة الشرقية بمطبوعاتها والخزائن بمخطوطاتها قريبا منى وعلى بعد واحـــد . ومن الصعب على الآن — وقد سحرتنى المخطوطات بكل قوة — أن أميز أحيانا : أيهما يقوم أشد وضوحاً فى ذا كرتى ؟ البشر أم الكتب التى أرتنى أناسا راحلين منذ وقت بعيد وصورتهم أمامى كما لو كانوا أحياء ؟

هناك اكتشفت لأول مرة ، وشعرت تماما بالشيخ الطنطاوى الذى كان يعمل منذ زمن بعيد مضى فى كرسى الاستعراب . بل لقد شعرت بسلفه المصرى من القرن السادس عشر ، الشيخ الشعرانى الذى تكشفت معالمه أمامى وضاءة لامعة حين عثرت بصورة غير متوقعة على التاريخ الفريد لقصة حياته . وكان روزن قد نسى ، مصادفة ، فى هذا المخطوط ، الأوراق الخاصة بملاحظاته عنه والتى تتحدث عن عمله الذى لم يعرفه أحد. كنت سعيداً فى مواصلة هذا العمل وحاولت على أساس مسودة ملاحظات روزن أن استعيد سير أفكاره . ومخطوط المجموعة المغربية الذى ضاعت نهايته قد جذبنى بألغازه وبخيوط أفكاره الخفية التى ربطتنى لا بالعرب القدماء فى الأندلس بل وبالمستعربين الأسبان المعاصرين . وفى تلك السنوات الباردة ، بعد الخراب والتدمير ، كنت ألقى المحاضرات وسط الرفوف بما عليها من الكتب ، هناك فى الطابق الثالث من المكتبة ، التى حنت بعطفها على تلك الطائفة الصغيرة من المستعربين ، بجوها الذى ترتفع فيه درجة الحرارة عن الصفر على كل حال . وشعرت بصفة خاصة بهذه العلاقة الخالدة بين الناس والكتب حيث لا يمكن عزل المخطوطات عن الإنسان الحى .

فلتجد مخطوطات الجامعة انعكاساً لها على صفحات ذكرياتى : لقد دخلت هى

أيضاً فى حياتى بقوة وغالباً ما كانت تثيرها بأشد مما تثيرها الحوادث الخارجية . وكانت تنفذ أحياناً إلى ذاكرتى إلى الأبد لدى أول لقاء لى معها بصورة أقوى من لقاءتى التى أذكرها مع الناس .

٢ — معارض رسالة ماجيستر لأول مرة

(١٩١٤)

إن المخطوطات تقرب بين الناس . والتعرف بها يشبه الغوص فى أعماق الطبيعة أو فهم الفن وتمثله . وهى بهذا توسع أفق الإنسان وتشرف كل حياته وتجعل منه عضواً فى الحركة الإنسانية العظيمة فى طريقها الثقافى . فالمخطوطات إذن كالطبيعة وكالفن يجب أن تكون ثروة لكل الناس الذين يفهمونها ويحسونها. ويجب أن تكون مفتوحة أمام كل العلماء .فعلى الناس الذين وهبهم القدر مؤقتاً وفى حدود حياتهم أن يكونوا أصحابا أو خزاناً للمخطوطات ألا ينسوا هذا . وعليهم أيضاً ألا يصبح مثلهم مثل الفارس البخيل. وأنه لمن المحزن أن نرى كيف أن النزعة الشريرة فى الطبيعة الإنسانية تجعل المخطوطات أحيانا سبباً للشقاق . وكيف تقوم حواجز بين البشر أو تغدو حتى أدوات للمضايقة . وفى هذه الحالة فإن قدر العالم قد يسوقه على غير انتظار إلى مواجهة ابتلاءات صعبة . لكن مع الإرادة الخيرة يمكن التغلب عليها . وعلينا أن نذكر دائماً أننا كأفراد لسنا إلا ضيوفاً على هذه الأرض . أما العلم فدائم وخالد . ولابد من التفكير لا فى أنفسنا بل فى حركة العلم إلى الأمام . وليس مهما لنا دائماً من هو بالذات الذى أسهم بقسط فى تقويتها . وأنى لأذكر فى شبابى إحدى الحوادث مع مخطوط استطاع بسهولة أن يحدث تصدعا فى العلاقات بين عالمين: أستاذ وتلميذه . وها أنا الآن بعد ثلاثين عاما أشعر بارتياح لأن كلا منهما استطاع آنذاك أن يبقى على مستوى العلم والإنسانية كما كان يفهمانهما .

ففى بداية أيلول (سبتمبر) ١٩٠١، وفى يوم قصير قاتم من أيام بطرسبورغ، كان طلاب الصف الأول بكلية اللغات الشرقية ينتظرون أول محاضرة عن اللغة العربية . وكان منظر الكلية يبدو غير عادى . ومع أنه كانت قد خصصت

للمحاضرات أرحب قاعة هى القاعة السادسة ، إلا أنها كانت مكتظة ولم تـكف مقاعدها . ففى هذه السنة كان قد التحق ٥٦ طالبا بشعبة واحدة من الـكلية هى الشعبة العربية الفارسية التركية التتارية . أما من قبل فلم يحدث تقريباً أن كان مثل هذا العدد . وكانت المحاضرات الأولية فى اللغة العربية إجبارية ولبعض الشعب الأخرى أيضاً . وعلى هذا فإن قاعة المحاضرات التى كان لا يدرس فيها غالبا أكثر من شخصين أو ثلاثة أصبحت الآن تطن كعش الزنابير . ولم تـكن المناضد هى المـكتظة فقط بل حواف النوافذ أيضاً . وكان بعض الطلبة يقفون فى الممر . وتوجه أكثرهم شطارة فى وفود إلى خادم الـكلية « سافيلى » بطل معركة شيبكا الذى كان يقف دائماً فى وضع ثابت عند المدفأة فى غرفة تعتبر ممراً يسميها الطلبة « مدخل الحمام » الذى يطل على « بئر السلم » من أحد الجوانب ، وعلى ممر ضيق لقاعات التدريس من جانب آخر . وفى تلك الحجرة كان الطلبة يقضون استراحتهم بين المحاضرات أو ساعات فراغهم .

وحين طلب الطلبة من سافيلى وضع منضدة أخرى ، اكتفى بالابتسام والقول : « انتظروا ، بعد أسبوع ستـكون غرفة التدريس خالية تماما » . وقد ظهر أن قوله صحيح . ففى المحاضرة التالية صار عدد طلاب أقل . أما الصف الثانى فلم ينتقل إليه من كل هذه الـكتل سوى ٢٤ طالبا و١٢ فقط هم الذين استطاعوا أن يتخرجوا من الـكلية مدخلين فى الحساب « الشيوخ » أى أولئك الطلبة الذين لحقونا من الصفوف العليا . وقد كان هذا منظراً عادياً فى كلية اللغات الشرقية ، ولم يكن المعلم مذنباً فى انصراف الطلبة عن تلك المحاضرات الأولية . وكنا فى تلك الفترة ننتظر معلمنا فى أول محاضرة . كنا نعرف فقط أنه أستاذ محاضر يسمى ا . ا . شميدت .

ودخل حجرة التدريس رجل فى ريعان الشباب ، عمره يقارب الثلاثين ، فى حلة مدنية جيدة كانت مألوفة فى ذلك الوقت . فأعجبنا لأول نظرة بجماله الخاص ، لا سيما عينيه البراقتين التى لا يمكن نسيانهما . وسار إلى المنصة خجلا بعض الشىء ربما من منظر حجرة التدريس المـكتظة . وبدأ المحاضرة بتمهيد إلى النحو العربى ، ووجهه لا يفتأ يحمر كل دقيقة . وكان كل شىء فى المحاضرة

واضحاً مفهوماً . ونسينا للتو سابق فشلنا الذى كدرنا فى الدرس الأول عن علم الخطوط العربية . وكان المحاضر تتاريا من القرم . كان خطاطا مشهورا حقا كما عرفت فيما بعد . وقد كتب أمامنا على السبورة أشياء غامضة ولم يستطع أن يوضح لنا بالروسية لزوم ما كتبه ولا ماذا ينبغى علينا أن نعمله . ولقد نسيت محاولتى الفاشلة فى الفوز بدراسة اللغة العربية بمساعدة كتاب أساسى فى جزئين عن القواعد العربية لسيلفستر دى ساسى الذى طبع فى بداية القرن التاسع عشر . وكانت هذه المحاولة فى سنوات التلمذة بالمدرسة الثانوية . وها أنا الآن قد تغلبت بسهولة على أسرار الحروف العربية وعلى أوزان الأفعال وهو الشىء المرعب للكثيرين . ولم أكن أظن أن هذا القائد اللين شميدت الذى كانت له « عينا ظبى مرتعب » على حد تعبير أحد أصدقائى ، والذى كان دائما يستمر فى خجله أكثر منا نحن الطلاب ، أقول لم أكن أظن أنه سيصير مع الزمن واحدا من أصدقائى الأقربين . ولم تشب عاطفتنا المتبادلة أية شائبة حتى موته عام ١٩٣٩ .

على أن ا . ا . شميدت لم يقم بالتدريس لنا فى الصف الثانى . وانفصلنا عنه قرابة عام . فقد كان من النادر جداً أن نقابله فى الكلية . وطول هذه السنة كان هناك انطباع وحيد مرتبط به يلمع بوضوح . ففى أول كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٢ كان ن . ا. ميدنيكوف يدافع عن رسالته لدرجة الدكتوراه . وقام بدور المعارضين له (فى المناقشة) كل من ف . ر . روزن وا . ا . شميدت . وقد أشار هذا الأخير فى عرضه لملاحظاته إلى مطبوع عن معجم عربى فى تراجم الأدباء . وكانت مفاجأة لنا بصفة خاصة أن روزن اعتدل فى جلسته آنذاك وسأل بحيويته المعروفة عن مكان طبع هذا المعجم . وقد رفع هـــذا مكانة شميدت عالية أمام عيوننا الساذجة . ذلك أن شميدت ظهر أحيانا متمكنا من معرفة أشياء ما زالت مجهولة لروزن نفسه . وشعرنا فيما بعد بفخر ليس بالقليل عند سمعنا أن شميدت كان تلميذا لا لروزن فحسب بل وتلميذاً أيضاً لغولدزيهر المستشرق البودابستى المشهور فى الدراسات الإسلامية .

ولم يكن لقاؤنا مع شميدت إلا بعد عام عندما كنا فى الصف الثالث حيث قام بتدريس الفقه الإسلامى . ولقد فوجئنا بالتغيير الذى طرأ عليه . فقد صار

أشيب الرأس ، يسير متوكئا على عصا ، ويبدو عليه الإنهاك . وعرفت فيما بعد أن تلك السنة كانت شديدة القسوة عليه ، بسبب ما أصاب عائلته من غم وكدر وكذلك بسبب مرضه وضرورة احتماله لعمل شاق مرهق لأعصابه لم يكن راضيا عنه كل الرضا . ولم تكن وظيفة الأستاذ المحاضر تكفل له من الحياة حتى المطالب البسيطة المتواضعة لرجل رب عائلة . وكان على شميدت أن يتحمل أعباء عمل إضافى آخر . وقد عرفنا بدهشة أنه كان يعمل مفتشا بمدرسة القيصر الكسندر الثانوية وبعد انتهاء عمله هناك كان يتوجه لعمل آخر هو أمين تحرير جريدة « أخبار سانت بطر سبورغ » التى نشرها الأمير أوختومسكى الذى كان رحالة مشهورا فى عصره ومن المهتمين بثقافة الشرق الأقصى . كل هذه الأعمال التى كانت على عاتق شميدت ارتبطت ارتباطا سيئا مع الاستشراق الإسلامى والأدب العربى كليهما . ولم تبق لديه وقتا للعمل فيهما وألقت خمولا دائماً على إنسان يسعى نحو أعمال خلاقة واسعة فى العلم وكان لديه لذلك موهبة غنية . ومع مرور الزمن فقط صار مفهوما لنا السر فى أن شميدت كان ينظر بوجل إلى أسئلتنا العلمية الخارجة عن نطاق البرنامج المحدد للدراسة . ذلك أنها كانت تمس عنده جرحا لا يندمل (فى حبه للعلم) وكانت الإجابة تتطلب أحيانا الرجوع إلى بعض المصادر ولم يكن لديه وقت حتى لهذا . وكان نادرا ما يأتى إلى المحاضرات فى صفنا الثالث ، ولكنه ، عند لقائى معه ، كان يبدى نحوى رغبات خيرة طيبة على الدوام .

وفى عطلة صيف ذلك العام اتفق لى أن قرأت القرآن كاملا ، وبمساعدة معجم كركاس للقرآن بالطبع الذى لا يستغنى عنه ، وبمساعدة ترجمة سابلوكوف إلى الروسية . وقد وصلت إلى شميدت اشاعة عن هـذا . وفى الخريف حيانى بابتسام ملقبا أياى « بالحافظ » . وفى الصف الرابع انقطع من جديد لقاؤنا النادر فى الجامعة ، ذلك لأن تدريس الاستعراب وقع فى صفنا على عاتق روزن. طول هذا الوقت انجذبت انجذابا شديدا نحو شميدت الذى شعرت نحوه شعوراً غريزيا بأنه ذو موهبة علمية كبيرة وروح خيرة عظيمة . إلا أننى كنت أخجل من أن أتوجه إليه بالسؤال لشعورى بأن هذا يولد لديه أحياناً ألما ورغبة فى أن ينكمش فى قوقعته . ولقد عرفنا أنه منذ وقت بعيد يعد بحثا علميا كبيراً عن

عالم صوفى مصرى من القرن السادس عشر هو عبد الوهاب الشعرانى . وكان من المتوقع أن يغدو هذا البحث دراسته لدرجة الماجيستر ، لكننى بعد عدة أعوام عندما انتهيت من الجامعة وواصلت دراستى مع روزن سألته بدافع حب الاطلاع عما إذا كان شميدت سيناقش عما قريب رسالته . فهز روزن يده بحزن وقال : « إيه ! لقد ضاع الكسندر ادواردوفيتش (شميدت) . قلت له من قبل أن عليه ألا يتزوج بسرعة هكذا : إنه رجل جد موهوب » وبدأ روزن بحيوية يقص ما قاله صديقه غو لدزيهير الذى اعتبر شميدت واحداً من أحسن تلاميذه الذين أتوا إليه فى وقت ما من أوروبا وأمريكا . وقد تألمت لهذا المسكين شميدت أكثر من ذى قبل وحاولت فى حدود قوتى الضعيفة أن أفتح قلبه وأجعله أكثر قرباً إلى اهتمامات الحياة العلمية . وبدا لى أحيانا أن كل شىء سيصير على ما يرام ، إلا أن موت روزن كان بالنسبة لكلينا ضربة قاسية . وعندما كنت فى بلاد الشرق شعرت من رسائله أنه يعيش من جديد تحت وطأة كمد شديد ، حتى أنه رفض أن يلقى محاضرة عن روزن فى الجلسة التى أقيمت بمناسبة ذكراه . وكان فى استطاعته أن يقوم بهذا العمل خيرا من جميع المستعربين .

وأثناء رحلتى فى الشرق حاولت أن أعيد إليه الحياة ، ونقبت فى القاهرة عن أى مادة علمية ولو بسيطة عن محبوبه الشعرانى حتى لا يترك دراسته عنـــه . ورجعت إلى بطرسبورغ ، وكان فرق العمر بيننا إذ ذاك أقل ظهوراً مما فى الماضى . وكان كل منا قريباً إلى الآخر تماما بفضل عملنا معا فى كرسى الاستعراب . فحملته على أن يبدأ فى آخر الأمر بطبع رسالته وأن يتغلب على عدم الثقة فى نفسه وقوته ، وهو المرض الذى أصابه . وكان عملانا يسيران فى خطين متوازيين . وفى وقت واحـــد طبعت رسالته وطبعت رسالتى عن الشاعر الوأواء .

ولقد كانت الحوائل كثيرة والأمور تتحرك فى بطء وكان شميدت يتأرجح مرارا ويقوم أحيانا من جديد بطبع كل المادة الجاهزة التى أعدها . وكان فى رسالته للماجيستر نص عربى صفت حروفه فى هولندا فى مطبعة بريل المعروفة لدى جميع المستشرقين . وقد تطلب حجم العمل نفسه وقتا كبيراً ، وكنت أقوم بتصحيح جميع تجارب الطبع لرسالة شميدت .

ونادرا ما كانت تحدث معركة بيني وبينه بسبب بعض مسائل ثانوية بحتة ، وأنذرته انذار الأصدقاء بأنني سأقص حكاية هذه المعركة عندما أقوم بمعارضته في مناقشة رسالته . ولم ينقطع عملنا بقيام الحرب العالمية الأولى .

وأخيراً في بداية خريف ١٩١٤ كانت كلتا الرسالتين جاهزتين . وقررت بإصرار أنني لن أسلم رسالتي إلى الكلية رسميا إلا عندما تتخطى رسالة شميدت كل إجراءاتها الرسمية .

وحدد يوم ١٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤ موعدا لمناقشة رسالته وأعددت نفسي لهذه المناقشة بجدية كاملة . وكان مجال الاستشراق الإسلامي يقف بعيدا عن اختصاصي المباشر في الأدب العربي . لكنني أردت بحكم الشباب ألا الطخ وجهي بالوحل . وأردت أن أعرض لذلك الجمهور الذي كان يقبل بكثرة نسبية على المناقشات العلمية في ذلك الوقت ، كل أهمية عمل شميدت بالنسبة لمجالنا العلمي . ولا أخفي أن بعض الزملاء في الكلية الذين لا يحسنون معرفة عمق علاقتنا الودية ، ونظرتنا إلى العلم ، كانوا ينتظرون نوعاً من المشاهد المسرحية من المرجح فيها أن يقوم إثنان من شباب العلماء : أستاذ وتلميذه بمعارضة كل منهما للآخر ويقوم كل منهما بمحاولة إغراق الآخر . إلا أنهم كانوا على خطأ في هذا الأمر . وقد تذكرت بابتسام حكايات روزن عن الصداقة الأكيدة التي ربطت بينه وبين معلمه كركاس منذ الشباب وكيف أن أعضاء بعض الكراسي العلمية الأخرى وبخاصة كرسي الدراسات التركية ، الذين كانوا يناصبون بعضهم العداء الدائم ، كانوا ينتظرون اليوم الذي يحدث أن تهب فيه عاصفة بين كل من روزن وكركاس .

وكنت أعرف جيداً رسالة شميدت .فقدقرأت تجارب طبع جزئها الأساسي ولم يكن عندي أي شك في أن الرسالة تمثل حدثاً كبيراً في مجالنا العلمي الوطني ، وتعد خطوة كبيرة في مجال العلم العالمي . لكنني في نظرتي إلى الرسالة وضعت لنفسي هدفاً يتطلب أموراً أكثر من اللازم . فقد قررت أن أتحقق منها آنذاك وفقاً لكل الأصول والمصادر التي تحتويها . لكنني وجدت كل شيء في هذه الناحية على ما يرام . وبالطبع كانت أحيانا تتكشف أشياء بسيطة تافهة وأشياء

أخرى غير متسقة نجمت من جراء طول مدة دراسة الموضوع وطول مدة طبع الرسالة . أما الأصول العربية للرسالة فقد وضح أنها مدروسة دراسة كاملة ولم أكتشف أى نقصان فيها . وهكذا ظل عملى حتى منتصف أيلول (سبتمبر) عندما بقى ما يقرب من شهر على مناقشة الرسالة .

وبينما كنت أستعد لمعارضة رسالة شميدت كنت فى الوقت نفسه أواصل عملا آخر شغفت به فى ذلك الحين . فقد كنت أحلم بتأليف فهرس مسلسل للمخطوطات العربية التى كانت فى مكتبة الجامعة . وقمت بالتدريج باختيار المؤلفات التى اهتممت بها بدرجة كبرى من الفهرس الذى قام بطبعه زاليمان وروزن فى وقت مضى . وذات مساء ، فيما كنت أستريح من تعب اليوم ، غرقت من جديد فى هذا العمل . وابتدأت يدى تكتب آلياً عنوانا غير معروف . فأصابتها فجأة رعشة كما لو مسها تيار كهربائى . ولم تكمل يدى كتابة الكلمة وانساب القلم عفوياً ساحبا ذيل الكلمة على الوريقة كلها . فقد وجدت أنه قد كتب فى الفهرس بخط واضح عنوان كتاب غير معروف لدى هو «تذكرة أولى الألباب فى مناقب الشعرانى سيدى عبد الوهاب» . وهذا المرجع لم يكن فى رسالة شميدت. فما معنى هذا ؟ فى الصباح أردت أن أحل هذا اللغز فتوجهت إلى الخزائن الخشبية المألوفة لدى بمخطوطاتها الشرقية فى مكتبة الجامعة . لم يكن هناك مجال لسوء الفهم، فقد اتضح كل شىء بسرعة . ذلك أن مجموعة الأستاذ الشيخ الطنطاوى التى آلت إلى مكتبة الجامعة كانت تتضمن فعلا سيرة واسعة نسبيا عن حياة الشعرانى وأجداده وأحفاده حتى القرن السابع عشر . وقد قام بتأليف هذه السيرة شخص يسمى بالمليجى الذى كان متوليا على مسجد الشعرانى بالقاهرة حوالى عام ١٧٠٠ . وقد عرف جيداً التراث الذى يرتبط بأهل بيت الشعرانى . والمخطوط نفسه مكتوب عام ١٧٢٣ . وليس المخطوط ببالغ الأهمية لكنه يكشف عن ترجمة فريدة لحياة هذا الصوفى ، ويحتوى على فهرس كامل لمؤلفاته ، ويحتوى على تفصيلات عديدة ممتعة على وجه العموم — عن تاريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر . وعلى الفور اتضحت لى أهمية هذا المخطوط لدراسة شميدت . ولكن كيف استطاع هذا المخطوط أن يفلت من يده ؟ لقد ظل هذا السؤال يبدو لى لغزا وخاصة فى جزء واحد منه . فالمخطوط نفسه يبدو أنه فريد بدون شك ويشير إلى ذلك

عدم وجود أية إشارة لا إلى المؤلف ولا إلى المخطوط فى كتاب بروكلمان المعروف لدى جميع المستعربين . وبروكلمان لم يستخدم تقريبا فهرس مخطوطات مكتبة جامعتنا . ويمكن أن شميدت لم يوجه لهذا السبب اهتمامه إلى هذا المخطوط . فيما بعد لعبت سخرية الأقدار دورها، الولوعة غالبا بالسخرية من العلماء . فإن شميدت الذى جمع بانتظام مادة لعمله الطويل من برلين ومن ليبزيغ وليدن لم يفكر بأن ينظر فى فهرس كان تحت يده من قبل لمخطوطات مكتبة الجامعة فى بطرسبورغ حيث كان يعمل دائما فى هذه المكتبة وحيث كان يوجد المصدر الأصلى الأساسى الذى على أساسه طبع أحد مؤلفات الشعرانى فى ملحق رسالته . وحتى أستاذنا روزن لم ترحمه سخرية القدر . لقد ظل أعواما كثيرة يتحدث مع تلميذه عن الشعرانى ، فكيف لم يتذكر طول هذه الأعوام الكثيرة مخطوط تاريخ حياة الشعرانى الذى أدخله روزن بنفسه إلى الفهرس فى وقت ما . إن هذا الأمر قد ظل إلى الأبد بالنسبة لى واحدا من الألغاز فى تاريخ علمنا ، المرتبط على ما يبدو غير قليل من الارتباط بالمصادفات والمفاجآت .

ولقد ذهلت عدة أيام ، لكن الأمر كان يتطلب حلا سريعا بسبب اقتراب مناقشة الرسالة . ولما كنت أعرف طباع شميدت فقد شعرت بأن أخباره بهذا الموضوع مباشرة ، يعنى لديه استدعاء نوبة من اليأس وقد يكون ذلك إلى الأبد مدعاة لعرقلة عودته إلى العمل العلمى بعد أن بدأ يستقيم عودها . وفى الوقت نفسه لم يسمح لى ضميرى العلمى بأن أخفى خبر هذا الاكتشاف إلى ما بعد مناقشة الرسالة . وأخيرا وجدت مخرجا من هذا الأمر . فقد كان واضحا لى أن المؤلف الذى طبعه شميدت يمثل دون شك مكسبا للعلم . فإن هذا العمل بالطبع هو أكبر مما يستحقه مجهود لدرجة الماجيستر . وأما ذلك المرجع الذى اكتشف مصادفة فيمكن دراسته مع الزمن . وقد ظهر لى أن النتائج الأساسية التى بناها شميدت على أساس مواد أخرى لن تتأثر أو تتغير . وكان يلزم بالطبع أن أخبر شميدت قبل مناقشة الرسالة .

وسرعان ما هدأت عندما وصلت إلى هذا الحل ، إلا أنى بدافع من شبابى ، سمحت لنفسى . قبل الكشف عن هذا السر لشميدت ، بأن أقوم بلعبة صغيرة . وكنت آنذاك أتقابل معه كل يوم تقريبا فبدأت ألسعه بالأسئلة التى أمدنى بها

مخطوط الجامعة : كم زوجة كانت عند الشعرانى ؟ كم كان طول قامته ؟ هل كتب هو هذه الموضوعات أو تلك ؟ ولم يستطع المسكين شميدت أن يجيب عن هذه الأسئلة بناء على المصادر المعروفة لديه ، فكان يزداد اهتماما بمعرفة من أين حصلت على هذه المعلومات . وبعد أسبوع كشفت له وحده عن اكتشافى مشفقا عليه من طول المقاساة . وكان رد الفعل لديه هو بالضبط ما كنت أخشاه .

فقد أراد من أول انطباع لديه أن يأخذ رسالته من الكلية وأن يؤجل حصوله على درجة الماجيستر . وكانت مشكلتى الكبرى فى اقناعه بالعدول عن هذا ، بترك الأمور تسير فى مجراها .

وأوشكت مناقشة الرسالة أن تؤجل لسبب آخر . وكما كان يحدث لى مرارا فى الظروف المهمة فى حياتى ، حدث أن مرضت أسبوع قبل مناقشة الرسالة وارتفعت درجة حرارتى حتى كادت تقارب الأربعين . ورقدت هامداً وابتدأ شميدت يقول من جديد أنه واضح أن القدر لا يريد أن تناقش رسالته فى وقتها . ولكن حدث ، لحسن الحظ ، أن الطبيب المنزلى الذى طلبت منه أن يجعلنى أقف على رجلى ولو ليوم واحد ، أعطانى على حد تعبيره « دواء يعطى للحصان » . وتوجهت من على الأريكة مباشرة إلى مناقشة الرسالة فى «ردنجوت» كما هى العادة آنذاك وكان هذا الردنجوت بالإيجار . وقد أحسست أثناء المناقشة بشعور غريب ، إذ سمعت صوتى بنفسى وكأنه ليس منى وكما لو كان المتكلم شخصاً غريباً .

وعلى كل حال ، جاء كل شيء على ما يرام . واستهللت كلمتى العادية — كمعارض « رسمى » فى المناقشة — ببيت من الشعر العربى : « أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى » . فنظر إلى شميدت — وهو فى ردنجوته أيضاً — من على منبره وابتسم ابتسامة طيبة . وكان هو الوحيد من بين الحاضرين الذى يعرف ما أقصد ، وعن أى شيء سيكون كلامى . ولم أخف اكتشافى . لكننى ألقيت عليه الضوء بالصورة التى رأيت أنها مناسبة للظرف القائم . وركزت كلامى على النواحى الأساسية الجديرة فى عمل شميدت . وحرم أولئك

الزملاء الفضوليون من « المسرحية » التي كانوا ينتظرونها وانتهت المناقشة بسلام .

لم يكن الجميع متفقين معي في وجهة نظري . ولم يكن الجميع فاهمين لها أيضاً . وقد حدث أن سيدة من بين الحاضرين قليلة المعرفة بنظام المناقشات العلمية ، فجعت بما تخيلته أنه هجوم على شميدت ، وعبرت عن غضبها بصوت مسموع . لكنها هدأت قليلا فيما بعد عندما أوضح لها شميدت حقيقة الأمر بعد جهد كبير. وعلى كل حال فقد كان لدى بعضهم من عدم الرضا ما هو أكثر من هذا .

وفي اليوم التالي ، في باحة الجامعة ، قابلت معلمي المحترم الأستاذ توررايف . وكان غاضبا لأن الكلية قبلت رسالة ينقصها أحد المراجع الأساسية ولم أسلم أنا أيضاً من غضبه . وحاولت أن أشرح له وجهة نظري ولكن محاولتي . كما اتضح ، كانت فاشلة . وأنا لست من أنصار المبدأ القائل « لتحقق العدالة وليهلك العالم » ، فإذا هلك العالم فأين إذن ستظهر العدالة ؟ إن العلم يتحرك بالأحياء من الناس ، وإذا نحن لم نفكر في هؤلاء الناس فإن العلم نفسه قد يتوقف . ولذلك فإنه يبدو لي الآن وبعد ثلاثين عاما أننا كنا على حق مع شميدت . وقد أوضح هذا امتداد حياتنا . ولم يكن بدون داع آنذاك أنه في العقد الرابع من هذا القرن — عندما كان يصل إلى ليننغراد من طشقند حيث كان قد رحل اليها سنة ١٩٢٠ — غالبا ما كان يطيب أن أتذكر معه كيف عثرت على مخطوط ترجمة حياة الشعراني وكيف كنت ألسعه بأسئلتي . وقد تذكرنا مؤامرتنا الصغيرة عندما وقفت لأول مرة أعارض رسالة علمية ، وتذكرنا خيبة أمل بعض زملائنا الذين كانوا ينتظرون أن يروا : أينا سيبدأ بان يقول للآخر أشياء غير طيبة .

على أن قصة المخطوط المكتشف لم تقف عند هذا الحد بل واصلت دورتها . وفي هذه المرة كان من نصيبي بعض من سخرية القدر « لكي لا يصيبني الغرور » — وهي العبارة التي فضل أن يقولها أحد العلماء الهرمين من خارج العاصمة . فقد انتهيت من مقالتي عن مخطوط الجامعة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ وعبرت فيها عن أملي بأن تكون النسخة الثانية لهذا المخطوط موجودة في وطن الشعراني في مصر. إلا أن هذه النسخة اكتشفت على نحو أسرع جداً وفي مكان أقرب جداً

مما كنت أتوقع . فقد اتفق فى تلك الأعوام أن كان عندى فى الجامعة طالب موهوب تبرز بوضوح شخصيته الخاصة وهو بلغارى ابن حداد واسم عائلته هو من الأسماء الشائعة فى بلغاريا وأعنى به شيشمانوف . وكان هذا الطالب يتميز بذوق أدبى كبير ودقيق . وكان يعرف مجموعة ضخمة من اللغات ، وكان فى ذلك الوقت شديد الانجذاب نحو محبوبى الشاعر الفيلسوف أبى العلاء ، وترجم ما يقرب من مجموعة كاملة من أشعاره الدرعيات . وقد اعدانى بانجذاباته الكثيرة المتعددة وقمنا معا بعد وقت متأخر قليلا بترجمة رواية « ايندميون » لورثر فون هيدينستام من اللغة السويدية إلى الروسية . وقد جرت حوادث هذه الرواية فى دمشق .

وفى صيف ١٩١٤ رجع هذا الطالب إلى وطنه ، فأوصيته بأن يبحث فى المكتبة العامة فى صوفيا عما إذا كانت ثمة أية مخطوطات عربية . وظهر أنه توجد هناك فى قسم تحت عنوان « الأرشيفات التركية » كل مجموعة « مكتبة بانا بازفانت أوغلو » وهى شخصية بلغارية تركية مشهورة عاشت فى بداية الزمن الحديث . والمادة الأساسية لهذه المجموعة مؤلفة من أقلية من المخطوطات التركية وأغلبية من المخطوطات العربية التى خزن معظمها آنذاك فى حالة جيدة .

وقد أرسل لى شيشمانوف الفهرس المختصر للمخطوطات التى اعتبرها طريفة جدا . وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت أن من بين مجموعة الفهرس نسخة أخرى لترجمة حياة الشعرانى بقلم المليجى . وعلى هذا النحو فإن هذا الأثر لم يكن بعد مسجلا فى أية مجموعة ، وغير المعروف حتى فى وطن الشعرانى . مصر ، قد عثر عليه فى مخطوطين جيدين فى بلدين سلافيين فى وقت واحد . من الصعب أن نفسر جميع هذه المصادفات فى تاريخ المخطوطات العربية ولكن من الواضح هذه المصادفات ستتكرر بالطبع فترة أخرى طويلة من الزمن . فعلمنا لم يزل فى مهده . وبلغاريا لم تدرس تماما من ناحية المخطوطات ، ولعلها تخفى أشياء كثيرة غير متوقعة أما كنا لا نعرف شيئا حتى هذه اللحظة عن مخطوط

« نزهة المشتاق » للإدريسى . هذا المخطوط الذى يوجد فى مكان ما فى مدينة شوملا والذى تسرب عنه خبر فى أحد المجلات الجغرافية . هذا مع العلم أن المخطوطات القيمة للإدريسى فى جميع أنحاء العالم يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة . على أنه فى مستهل العقد الخامس من هذا القرن عثر فعلا على مخطوط آخر لترجمة حياة الشعرانى ، بل وفى القاهرة هذه المرة .

٣ — من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبورغ

(١٩١٦ — ١٩٣٠)

منذ أكثر من مائة عام ، فى ٢٢ آب (أغسطس) ١٨٤٠ ظهرت مقالة غير عادية تماما فى جريدة « أخبار سانت بطر سبورغ » . « وكان « شارع نيفسكى الرئيسى » يلعب دوراً خاصاً فى ذلك الوقت بالنسبة لسكان بطر سبورغ الذين كانوا يتذكرون قصة غوغول المرتبطة باسم هذا الشارع . بدأت المقالة بعبارات رنانة بطريقة رومانتيكية عالية : « تسألنى من هذا الرجل الوسيم فى حلته الشرقية وعمامته البيضاء ، ولحيته السوداء كالقطران ، وعيونه الحية المتقدة شرراً ، ووجهه المعبر الذكى المحترق لا بشمسنا الشمالية الباهتة . لقد قابلته مرتين من قبل ، يسير مختالا على الجانب المشمس من شارع نيفسكى الرئيسى وكعضو دائم فى نيفسكى الرئيسى فى ذلك الهواء الجميل ، سرعان ما تراه ، ولا بد أنك تريد أن تعرف من هو » . ويبين الكاتب أنه هو الشيخ محمد عياد الطنطاوى الذى رحل من « شاطىء النيل » ليشغل الكرسى الخالى للغة العربية فى معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية . « الآن تستطيعون تماما أن تتعلموا التحدث بالعربية دون أن تسافروا من بطر سبورغ » . هكذا انتهت المقالة . وكان كاتبها عندئذ تلميذاً شاباً للمستعرب سينكوفسكى هو سافيلييف الذى صار فيما بعد عالماً معروفاً فى الآثار والنقود القديمة .

ومع الزمن ، وبعد عشرين عاما ، عرف قليل من قراء « أخبار سانت بطر سبورغ » أن قبرا جديدا ظهر قرب قرية فولكوفو فى المقبرة « التتارية » ، عليه شاهدة حسنة مكتوب عليها بالعربية وبالروسية . والنص الروسى يقول : « الأستاذ بجامعة سانت بطر سبورغ والمستشار برتبة عقيد ، الشيخ محمد عياد

الطنطاوى . مات فى ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦١ وله من العمر ٥٠ عاماً .
هنا انتهى طريق سيرة طويل وغير عادى مبتدئاً قبل نصف قرن فى قرية صغيرة قريبة من طنطا . هناك فى مصر .

فيا لها من زهرة نادرة تلك الشخصية التى تلألأت فى روسيا القديمة ! وهاهم المعاصرون يتحدثون عنها — عفو الخاطر — فى هالة رومانتيكية . وأن النغمة الرومانتيكية ترن فى مقالة « أخبار سانت بطرسبورغ » . وفى قصة أحد تلاميذ الشيخ الطنطاوى أنه عند استعداده للسفر إلى روسيا « اشترى جارية من قبيلته وأرسلها إلى باريس لتتعلم ثم تزوجها بعد ذلك » . واستطاع المعاصرون جيداً أن يعرفوا شكله وهيئته بفضل الصورة الرائعة التى رسمها له بيده فى نهاية ١٨٥٣ الفنان المشهور مارتينوف والتى توجد فى مجلد صور شخصيات العلم المعاصر . وقد ساعدتنا هذه الصورة على فهم ذلك الانطباع الذى تتحدث عنه مقالة « أخبار سانت بطر سبورغ » . ويبدو من هذه الصورة على ثيابه الشرقية وسام القديسة « أنـّا » (حنة) وبنعومة ضحك هو نفسه على هذا فى بعض أشعاره :

إنى رأيت عجباً فى بطرسبورغ وأنه
شيخ من المسلمين يضم فى الصدر حنة .

على أنه سرعان ما غاب الشيخ الطنطاوى عن عيون إخوانه فى وطنه ، وحتى فى نهاية العقد التاسع للقرن ١٩ لم يعرف الكثيرون منهم ما إذا كان حيا أم ميتاً .

ولعل هذه الشخصية الشرقية من أسلافنا ستبقى إلى الأبد بالنسبة لنا ، نحن المستعربين الروس أيضاً ، فى صورة رومانتيكية سائحة معتمة لو لم توجد مخطوطاته . فغالباً ما استطاعت المخطوطات أن تعرض المرء بصورة أحسن من معاصريه . فهناك فى مكتبة الجامعة عند تلك الخزائن من الخشب الفاتح ، شعرت لأول مرة بالطنطاوى الحقيقى ، ماملأ حياته فى القاهرة وفى بطرسبورغ . وفهمت من الأوراق التى كتبها بيده تلك المأساة الثقيلة التى أصابته فى آخر أعوام حياته . ولعل هذه الأوراق هى وحدها التى تعرف أمر هذه المأساة . ولم أدر منذ البداية كيف جذبتنى غريزياً هذه الشخصية الفريدة فى تاريخ مجالنا العلمى . وسرعان

ما عجزت عن أن أعزل فكري . وما كانت التنقيبات والبحث المتواصل لتضيفا عادة إلا قطعاً لتطعيم هذه الصورة . لكن الاكتشافات السعيدة والمصادفات غير المتوقعة غالبا ما كانت تضيء بنور ساطع امتداد الطريق إلى الأمام وسلوك الطريق إلى الخلف . وغالبا ما حملت على تذكر المثل القائل: « عند الصيد يستسلم الوحش بنفسه » . وقد سار هذا العمل كما هو دائما إلى جانب أعمال أخرى . واقتضى الأمر خمسة عشر عاما من العمل حتى تجاسرت على تأليف كتاب صغير ضمنته خلاصة معلومات هذه السنين التي استطعت أن أعرفها عن الشيخ الطنطاوي: إن القصة قد تحكى بسرعة ، أما تأليفها فعمل طويل .

في عام ١٩١٩ احتفل بالذكرى السنوية المئوية لجامعة سانت بطرسبورغ . وكان قد بدىء في الاستعداد لهذا الاحتفال مبكرا ، قبل الثورة . وفي ١٩١٦ كانت قد راودت الجامعة فكرة عن كتابة تاريخ الكراسي المختلفة فيها . وقد انفتحت لنا ، نحن المستعربين ، صورة عجيبة مشوقة . فأول أستاذ كان الفرنسي ديمانج (١٨١٩—١٨٢٢) . والثاني هو البولوني سنكوفسكي (١٨٢٢ — ١٨٤٧)؛ المعروف بلقب البارون برامبيوس . والثالث كان عربيا هو شيخنا الطنطاوي (١٨٤٧ — ١٨٦١) . وإذا كان لم يذكر عن الأستاذ الأول أي شيء لأنه لم يترك أي أثر في مجال العلم سوى ما ينسب إليه على غير أساس . من مأثرة تعليم الكاتب الروسي الكبير والديبلوماسي المعروف غريبويدوف اللغة الفارسية . وإذ كانت توجد كتب كثيرة عن الأستاذ الثاني ، حقا بوصفه كاتبا لا بوصفه مستعربا ، فقد وجدت ، فيما يتعلق بالشيخ الطنطاوي . أن المواد المطبوعة تنطوي على بعض الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم كما وجدت ببساطة غياب بعض المعلومات الهامة عنه . فكان لابد من بناء هذا كله من جديد . فتوجهت نحو الدرب المختبر : نحو المخطوطات .

كان معروفا لدى أن الشيخ الطنطاوي جمع بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلداً آلت كلها إلى مكتبة الجامعة . وكنت أعرف أن بينها آثاراً أدبية ممتعة ليست بالقليلة وأن جزءا منها دخل نطاق الاستخدام العلمي ،

لـكن ليس هذا ما كان يهمنى إذ ذاك. فما كنت فى حاجة إليه هو استيضاح ما إذا كانت المجموعة الأخرى من مخطوطات الطنطاوى تنطوى على أية مواد عن تاريخ حياته أو ملامح نشاطاته العلمية والأدبية . ولم يخب أملى : ففى أوائل هذه المخطوطات عثرت على مؤلفات . لم يرها أحـــد ، بقلم الشيخ الطنطاوى نفسه ومخطوطات لمؤلفين آخرين كان قد نسخها فى شبابه . وعثرت على مخطوطات فيها ملاحظات وإضافات وتعليقات له . وقررت أن أنظر وأفحص فى بطء المائة والخمسين مجلداً جميعاً صفحة صفحة . وقد زاد هذا العدد عندما وجدت أن بعض مخطوطات مجموعة الجامعة ، التى وصلت إلى المكتبة قبل الطنطاوى ، تتضمن أيضا ملاحظاته . كان العمل فنيا حتما يتطلب الدقة والتمهل . ولـكن هذا العمل وحده استطاع أن يعطى قاعدة ثابتة وأن يمنح بسخاء فى مقابل المجهود الصعب الطويل ، لا رضى النفس فحسب بل ونتائج حقيقية . ورويداً رويداً وخطوة خطوة ارتسم أمامى بالتدريج كل المجال العلمى والتعليمى لمعاصرى الطنطاوى . وبرزت أمامى اهتماماته الشخصية البعيدة عن نطاق هذا المجال ، ومحاولاته الأولية الوجلة فى جمع مواد تجيب على استفسارات أصدقائه وطلبته الأوروبيين . وقد ساعدت ملاحظاته وتعليقاته على صفحات المخطوطات فى إيضاح المراحل المتتالية من حياته. فأول جزء من مخطوطاته اشتراه عندما كان طالباً ثم معلماً فى الأزهر. والجزء الثانى يتضح من ملاحظاته عليه أنه قضى معه وقت فراغه غير الاختيارى فى الحجر الصحى الطويل فى أزمير أو استانبول ، وقت رحلته إلى روســـيا . وواضح من ملاحظات الجزء الثـالث أنه يطير بأفـكاره إلى وطنه من غربته البعيدة حيث أنهى حياته . وبالتدريج وضحت القـاعدة الزمنية لتاريخ حياته وابتدأت صورته الرومانتيكية الغائمة تزخر بألوان حياته الناصعة .

وكان العصر الجديد لـكل عملى هو عام ١٩٢٤ . فقد بدأ مواطنو الطنطاوى يتذكرونه عندما تيقظ اهتمامهم نحو الفترة القديمة من حياتهم . وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت (١٩٢٤) إشارات عنه فى أخبار المجمع العلمى العربى بدمشق وفى مجلات القاهرة. ووجدت أن وطن الطنطاوى لا يملك إطلاقا ما أملـكه من الموارد التى جمعتها . وبسعادة أسهمت بنصيبى فى الصحافة العربية للعمل على إحياء نموذج إنسانى لا تقل قرابته لنـا عن قرابته للعرب . وهنا ربطنى القدر من جديد مع

أحمد تيمور باشا العالم والمحب للكتب . وكان أفقه العلمى واسعاً . فلقد استطاع أن يفهم جيداً أيضاً الشاعر الفيلسوف الأعمى فى القرن الحادى عشر أبا العلاء الذى انجذبنا إليه معا . وبنفس هذا الفهم كان تيمور باشا يعرف أحد مواطنى بلده فى القرن التاسع عشر الذى عاش ومات بين الروس هنا فى الشمال . وقدر تيمور جهودى ، وبعد موته ، عرفت من ابنه أن صورة الطنطاوى التى أرسلتها له كانت دائماً على منضدته . وابتدأت أوروبا أيضاً تهتم بالأستاذ البطرسبورغى الطريف . وفى هذا العـام ١٩٢٤ نفسه كتب إلى محرر الطبعة العالمية المشهورة لدائرة المعارف الإسلامية التى تجدد صدورها بعد الحرب العالمية الأولى ، يسألنى أن أرسل له مقالة عن الطنطاوى . وإجمالا لعمل استمر قرابة عشر سنوات . شعرت شعوراً جلياً بنداء داخلى يهيب بى بإصرار أن على أن أؤلف كتابا عن الطنطاوى . وكما لو كان الأمر مكافأة على هذا القـــرار ، حمل إلى عام ١٩٢٤ اكتشافا مفرحا .

فعندما كنت أنظر عدداً من إحدى المجلات الإستشراقية خرج لتوه من المطبعة ، عثرت فيه على فهرس دورى للمخطوطات العربية فى مكتبات استانبول . وكان ينشر مثل هذه الفهارس من وقت لآخر واحد من العلماء الألمـان ، هو مستشرق فاشل لم يكن له مكان فى ألمـانيا فألقى مراسيه فى استانبول على وظيفة معلم متواضع فى مدرسة ثانوية . وبحماسه وعناده الـكبير استطاع أن يجد وقتاً ليغوص فى بحر كنوز المخطوطات . ومن هناك جذبت جواهر كثيرة . ورأيت فى الفهرس فجأة أنه قد ذكر مع الآثار القديمة فى جامع رضا باشا « بروميلى حصار » عنوانا حملنى على أن أنسى كل ما خلاه . والعنوان يقول : « تحفة أولى الألباب فى أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوى كتبه بخطه ســـنة ١٨٥٠م / ١٢٦٦ ه وأهداه إلى السلطان عبد المجيد » . ولم يكن لدى أية معلومات عن هذا المؤلف فى موادى العلمية ولم يكن تصورى لمـاهية هذا المخطوط إلا من قبيل التخمين . وكان أسرع ما ورد على خاطرى هو أنه وصف جغرافى عادى . ولم أصدق تماماً أن المخطوط هو بخط الطنطاوى فعلا . وخشيت أن يكون ثمة شىء من سوء الفهم . لـكن اسم الطنطاوى مذكور فى العنوان . ولم أعرف الهدوء ولا الراحة وكان على أن أنتظر مدة طويلة . وأخيراً فى ١٩٢٧ سمحت لى العلاقات

الدولية آنذاك أن أتسلم نسخة من المخطوط . وكان الحكم الذى خرجت به بناء على الخط الذى كتب به هو أن المخطوط منقول أو منسوخ بواسطة تركى لايحسن معرفة اللغة العربية ولم يكن ناجحاً دائماً فى فهم الأصل وبخاصة فيما يتعلق بالأسماء الروسية الصعبة أو المعقدة . لكن لم يبق أى شك فى أن المخطوط يرجع إلى الشيخ الطنطاوى . وأخذت عينى تتنقلا بانفعال على الصفحات ولم أستطع أن أفارقها شاعراً فوراً بأن هذا المخطوط هو أحسن مؤلفات الشيخ الطنطاوى . إلى جانب أنه قريب جداً لأنفسنا نحن الروسيين . فهو يعكس بروعة طبيعة الطنطاوى المتطلعة واستجابته لكل مظاهر حياتنا كما يعكس نظراته الدقيقة ومزاجه اللطيف الخير . ولم يكن المخطوط إذن وصفا جغرافيا عاديا كما تخيلته من العنوان ، أو بمعنى أدق لم يكن المخطوط مجرد وصف جغرافى. ففيه وصف الشيخ الطنطاوى بالتفصيل رحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ متذكراً كذلك رحلته إلى وطنه سنة ١٨٤٤ . وتحدث بالتفصيل أيضا عن انطباعاته عن روسيا والروسيين مدة العشرة الأعوام الأولى من إقامته فى روسيا. وتحدث عن أسفاره فى العطلات إلى بلاد بحر البلطيق وفنلنده . وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا فى العصر الحديث ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ فى عصره . كل هذا باشارات حية ناصعة هى الآن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن كما فى السابق . ولقد أسعدنى أن مخطوطاً آخر للطنطاوى أصبح معروفا للعلم ولأهل عشيرته . على أننى ما أن انتهيت من الدراسة الجيدة لنسخة مخطوط استامبول حتى وهبنى القدر مفاجأة أخرى مفرحة

ففى بداية خريف ١٩٢٨ دخل على ذات مرة تلميذى الموهوب الناشىء المتخصص فى الدراسات السامية الذى انطفأ سراجه مبكراً إذ حملته معها سنة ١٩٤٢ القاسية . وكان دائماً هادئاً ثابت الطباع وغالباً ما كان يزورنى حاملا مختلف الأسئلة العلمية . ولكن فى هذه المرة شعرت فوراً أنه لم يأت من أجل مسألة بسيطة . ووجدته يمد يده إلى فى هدوء عادى بمخطوط غلافه من الورق المقوى العادى ثم قال موضحاً : « هاك . وجدت هذا عند بائع كتب قديمة فى شارع ليتينى ويبدو أنه يتعلق بالجغرافيا . فقد تجدون فيه شيئاً ممتعاً لكم » . وما فتحت المخطوط حتى ذهلت . فلقد رأيت أمامى خط الطنطاوى فى نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر وهو الخط المعروف لدى جيداً . ونظرت بانفعال فى الصفحة

الأخيرة منه فذهلت مرة أخرى : إن مافى يدى هو ذلك المخطوط الذى كتبه الطنطاوى بنفسه عن « وصف الروسيا » وهذا المخطوط الذى فى يدى هو المسودة وبه تصحيحات وإضافات كثيرة جداً بخط المؤلف نفسه . وبالطبع فإن صديقى الشاب عرف جيداً أى كنز ثمين حمله إلى ، لكنه لم يرد أن يحرم نفسه من الاستمتاع برؤية كيفية استجابتى إلى هذا المخطوط . وعندما تطلعت إلى الغلاف فهمت للتو كيف وقع المخطوط عند ذلك البائع للكتب القديمة . فعلى الغلاف مطبوع بالحروف اللاتينية I.N « ا . ن . » وهو اختصار اسم ايرينى نوفل ، وهو عربى من طرابلس كان خليفة الطنطاوى فى التدريس بالقسم التعليمى للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية . وفى بداية القرن العشرين ذهبت مكتبة نوفل أدراج الرياح بفضل أبنائه الطائشين . وغالبا ما كان حطام هذه المكتبة — المأسوف عليها — يطفو فى أوقات مختلفة على سطح بحر الكتب فى بطرسبورغ وليننغراد .

إن هذين المخطوطين المكتشفين — أحسن مؤلفات الطنطاوى — ليعطيان الآن إمكانيات كاملة لنشره وترجمته بطريقة جيدة . لكن هنا بدأ القدر قاسياً فكلا تلميذى اللذان أخذا على عاتقهما هذا العمل أحدهما بعد الآخر ماتا مبكرين قبل أن يصل العمل إلى نهايته . وما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط « وصف الروسيا » هو فقط من مقالات صغيرة ومن الملخص العربى .

وإذا كانت نهاية حياة الطنطاوى قد اتضحت لى فى ختام دراستى له فقد تم ذلك أيضاً بفضل المخطوطات . فلقد عرفت من وثائق رسمية أنه من أيلول (سبتمبر) ١٨٥٥ — « عانى من شلل أصاب أطرافه السفلية » حسب تعبير اللغة الطبية الرسمية . أما ماذا عمل هو فى السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته فقد كان من الصعب على تصوره .

وهنا ساعدتنى المصادفة من جديد . فقد كان وما زال فى كل مكتبة كبيرة ، قديماً وحديثاً ، عاملون غير ظاهرين ، كأنما فقدوا تماماً معالمهم الشخصية ، وانصهروا مع المكتبة ، ومع تلك الأعمال التى تنشأ فيها . هم أنفسهم ليسوا مبدعين أو خلاقين ، بل ومن النادر أن يشغلوا بموضوعات علمية خاصة بهم . لكنهم

يعيشون فى اهتمامات الآخرين كوحدة عضوية معها . وهم جد ضروريين للعلماء . فبدونهم لا يمكن أحياناً أن تتم بعض الموضوعات أو تكتمل دراستها بطريقة حسنة . كان أحد هؤلاء العاملين شابا ولكنه غير طموح بسبب تشبعه بروح المكتبة . وهناك على المنضدة لدى خزائن المخطوطات حيث كنت انجز دراستى عن الشيخ الطنطاوى ، حمل إلى كوما من الأوراق الكبيرة المكتوبة التى ترجع إلى منتصف القرن التاسع عشر . وهى مملوءة تماماً بسطور عربية وروسية متداخلة مع بعضها . ولم تكن هذه الأوراق مسجلة فى أى سجل . وكانت ملقاة فى أسفل خزانة من خزائن المكتبة حيث اكتشفها هذا المستخدم ذو الروح الخيرة نحوى . والذى شعر بالغريزة أن لهذه الأوراق علاقة ما بشيخى الطنطاوى .

لم أستطع فى البداية فهم أى شىء . فكومة الأوراق تتضمن ما لا يقل مائة وخمسين ورقة مماثلة بخطوط كتلك التى يحب أن يرسمها الأطفال أحياناً على مساحة بيضاء خالية أو كخط مكسر غير واضح لشخص راشد يحاول أن يتعلم الكتابة وبعد أن قمت بترتيب الأوراق حسب شكلها الخارجى وحسب أرقام الصفحات التى وجدت على بعضها ، بدأت أفهم حقيقة الأمر . وعلى الفور أصبح هذا الأمر شيئاً مرعباً . فقد بدا أن الأوراق تتضمن جميع الموضوعات القريبة إلى الطنطاوى ، وهى تتضمن مجموعة أمثال باللهجة العصرية ونماذج من التحايا والأغانى العامية ومواد مختلفة عن البلاغة والنحو والألفاظ العربية . لكن كان من الواضح أن كل هذا كان مكتوباً بعد أن أخذ ، شلل رجليه ، ينتشر إلى يديه . وكان من المؤلم للمرء أن يرى كيف أن صاحب هذه اليد كان بالتدريج يتزايد صراعه فى حربه مع الكتابة . فلم يطاوعه لا القلم ولا الريشة . وكانا يخرقان الورقة عند كل حركة فى أثناء الكتابة . وكانت يده تحاول أن تحسن كتابة الحرف العربى أو الروسى وفجأة تنقبض يده مرتعشة فيجرى منه القلم على ما يقرب من الصفحة كلها . كانت المادة كلها حقاًحية وممتعة . ولكن إذا كنت قد فهمت الصفحات الأولى بصعوبة فان فهم ما بعد ذلك أخذ يتزايد سوءا . فأحياناً كانت الحروف تلتحم معاً فى صورة خط اختزالى أو ما يذكر بكتابة الأعمى الذى سلمت له فى يده عصاً يغمسها فى لون للصباغة ليكتب بها . وهكذا استمر الأمر على عشرات الأوراق . وهذه

السطور توضح ببلاغة وبفظاعة أيضاً كيف أن الطنطاوى كان يحاول بإصرار أن يمسك بالسراب لأداء عمل عقلى لم تمكنه منه يده الهامدة وهو الرجل ذو الطبيعة الحية التى لا تعرف التقهقر أو الاستسلام . ولو أنه وجد موضوع لرواية عن الطنطاوى فى قصص المعاصرين فإن هذه الأوراق تتحدث عن مأساة قاسية لانطفاء حياته . وفى آخر فصول هذه المأساة ينسدل الستار على موت البطل محترقا بنار شريرة من التسمم الدموى . وهكذا فتحت المخطوطات لى كل فصول مأساة تلك الحياة التى بدأت فى قرية مصرية صغيرة ، وتفتحت فى المراكز العلمية العربية فى طنطا والقاهرة ، ثم عبرت إلى عاصمة روسيا سانت بطرسبورغ وانتهت فى قبر ذى شاهدة ، هناك فى مقبرة فولكوفو .

وخرج كتابى عن الشيخ الطنطاوى فى بداية ١٩٣٠ ولم يعجب الكتاب الجميع لسبب ما ، ولكن أفرحنى أن المستعربين والعرب ، وبخاصة أهل وطن الشيخ ، قد قدروه وتحدثوا عنه بكلمات حارة . وقد قاسيت كثيراً عندما كنت أؤلف هذا الكتاب . وحتى هذه اللحظة عندما أسأل عن أعمالى أعتبرها أثراً جديراً فى العلم فإننى أشير دائماً إلى أربعة كتب أولها عن شاعر دمشق المرح الذى كان منادياً فى سوق الفواكه . وثانيها هـــو عن أهجية دقيقة للحكيم الأعمى الشاعر والفليسوف السورى . وثالثها عن بديع الشعر الذى ألفه أمير وشاعر وعالم لغوى رقيق كان لسوء حظه خليفة بغداد لمدة يوم واحد . وآخرها هو عن الشيخ المصرى الأستاذ فى بطرسبورغ . لكن يبدو لى أحياناً أنى أحب بالذات الكتاب الأخير وأفضله على الجميع . وغالباً ما كنت أفتحه لأتطلع إلى صورة ذلك الشخص الذى يدور حوله الحديث فى الكتاب .

٤ – الأنداس وليفينجراد

(١٩٠٥ – ١٩٤٢)

إن المستعرب الناشىء الذى يريد أن يقتحم حقا غمار العلم ، يقف أمامه طريق معقد متعرج أحيانا . فلا بد لهذا المستعرب ، قبل كل شىء ، أن يسيطر على أدوات ووسائل مختلفة للعمل . ولعل فى الصف الأول منها معرفة اللغات الأوروبية . ومع تقدم العلم يتزايد عدد اللغات اللازمة له . فقد انتهت إلى الأبد تلك الفترة من القرن الثامن عشر التى كان يستطيع فيها العالم أن يجد نفسه فى نطاق اللغة اللاتينية . والآن وفى الخطوات الأولى فإن هذا المستعرب الناشىء يدرك أنه لكى يستفيد من المراجع الأساسية الضرورية ، عليه أن يعرف لغات ثلاث ، هى الإنجليزية والفرنسية والألمانية بل ولابد أن تضاف لغة رابعة هى الإيطالية . فالدراسات الاستعرابية باللغة الإيطالية صارت فى الصف الأول من العلم العالمى منذ النصف الثانى من القرن ١٩ . وعلاقة أسبانيا مع العالم العربى واضحة للمستعرب من التاريخ المدرسى للقرون الوسطى لكنه يعرف حاليا أن المجموعة المتماسكة للمستعربين الأسبان خلقت مدرسة جدية منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وأن كثيراً من المسائل لايمكن استيضاحها بدون الرجوع إلى أعمالهم . وعندما يقرر هذا المستعرب الناشىء أن يتعمق فى مجال الدراسات الإسلامية الخاصة فإنه سرعان مايسمع أن أحسن محاضرات فى الفقه الإسلامى مطبوع باللغة الهولندية ، وكذلك فى كثير من الأعمال العلمية الأساسية عن التاريخ الداخلى للإسلام . وأن المدرستين الأصيلتين المتمعتين اللتين خلقهما المستعربون من السويد والدانمارك تحملانه على على أن يعرف اللغات الاسكنديناوية . وعليه أن يعتبرها مصادفة سعيدة له أن المستشرق المجرى الكبير من الجيل السابق والمتخصص فى الصناعات الإسلامية ، طبعت أكثر أعماله بالألمانية . والعلماء الفنلنديون يستعملون كثيراً اللغة السويدية ولغات أخرى أكثر سهولة . لكن هذا لا يكفى. فمن المخجل للمستعرب الروسى ألا يعرف الدراسات التى فى اختصاصه والتى كتبت باللغات السلافية : فعليه قبل كل شىء أن يتعرف بالتراث التشيكى فى كثير من العصور وأن

يتعرف على العلم البولندى الجديد الذى تمكن بقوة من تطوير علمه الاستشراقى بعد الحرب العالمية الأولى فى سلاسل الكتب وبعض المطبوعات الدورية . ويجب عليه أن يعرف أنه توجد باللغة الصربية كتب كثيرة تتعلق بدخول الكتابة العربية إلى البوسنة والهرسك . بل وأنه خلال عشرات الأعوام الأخيرة صدرت أعمال علمية كثيرة تتناول مسائل عامة فى الاستعراب . ومن المفيد له أحيانا أن يعرف اللغة البلغارية ، بل واللغة الأكرانية ليجد صورة حية عن العالم الإسلامى المعاصر ترجع إلى متخصص أوكرانى كبير* . ويجد أيضا بهذه اللغة ما لعله أحسن ما كتب فى الأدب الفنى وأعنى بهذا « قصص بيروتية » و « أغانى لبنان » .

وهكذا تتسع قائمة اللغات الضرورية له أكثر فأكثر . ولو أن هذه القائمة فتحت كلها دفعة واحدة فقد تبدو شيئاً مخيفاً مرعبا ، ولكن الإنسان فى تدرج حركة حياته يسيطر عليها دون أن يشعر بها هو نفسه .

ومفهوم للمستعرب ذلك الخوف الذى تظاهر به المستشرق الهولندى المشهور سنوك هيورغرونيه — الذى سبق له أن زار مكة فى صورة خفية سرية — عندما كتب إلى روزن فى نهاية العقد العاشر من القرن الماضى من مدينة باتافيا فى جزيرة جاوة يشكره بتهكم على إرساله المجلد الدورى لـ « دراسات الشعبة الشرقية للمجمع الروسى للآثار القديمة » التى كانت تخرج دائماً فى طبعة روسية فقط .

وقال أنه يترتب عن قريب على المستشرق الناشىء الذى يريد كتابة رسالة الماجيستر أن يتعلم ٢٤ لغة تلزمه للتعمق فى إختصاصة ، ولن تكون الروسية أو الهولندية من بينها فحسب ، بل وحتى لغة الملايو وأهل جاوة . ولحسن الحظ أنه ظهر أن كل هذا ليس فى الحقيقة شيئاً مرعبا إلى هذا الحد وأن وزن مختلف اللغات ليس متكافئا فى مجال الاستعراب ، وليست الحاجة إلى كل هذه اللغات فى درجة متساوية فيما يتعلق ببعض الموضوعات الخاصة القائمة بذاتها .

على أنه يكاد لا يوجد أى مستعرب أيا كان عمله المباشر لم ينجذب بقوة

* هو ا . كريمسكى مستعرب ومستشرق فارسى وتركى .

إلى جرس كلمة « الأندلس » بالذات . وهو الاسم الذى أطلقه العرب على أسبانيا . ولا يوجد المستعرب الذى لم يتعرف دراسات دوزى الكلاسيكية المفعمة بالرومانتيكية عن مسلمى الأندلس ، ومع أن هـذه الدراسات قد ولى زمنها بعض الشىء فإن جمال فنها لم يذبل . ولم يتغير رنين نغمها الذى كان يناسب أسلوب منتصف القرن التاسع عشر . وأن أى مستعرب فى أية فترة من نموه العلمى ليشعر بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (كما تسمى مجموعة أشعار مشهورة من القرن السابع عشر عن أسبانيا العربية) .

وأن أى مستعرب ليطير عفويا إلى ما وراء جبال البيرينه لا بأفكاره فحسب بل وبشعوره أيضاً . وليس من قبيل المصادفة أن روزن عند إعداده لكتاب القراءة — الذى لم تقتصر شهرته علينا — خصص جزءاً منه للشعر العربى الأسبانى ولم يستطع أن يقاوم رغبته فى نظم بعض الأبيات على وزن أشعاره فى الرثاء موجودة فى الكتاب كان قد ألفها شاعر وفارس عربى قديم فى الأندلس .

إلا أن الطريق من أسبانيا العربية إلى المستعربين الأسبان طويلة ومتعرجه أحيانا . ولا مدعاة للعجب من أن جهود الاستعراب الأسبانى ظلت فى كثير من الأحوال محجوبة عن نظر العلم الأوربى حتى الأزمان الأخيرة . وبهذا الخصوص كان حظى سعيداً . فقد سرنى أن امتداد « الخط الأندلسى » لاهتماماتى العلمية لم ينقطع مدة تقرب من أربعين عاما . وعن طريق الكتب والمخطوطات نفسها تعرفت على المستعربين الأسبان ، ومنذ وقت مبكر أضيفت إلى هـذه الكتب والمخطوطات مخطوطات أخرى هامة معاصرة وأعنى بها الخطابات والمراسلات التى انتعشت بالتدريج بصور أصحابها . ولكن الأقدار شاءت ألا أرى شخصياً أحداً منهم . وقادنى الطريق إلى الهدف ببطء .

عاش الاستعراب الأسبانى مدة طويلة فى ضوء كوكب نحس : ذلك أن حكم دوزى على بعض ممثليه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان حكما قاسياً وإن يكن عادلا . وقد امتد هذا الحكم بقوة سمعة دوزى لينتشر بصورة مشوّمة على جميع الأعمال الجديدة باللغة الأسبانية . وكف الجميع عن قراءتها

إلا أنه قد وجدت لحسن الحظ فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر جهود صحيحة لجيلين من المستعربين المتحمسين عملوا بإصرار وتسلسل دون خوف من العناء ودون أى اعتراف بهم تقريبا فى وطنهم ودون أن يحس بهم باقى أوروبا . وفى بداية القرن العشرين تغيرت الصور تماما وإن ظلت الجهود الأسبانية محجوبة عن الاستعراب فى البلاد الأخرى وحملتنى المصادفة على أن أفكر فى هذا .

ففى عام ١٩٠٦ عندما كنت أستعد لطبع أو استعراض للكتب الاستعرابية الجديدة التى تتعلق ببعض المسائل الخاصة ، التقيت فى مكتبة الجامعة بمصادفة بمجموعة تذكارية كبيرة كانت قد طبعت قبل عامين تكريما لفرانسيسكو كوديرا . وكانت المجموعة لا تتضمن سوى مقالة واحدة ضرورية لذلك الاستعراض الذى كان مهما لى آنذاك . لكننى دهشت بالمجلد الرائع المطبوع فيما يقرب من ٧٠٠ صفحة . وكان مجرد ظهوره شرفا لا للمدينة الاسبانية الاقليمية سرقسطة فحسب بل ولكل مركز استشراقى فى أوروبا . وإن عدد المشتركين الأسبان فى هذه المجموعة التذكارية والذين كتبوا عن موضوعات استعرابية ليشير وحده إلى جدية تلك المدرسة التى تكونت ، وكان أول ما أوحت إلى قائمة أعمال المحتفى به وصورته فى المجلد شعوراً بمثابرة هذا العامل العنيد ، الذى استطاع أن يجمع فى وئام ، بين كونه مؤرخاً ومتخصصا فى النقود القديمة ، وبين كونه مهندساً زراعياً ، وبين تأسيسه لمطبعة عربية صغيرة فى مكتبه حيث كان عمال جمع الحروف هو نفسه مع من علمهم من تلاميذه المستعربين .

ولكن ظهر أن هذا الانطباع الذى أوحاه هذا المجلد كان انطباعا عابرا . ولعل هذا المجلد لم يكن ليبقى أثرا ملحوظا فى نفسى لو لم تسانده تأثيرات أخرى آتية من جانب آخر .

وكان على الاستعراض الذى كنت أقوم به أن يمر عبر يدى روزن فألقى لفوره نظرة حادة على مقالة من المجلد الصادر تكريما لكوديرا ، وبحيويته المعهودة وبتعجب سألنى وكأنه منذهل : « من أين عرفتم هذا المجلد ؟ » ، وكان

يجب علي أن أعترف بأنني لقيته مصادفة في مكتبة الجامعة . » هذا عظيم ...
ولعلكم أيضاً تتعلمون اللغة الأسبانية بالمصادفة في وقت ما ! وإنه لمن التوافق أن
عالمنا المتخصص في الدراسات الأسبانية يتعلم الآن عندي القواعد العربية » .
ودار الحديث عن د . ك . بتروف المتخصص في الدراسات الرومانية ذي الشهرة
الكبيرة في ذلك الوقت ، الذي لم يخش أن يدخل في تعلم اللغة العربية مباشرة .
ومنذ تلك اللحظة ، كان روزن بحيويته المعروفة عنه ، يقاسمني الأفكار عن حركة
عمل تلميذه الجديد . وعرفت من روزن لأول مرة كتاب القراءة للبرتشونتدي
وسيمونيت الذي لا غنى عنه لأي مستعرب إسباني . وفي صيف عام ١٩٠٧
سافر د . ك . بتروف إلى الأستاذ زايبولد في مدينة تيوبينغين ، وكان
المستعرب الوحيد في ألمانيا العارف عن كثب بالمسائل الأسبانية . وكان في وقت
ما أمينا لدون بيدرو البرازيلي وقد قاما معا بترجمة « ألف ليلة وليلة » إلى اللغة
البرتغالية . على أن روزن لم يستلطف تماماً كون زايبولد قد حمل بنفوذه بتروف
على أن يقوم بنشر « طوق الحمامة » ، وهو كتاب مشهور عن « العشق والعشاق »
للأديب العربي الأسباني ابن حزم من القرن الحادي عشر . واعتبر روزن أن
القيام بمثل هذا العمل على أساس مخطوط ليدن الوحيد هو عمل شديد الصعوبة
على مستعرب ناشيء .

وفي ١٩٠٨ مات روزن . ورحلت إلى الشرق . وهناك أيضا توالت علي
الانطباعات الأسبانية من جانب جديد . في ذلك الوقت عرفت لأول مرة أن
في البرازيل وفي أمريكا الجنوبية عامة جالية عربية ضخمة جداً وأن كثيراً من
العرب المقيمين هناك ظهروا كشعراء وغالبا مايكتبون باللغة الأسبانية أو البرتغالية .
وقد حدث أن التقيت بكثير من اللبنانيين الذين كانوا هناك والذين يسيطرون
بطلاقة تامة على هذه اللغة أو تلك . كل هذا جذبني أيضاً إلى الأندلس . وفي النهاية
عطت عودتي إلى روسيا شكلا واضحاً لهذه الرغبات الغامضة .

وكان بتروف المتخصص في الدراسات الأسبانية يواصل إعداد لنشر طبعته
تلك عن ابن حزم . وبعد قليل وصلت أوراق تجارب الطبع . وباهتمام أسهمت
بدوري في هذا العمل . وكانت تحت أيدينا صور فوتوغرافية لمخطوط ليدن الفريد .

وخلال تطلعي إلى سطوره باهتمام ، دخلت تدريجياً حياة الأندلس وأذواقها الأدبية ، بصورة أعمق مما استطعت أن أحصل عليه من صفحات مؤلفات دوزى بفنيتها المجلوبة وبما يكسوها من الضباب الرقيق لرومانتيكية القرن التاسع عشر . وأخذت أسيطر على « وسائل العمل » شيئاً فشيئاً . وبصورة طبيعية تطور نظام التبادل التعليمي بيني وبين بتروف . فقد بدأ يحضر لسماع دروسي الخاصة عن الشعر العربي حيث غالباً ما كان يشكل نصف المستمعين في حجرة التدريس . وبالنسبة لنا نحن المستعربين فإن قلة عدد المستمعين لم تكن شيئاً غريباً . ودرسنا بحرارة شديدة المنتخبات الشعرية المشهورة « ديوان الحماسة » لأبي تمام من القرن التاسع ، ودرسنا بتأثر « المرائي» العربية القديمة . وحاولت ألا تفوتني محاضرات بتروف التي تتصل بأسبانيا ، ومع بعض المتخصصين الناشئين في الدراسات الرومانية دخلت اللغة الاسبانية القديمة دارساً « التاريخ العام » — وهو تاريخ العالم أجمع لألفونس العالم ، المشهور بصفة خاصة في تاريخ الثقافة العربية الأسبانية — أو غارقاً في دراسة المراجع العربية والأسبانية التي تتعلق بتاريخ الفتح العربي لأسبانيا والذي تحدث عنه بتروف في دروسه . وهنا ، وفي نهاية نصف السنة الدراسية كانت قاعة المحاضرة تتشكل أيضاً من شخصين وكان الثاني رفيقي الأصغر الذي كتب في ذلك الوقت رسالة ماجيستر عن تاريخ الشرق ، والذي صار فيما بعد أحد منظمي الاستشراق البولوني بعد الحرب العالمية الأولى . وقد مات في أعوام الشباب ، وكان أستاذاً بجامعة لفوف . ورويداً رويداً اتسعت دائرة « التبادل التعليمي » فقد أخذ يأتي إلى دروسي الأولية في اللغة العربية مستمعون نشيطون من المتخصصين الناشئين في الدراسات الرومانية من تلاميذ بتروف . وكنت أحضر بانتظام دروس اللغة البرتغالية التي كان يقوم بتدريسها في الجامعة أحد هؤلاء التلاميذ . وتفتحت آنذاك أمام عيني ولأول مرة الموهبة الأصيلة لعيسى دى كيروش . وقد جعلتني بعض أعماله أطير بفكرى إلى الشرق العربي بمثل قصص ا . أيركولانو التاريخية التي صورت عصر ازدهار الثقافة العربية في أسبانيا . وهكذا ارتبط الأدب العربي القديم في دروسي ، كوحدة عضوية مع الأدب المعاصر الأسباني والبرتغالي كليهما . وكلا الاتجاهين ساعد كل منهما الآخر وأوضحا أشياء كثيرة كانت ستبقى محجوبة لو سرت في اتجاه دون الآخر.

وفى عام ١٩١٩ عندما أنشئت دار طبع ونشر « الأدب العالمى » التى أسسها مكسيم غوركى ، والتى لعبت دوراً ثقافيا كبيراً ، شعرنا نحن « الشرقيين » بتلك الصلة التى لاتنقطع بين الشرق والغرب . شعرنا بها حية تماماً. وكان شغفنا بالقسم الغربى لمجلس دار الطبع والنشر لا يقل عن شغفنا بقسمنا الشرقى . وهناك كنا لا نعتبر أنفسنا ضيوفاً وإنما أعضاء عاملين .

وقد قمت عن شغف بتحرير ترجمة لقصه فلسفية لإبن طفيل ترتبط بالأندلس والتى أراد البعض أحياناً أن يرى فيها جد روبنسون كروزو . وبحب لا يقل عن هذا ، اشتركت فى عمل جاد عن ترجمة قصة أسبانية من عصر الموريسكيين لهنريكة لاريت . ورغم جميع الصعوبات التى كانت تعانيها العلاقات الدولية فى ذلك الوقت ، ابتدأت تصلنى بالتدريج أعمال المستعربين الأسبان الذين فتحوا أمام عينى عالماً جديدا وضاء لا تعرف عنه أوروبا إلا قليلا .

وأصبح معروفاً لدى — ولو بعد تأخير كبير — ذلك العمل العلمى الجرىء الموهوب الذى ظهر سنة ١٩١٩ عن تأثر « الكوميديا الإلهية » لدانتى بالغيبيات الإسلامية . وقد استدعى هذا العمل ما يقرب من مائة تقريظ فى كل العالم . وفى هذا الكتاب تحدث المؤلف فيما تحدث عن خصائص « رسالة الغفران » لمحبوبى أبى العلاء . وقد استجبت على هذا بمقالة حاولت أن أعرض فيها إلى أن مؤلف الكتاب عبثاً يرى فى هذه الرسالة الساخرة الرقيقة والممتعة عن التصورات الإسلامية للحياة الآخرة — مجرد قصة المعراج (للنبى محمد) .

وقد تسربت إلى الخارج وبطرق مجهولة إشاعات عن اهتمامى بالموضوعات العربية الاسبانية . فتلقيت فى نهاية عام ١٩٢٦ رسالة من محرر غير معروف لدى شخصياً هو محرر المجلة العالمية "Litteris"، التى كانت تطبع فى السويد ، وتختص بتحليل الأعمال الرائعة الصادرة بجميع اللغات الأوروبية فى مجال العلوم الإنسانية .

وكان المحرر يطلب منى أن أرسل إليه تقريظاً عن الكتاب الذى ظهر لتوه لمستعرب أسبانى ناشىء عن أحد مصادر قصة ابن طفيل ، ويعتذر لى عن توجهه إلى ، إلا أنه يضيف أنه لا يعرف مستعربين فى أوروبا يتتبعون الدراسات

التي كتبت باللغة الإسبانية . وفى ذلك الوقت لم يكن بتروف بين الأحياء . وكان هذا الكتاب معروفاً لدى تبعاً لشغفى آنذاك بهذا الموضوع . وقد أثار فى نفسى انطباعاً عظيما . وشعرت فوراً بتلك الموهبة الكبيرة فى هذا العمل الذى لعله أول عمل لهذا العالم الناشىء . وبكثير من طيبة الخاطر ، كتبت المقالة المطلوبة . وفى عام ١٩٢٩ تسلمت طلبا مماثلا بخصوص عمل جديد قام به هذا المستعرب نفسه .

وفى تقريظى هذه المرة لم يسعنى إلا أن أدافع عن المؤلف الناشىء ضد ما استدعاه كتابه من هجوم بدأ لى غير عادل ، شنه رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق على العلم الإسبانى عموماً . وعرفت بارتياح فيما بعد أن ممثلى الصحافة العربية الجادة انحازوا إلى جانبى فى هذه المناقشة العلمية الصغيرة الطارئة . على أننى لم أكن على خطأ فى تحديدى موهبة ذلك المستعرب الناشىء العلمية . ذلك أنه سرعان ما حصل فى مسابقة علمية صعبة على أحد كراسى الشرف الإسبانية الأولى من كراسى اللغة العربية : كرسى غرناطة .

وقد تلقيت رسالة جاء فيها أن تقريظى لعبا بعض الدور فى هذا ، وكان ممتعاً جداً لى أنه أهدانى فى عام ١٩٣٤ عمله الجديد وفى بطاقة منفصلة فى هذه الطبعة الجميلة ، إشارة إلى اسم غريب لعالم ما هناك فى الشمال فى لينينغراد ، لعله أثار انطباعا غريباً لدى أهل وطن المؤلف فى الأندلس .

هذا وقد ظهرت لى نتيجة أخرى مهمة جداً تتمثل فى ارتباط صلتى تدريجياً مع العلم الإسبانى . فمنذ تلك اللحظة صرت أتسلم كل جديد يخرج من الكتب الإسبانية يتعلق بالاستعراب . وكان مثل هذا الكرم مبعثاً لحيرتى فى بعض الأحيان . وكانت الكتب تطبع عادة بطريقة عظيمة بل بطريقة فخمة من وجهة نظر علمنا المتواضع .

ومن بين هذه الكتب وصلتنى مراراً أبحاث ضخمة مثل ذلك العمل الذى خرج فى أربعة أجزاء ضخمة عن أرشيف وثائق «المستعربين»(*) فى مدينة طليطلة .

(*) هى الطائفة المسيحية الاسبانية التى احتفظت بدينها لكنها تكلمت العربية .

وبفضل ذلك الاهتمام الذى لم يتحول تسلمت ، عام ١٩٢٨ ، مجموعة مقالات فى مجلدين لرئيس الاستعراب الإسبانى فى ذلك الوقت خوليان ريبيرا . وكان تلاميذه قد قاموا بطبع هذه المجموعة بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاما على أستاذيته . وقد أعجبتنى وأدهشتنى هذه الهدية الجديدة بصورة لا تقل عن تلك المجموعة التى وقعت فى يدى مصادفة قبل عشرين عاما وهى المجموعة التذكارية الصادرة تكريماً لكوديرا أستاذ ريبيرا . وفى هذا الكتاب الذى تسلمته أخيراً عن رئيس الاستعراب الاسبانى ينفتح أمام القارىء لا التطور البالغ العبر لهذا العالم الكبير فحسب ، وإنما تنفتح أيضاً صورة خلابة عن تطور الاستعراب الاسبانى كله طيلة نصف قرن .

ولم أستطع أن أقف دون تأثر أمام الاستعراب الإسبانى، وآلمنى أن لا يكون حتى لدى المتخصصين فى البلدان الأخرى إلا القليل من المعرفة عنه . وانتهزت فرصة بعض الفراغ فى صيف ١٩٢٨ ، إذ استطعت قضاء شهرين فى محافظة بولتافا على شاطىء نهر « بسلا » فى بلدة بإسم رائع هو «جبل بوت» ، وهنالك أعددت عرضاً مفصلا عن مجموعة ريبيرا ذات المجلدين . ولم تستطع جدية الموضوع أن تحول بينى وبين دعابة صغيرة بإشارتى فى نهاية مقالتى المطبوعة إلى اسم المكان الذى كتبتها فيه . وما يلتمس لى العذر فى هذا أن روزن أيضاً سمح لنفسه بدعابة مماثلة . فقد كان قراء تقريظ من أحسن تقاريظه ، يقفون أحياناً محتارين أمام كلمة « قلعة الجوع » وهى اسم المكان الذى كتب فيه تقريظه . وكانوا يعرفون أنه لم يسبق له مطلقاً أن عاش فى الشرق .

وقد عجز حتى المستعرب عن أن يخمن على الفور أن هذا الاسم ليس إلا ترجمة عربية مضبوطة للاسم الألمانى لقرية « هو نغربورغ » حيث أمضى روزن الصيف فى المنزل الريفى . فلنترك « كوه بوت » لا تحمل الآخرين على التفكير فى الفرس أو الهند ، وليعلموا أنها ليست إلا التعبير الفارسى عن كلمة « جبل بوب » . وعندما كنت أؤلف باهتمام وشغف مقالتى التى كنت أحلم بأن أسدد بها بعض ما على من دين أمام الاستعراب الإسبانى ، تذكرت هنالك فى موقف «غوغولى» أن غوغول كتب فى وقت ما عن الخليفة المأمون وأن لغوغول صفحات رائعة عن الثقافة

العربية هي في الحقيقة صفحات فنان لا عالم . وعرفت فيما بعد أن مقالتي ترجمت في أسبانيا إلى اللغة الاسبانية وازداد دعم الصلات بين مستعربي البلدين .

وبالطبع فإن تبادل المشاعر لم يكن يستمد وجوده من الكتب وحدها ، وإذا كانت المخطوطات لعبت في هذه العلاقات دوراً أقل فذلك ، أغلب الظن ، لأن في مجموعاتنا آثاراً قليلة نسبياً من الأصول الأندلسية والمغربية . ولكن مخطوطنا الفريد المعروف لابن قزمان غالباً ما كنت أقض مضجعه من أجـــل الرد على استفسارات الأصدقاء الأسبانيين .

وكانت حيرتهم لاتقل عن حيرتنا بخصوص لوحة نحاسية مغربية مخزونة في مجموعة لينينغراد . ولم يكن مفهوماً معناها أنذاك ، ثم قامت بنشر صورتها عالمة في علم خطوط الآثار القديمة(*) . ولم توجد لوحات مماثلة لها إلا في أسبانيا لكنها بقيت في مستواها الملغز الغامض . وصارت تظهر بعض المخطوطات التي لم تدرس من قبل في لينينغراد بفضل مسعى جديد للمستعربين الأسبانيين .

فإن هؤلاء المستعربين الأسبان وضعوا بشجاعة في عام ١٩٣٣ بداية لتجربة لم يشهدها من قبل تاريخ علمنا على نطاق واسع ، هي تأسيس مجلة خاصة بالاستعراب . وفي عنوان المجلة ترن تلك الكلمة الساحرة « الأندلس » وكانت المجلة تتعلق بكل الموضوعات الاستعرابية مع فهم واسع لها ومع اهتمام يميل بالطبع نحو أسبانيا وشمال أفريقيا . وكانت المجلة تطبع بطريقة منظمة ولطيفة وكانت صفحاتها المضيافة مفتوحة دائماً أمام جميع العلماء من جميع القوميات ، وأمام المقالات المكتوبة باللغات الأوروبية الاساسية . وسرعان ما صارت الكتب الخضراء له و مجلة الأندلس » مجلة عالمية وأخذ يتوجه إليها المستعربون من جميع البلدان . وولدت عندي بالتدريج فكرة عن تعريف الزملاء الغربيين في بعض مقالات متسلسلة . بأهم مخطوطات مجموعاتنا التي ترتبط مع الأندلس أو المغرب . وبدأت هذه المقالات بمجموعة قريبة مني في مكتبة الجامعة هي مجموعة الشيخ الطنطاوي التي لم تحرم من الأهمية في هذا المجال أيضاً .

(*) هي زوجة المؤلف الأستاذة كراتشكوفسكايا المتخصصة في هذا العلم بجامعة لننجراد .

وكانت أول مقالة هي عن كتاب أشعار مكتوب بخط مغربي عادى فى السنوات الأولى من القرن الثامن عشر وهو مخطوط ممتع بالنسبة لتاريخ الأدب فى العالم العربي كله. وقد ضاعت بداية هذا المخطوط منذ وقت بعيد. ولهذا كان مؤلفه غير معروف. وبدا لى أن هذا المخطوط فريد إلا أن مقالتى كانت دافعة لاكتشاف نسخة أخرى فى مدينة «فاس»، ولكنه لم تظهر عنه معلومات أكثر من هذا فيما بعد. وقد حدثت للمقالة الثانية التى أعددتها للعدد التالى من مجلة «الأندلس» مفاجأة ممتعة لها مثيلات كثيرات فى حياتى كمستعرب. فقد كان أحد تلاميذى يواصل إعداد فهرس المخطوطات الذى كنت بدأت العمل فيه لمجموعة الطنطاوى نفسها فوجد صورة مختصرة لمؤلف كبير الأهمية لتاريخ الأدب الأندلسى. وفى رأيى أن هذا المخطوط كان فريداً بالنسبة للمجموعات الأوروبية.

ومؤلف هذا المخطوط قريب لى منذ وقت بعيد: فقد كان موظفاً كبيراً فى الديوان فى عصر المماليك بمصر، وإلى جانب هذا وجد أيضاً وقتاً لأعماله الأدبية. وكنت قد اكتشفت فى المكتبة الجامعية أيضاً مؤلفاً آخر له لم يكن معروفاً من قبل. ومن ذلك الوقت يرن اسم ابن مماتى بصوت لطيف حان هو «مامتى» أى «أمى»، وهو الإسم الذى أطلقه على جد بن مماتى أطفال الشارع القاهريون الذين كان يطعمهم هذا الجد وقت المجاعة الشديدة التى نزلت بمصر. وكان وصفى لمخطوط ابن مماتى جاهزاً فى ذلك الوقت الذى تسلمت فيه العدد الجديد من سلسلة الكتب الخضراء «مجلة الأندلس»

وكانت دهشتى شديدة عندما فتحت هذا العدد وعثرت فيه فوراً على مقالة لصديقى الأسبانى الناشىء الذى كان آنذاك أحد محررى المجلة. والمقالة هى عن وصف الصورة المختصرة لنفس ذلك المخطوط حسب مخطوط القاهرة الذى اعتبره كاتب المقالة مخطوطاً فريداً. وفقد مخطوطنا هالته ولكن المقالة التى أعددتها ظلت محتفظة بأهميتها فصدرت فى العدد التالى من «مجلة الأندلس» سنة ١٩٣٥. وقد أعددت مقالات أخرى للسلسلة التى قررت أن أواصل كتاباتها، لكن سرعان ما اشتعلت الحرب فى أسبانيا وتوقفت «مجلة الأندلس» عن الوصول إلى لينينغراد بل إن المجلة لم تعد تصدر بعد ذلك.

وبالطبع مازالت أفكارنا كسابق عهدها تتوجه إلى الأندلس . ويتضح هذا من كتيب صغير هو « الثقافة العربية فى أسبانيا » ؛ ومن مقالة عن الشاعر العربى « البستانى » فى الأندلس ومن كتاب كبير عن الشعر العربى فى أسبانيا . لكن كان الحزن يكتنف كتابتها وطبعها . ذلك لأنى عرفت أن الكتب ستبقى غير معروفة لدى المستعربين الأوروبيين الذين قد يكونون أكثر الناس قرباً وفهماً لها .

وازداد حزنى فى ربيع ١٩٤٢ فى ليننغراد المحاصرة ، عندما اكتشفت بين مخطوطاتنا ترجمة حياة مجهولة لمؤلف كتاب أشعار « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » . وتمثلت لى حية تلك السعادة التى سيكون عليها محررو « مجلة الأندلس » لو شاهدوا مقالة عن هذا المخطوط على صفحات مجلتهم ... لكن لم الحزن ؟ إن كابوس الليل تزول آثاره مع خيوط الفجر . وسنظل نفكر فى مجىء ذلك اليوم الذى يبدأ فيه من جديد جميع المستعربين الأسبان والروس عملهم المشترك فى حقل بلا حدود هو حقل العلم الإنسانى العالمى .

وسيجىء يوم تظهر فيه من جديد على مكتب المستعرب ليننغرادى ، سلسلة الكتب الخضراء « مجلة الأندلس » قرة العين .

٦ – من سار على الدرب وصل

١ – لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ

(١٩٣٠)

ينبغى لمستعرب الجيل المعاصر ، من أول خطوات عمله الذاتى أن يأخذ فى الحسبان قانوناً ضرورياً هو قانون تصنيف العلم . وليس اليوم كالأمس . فلا يمكن له أن يتخصص فى آن واحد فى ثلاثة مجالات هى اللغة والأدب والتاريخ . ذلك أن كل مجال من هذه المجالات قد تطور واكتنز بمادة كبيرة إلى حد لاتكفى معه حياة الإنسان للسيطرة على هذه الثروة حتى ولو بالنسبة لمجال واحد منها . وبالإضافة إلى هذا التصنيف للعلم هناك اختصاصات جديدة وجديدة تكتسب بالتدريج وجوداً مستقلا لها ولايمكن للعالم أن يسطر عليها إلا إذا أعطاها كل حياته كاملة .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، وبفضل جهود الهولندى سنوك هيورغرونيه والمجرى غولدزيهير اكتمل تكون علم الاستشراق الإسلامى .

ويتطلب العمل الآن فى مجال هذا العلم إعداداً جدياً طويلا . وقد ابتدأت الدراسات الثانوية تحيا الواحدة تلو الأخر حياتها الخاصة فى التاريخ ، وتتمثل هذه الدراسات فى علم خطوط الآثار القديمة ، وعلم الخطوط الأثرية ، وعلم النقود القديمة . وجميع هذه العلوم تتطلب السيطرة على مجموعة خاصة من المعارف اللازمة لها . وأخذ علم اللهجات منذ القرن العشرين ، يلعب دوراً مهماً فى علم اللغة . وتلعب دراسة الأدب الحديث دوراً مهماً أيضاً فى تاريخ الأدب وهى دراسة تستطيع أن تبتلع الإنسان تماماً إذا هو لم يرد أن يبقى هاوياً يلمس الموضوعات المختلفة بالصدفة وبطريقة سطحية .

ومن بين الاختصاصات الضيقة المتعددة فى الاستعراب ، انفصل منذ وقت بعيد ذلك الاختصاص الذى يمكن أن يسمى ، اصطلاحاً ، علم الدراسات السبئية .

وهذا يعنى دراسات اللغة والثقافة العربية القديمة فى الجنوب . وقد ارتبطت هذه الدراسات من حيث الزمن مع الشرق فى العصور الوسطى . الأمر الذى تتميز به المجالات الأخرى فى الاستعراب . فالفرق فى اللغة والحروف التى كانت أقرب إلى اللغة الحبشية منها إلى العربية نفسها ، وانعدام التأثير انعداما تاما تقريبا على الثقافة العربية الإسلامية تركا علم الدراسات السبئية إلى حوزة مؤرخى الشرق القديم أو علماء الاستشراق الحبشى . ومنذ نهاية القرن التاسع عشر نمت المادة العلمية فى ميدان الدراسات السبئية بسرعة كبيرة وذلك بفضل ظهور المطبوعات الجديدة التى نشرت الخطوط العربية الأثرية فى الجنوب . لكن لم تظهر فى هذا العلم الكتب التعليمية العادية : فلم يكن ثمة ، خلال مدة طويلة ، أى كتاب نحو أو قواعد .

وكتاب القراءة لم يظهر إلا فى العقد الرابع من هذا القرن بل لا يوجد حتى الآن أى معجم لغوى . وقد كانت أداة العمل الأساسية عادة فى هذا العلم "Corpus" ، فهرس مجموعة الخطوط الأثرية باللغة السامية الذى يطبعه المجمع العلمى الفرنسى للخطوط الأثرية . وأخيراً ، أضيف فى السنوات الأخيرة إلى وسائل العمل فى هذا العلم "Répertoires" ، فهرس لكل ما طبع ونشر من الخطوط الأثرية العربية فى الجنوب ، وفيه إشارات إلى الأبحاث الهامة عن هذه الخطوط الأثرية. وظهر بالتدريج فى كل بلد تقريبا متخصص فى الدراسات السبئية وقد يقرب عددهم الآن من عشرة أشخاص فى العالم كله .

وكما يحدث غالبا فى العلم فإن أعظم العلماء لا يولدون دائما فى أعظم البلاد . وحتى العقد الرابع من هذا القرن كان أعظم المتخصصين فى الدراسات السبئية من النمسا والدانمارك وبلجيكا وإيطاليا .

ولم يكن لدينا مطلقا فى مجموعاتنا للآثار العربية القديمة فى الجنوب أية نماذج مهمة إلى هذا الحد أو ذاك . ولم يتكون لدينا أى تراث فى هذه الناحية .

فقد كان مستعربونا مرتبطين دائما مع الشرق الإسلامى أكثر من ارتباطهم

مع الشرق القديم أوسع الدراسات السامية . ولم تتولد لديهم أية مبادرة من هذه الناحية أيضا .

ولم يكن يحمل أحيانا على التفكير فى « العربية السعيدة » سوى تلميحات غامضة من صدى الأساطير القديمة . لكن هذه التلميحات لم تجد لنفسها إسناداً فى مادة الآثار الحقيقية فذهبت دونما أثر إذ حجبتها بالتدريج صور أقرب لنا من الثقافة العربية فى عصر الخلافة .

هكذا كان الأمر معى أنا أيضا . وقد تمثل أمامى فى سنوات التلمذة بالمدرسة الثانوية وفى هالة من الرومانتيكية والغموض نموذج ملكة سبأ التى ذهبت فى وقت ما إلى سليمان الحكيم لتختبر حكمته وتطلب منه حل بعض الألغاز .

وفيما بعد وجد هذا النموذج لنفسه قبسا من النور فى قصة إسلامية عن الملكة بلقيس . وكنت قد عثرت على هذه القصة مصادفة فى كتاب القراءة العربية الذى وقع فى يدى عندما كنت فى السنة الأولى بالجامعة . وقد مدت الدراسات الحبشية فى تلك السنوات جسرا للعبور إلى جنوب الجزيرة العربية .

وعندما كنت أستعد لامتحان الماجيستير اعتبرت من المهم التعرف ولو قليلا مع كتاب خوميل للقراءة بلغة جنوب الجزيرة العربية المطبوعة بطريقة الليتوغراف . وكان هذا الكتاب هو المصدر الوحيد آنذاك .

ولم يكن هناك غذاء جيد فى حقل الدراسات السبئية . والتعويذة المعروفة من جنوب الجزيرة العربية وجدت فى مجموعة ن . ب. ليخاتشيف المملوءة بمختلف العجائب . ولكن هذه التعويذة لا تتضمن إلا ستة رموز سبئية . وقد قمت بكتابة مقالة استهدفت منها اكتمال المعلومات بصورة أكثر من استهدافى اغناء المعرفة عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية بصورة جدية .

وعندما كنت أتطلع أحيانا فى الصور أو الرسومات الأثرية المأخوذة فى المتاحف الأوروبية لم أكن أفكر مطلقاً فى أنه قد تأتى لحظة أفك فيها بنفسى رموز خطوط أثرية لم تقع فى يد أحد من قبل . وأن أحدد أهمية هذه الخطوط .

وقد حدث هذا فى وقت متأخر جداً ، سنة ١٩٣٠ ، عندما نسيت كثيراً من المعرفة التى اكتسبتها أثناء استعدادى لرسالة الماجستير . ولم أكن أظن أن هذه المعرفة ستكون ضرورية فى وقت ما لحل هذه المهمة غير المنتظرة .

وفى نهاية العقد الثالث من هذا القرن ارتبطت لأول مرة علاقاتنا الرسمية المباشرة مع اليمن . وكان مركز هـــذه العلاقات هو تمثيلنا التجارى فى صنعاء العاصمة الحالية لليمن السعيدة .

وقد استدعت هذه العلاقات ظهور فيلم عن اليمن ، وظهور بضعة كتب صغيرة تحتوى وصف رحلات فى هذه البلاد الغامضة فيما مضى والتى كان يصعب الوصول إليها . وإلى جانب هذا كان لهذه العلاقات بعض النتائج العلمية . لكنها لم تكن للأسف فى ذلك الحجم الذى يريده المستعرب .

وقد قام الأشخاص ذوو التحصيل الاستشراقى الذين كانوا هناك لمقاصد خيرة بجمع مادة عن اللهجة اليمنية مبتدئين من الكلمات المفردة والأشكال النحوية حتى ألوان الحوار المتصلة . وجمعوا نصوصا من الأدب الشعبى ، بل وحتى بعض القصص .

وقد جمعت كمية هائلة من هذه التسجيلات لكنها سجلت بدون سابق إعداد تخصصى ، وبدون معرفة لعلم اللهجات العربية ، وبدون المعرفة الأساسية لطرق التسجيلات المقررة فى العلم . وظهر أن كل هذه المواد تقريباً ، هى بدون نتيجة للعلم وذلك لعدم إمكانية المراجعة الجدية لصحة هذه التسجيلات فى أماكنها .

وهكذا كانت الصورة حزينة ، ومثلها كانت أيضاً تلك الصورة التى فتحتها « الآثار القديمة » التى اشتريت بكثرة من اليمن . ولا شك فى أنه كان أكثر فائدة لو أن الذين سافروا إلى هنالك وضعوا لأنفسهم هدفا يرمى إلى إكمال مجموعاتنا الاثنوغرافية أو يرمى إلى شراء المخطوطات العربية التى كانت توجد هناك ، عندئذ كان من المحتمل أن يكون الأسف أقل بدرجة كبيرة جداً . وواضح أن هواتنا لجمع الآثار القديمة لم يظنوا أنه تطورت فى اليمن منذ وقت قديم حرفتها الخاصة

بتزييف الجديد حتى يبدو قديماً والأساس الذى يستند عليه هذا التزييف بصورة واسعة جداً هو الأساس التجارى .

ففى صنعاء نفسها بل وأكثر منها فى المدن الصغيرة والقرى المجاورة لها توجد بعض المحلات العجيبة للصناعة اليدوية . وفى هذه المحلات غالبا ما كان الصياغ أو الجواهرية أو النقاشون ، يقومون بتزييف الخطوط الأثرية على البرونز والحجر بحيث يصبح مشابها للتماثيل القديمة وللتعاويذ المختلفة . ولم يكن الإقبال على هذه التجارة فى صنعاء كبيراً ، لأنه كان يعيش هناك عدد صغير جداً من الأوروبيين . وإنما كانت هذه البضاعة تصدر بصورة أساسية فى صناديق كاملة على ظهور الجمال متوجهة بطريق القوافل إلى عدن حيث كان مهرة التجار يبيعونها بالمرفق للسفن العابرة للمحيطات التى ترسو بعدد كبير فى هذا الميناء .

وكان السياح من مختلف القوميات يقبلون بسعادة على شراء هذه « الآثار الألفية من اليمن السعيدة » . بل وشكلوا منها أحيانا مجموعات كبيرة أثناء عودتهم من رحلاتهم إلى الشرق الأقصى أو الهند أو حول العالم .

ولكنهم كانوا يصابون بخيبة أمل مريرة فى هذه المجموعات عندما يلقى أى متخصص نظرة عابرة عليها . ومع هذا ففن التزييف ما زال مزدهراً حتى الآن . وقد اشترى من هذا الإنتاج المزيف زبائن عابرون وكان بين المشترين أبناء وطننا أيضاً .

ومنذ نهاية العقد الثالث بدأت تقع فى يدى عشرات من هـــذه الآثار بل وصناديق كاملة أحيانا . وكان أسفى هو على هؤلاء المواطنين الذين نقلوا إلى وطنهم أشياء حديثة ، متكبدين مصاعب وأموالا كثيرة .

وكان ذلك مدعاة إلى تنمية تشاؤم قاس لدى ، فقد ابتدأت أتصور أن أى أجنبى عابر يسافر إلى اليمن فى القرن العشرين بدون استعداد تخصصى واستقصاء دقيق لن يجد أى شىء ذا قيمة بالنسبة للعلم . إلا أننى وجدت ذات مرة أنى كنت مخطئاً .

ففى بداية عام ١٩٣٠ جاءنى طبيب كثير الترحال ، أحضر بناء على طلب صديق له كان يعمل آنذاك فى تمثيلنا التجارى فى صنعاء ، لوحتين برونزيتين مكتوبتين بلغة جنوب الجزيرة العربية .

وكان من اللازم تحديد أهميتهما العلمية ووضعهما — فى حالة ثبوت أصالتهما — فى أنسب مجموعة لها من مجموعاتنا . ولعله يمكننى أن أميز التزييف على الفور إذا كان عاديا وغير دقيق وعندئذ يكون الأمر سهلا هينا .

أما بالنسبة لهاتين اللوحتين فقد ظهرت أمامى مشكلة كبيرة من الوهلة الأولى ، هى أنه إما أن يكون تزييفهما ممتازاً وإما أنه ، لأول مرة طيلة هذه السنين ، وقع لدينا أثر حقيقى قديم من جنوب الجزيرة العربية . لكننى لم أصدق هذا الاحتمال الأخير مع أن اللوحتين لا تتشابهان مطلقا من ناحية الشكل الخارجى مع كل ما رأيته حتى الآن من الآثار التى وصلت حديثاً من اليمن . فالبرونز مخضر تماما وبعض الأماكن مغطاة بصدأ قديم شكله يذكر بالبرونز الصينى القديم والسطح الخارجى أيضاً بما عليه من رمل ملتصق كما لو كان يتحدث عن إقامة طويلة فى باطن الأرض .

وشكل الحروف بخطوطها الثابتة الرائعة يتميز تماماً عما وقع فى يدى من النماذج المزيفة . إلا أن حل هذه المسألة بناء على المعطيات الخارجية عملية لجة جداً . وكان يلزم فى الدرجة الأولى تحليل وتفسير ما تتحدث عنه وكيف تتحدث . ومثل هذه العملية لم يحدث لى مطلقا أن قمت بها .

وكان دخول التجربة الأولى عملية مخيفة . وبالطبع كان من غير الممكن رفض القيام بها ، فهذا ما لا يسمح به شرف علمنا . وكان من غير المريح فى حقيقه الأمر أن نستمع إلى نصيحة بعض ممثلينا الذين أرادوا إرسال الخطوط إلى إيطاليا للتحقق من صحتها لعدم وجود متخصصين فى هذه الناحية لدينا . وهذه النصيحة عرفتها قبل أن أتسلم هاتين اللوحتين فى يدى ، لكنها لم تكن مرضية لى إلى حد كبير . ولهذا دفعتنى بصفة خاصة إلى القيام بهذا العمل . وقررت ألا أتسرع ولا أتأثر قبل الأوان . وكانت إجابتى أن هاتين اللوحتين تبدوان لى ، من الانطباع الأول ، حقيقيتين أصليتين لكن تحليلهما يتطلب بعض الوقت .

وكان من اللازم قبل كل شيء استيضاح ما إذا كانت توجد لوحات مماثلة لهاتين اللوحتين فى المجموعات الأوروبية ، وإلى أية درجة تتفق هاتان اللوحتان مع هذه اللوحات المماثلة فى المحتوى والمضمون . وكان من السهل العثـــور على « اللوحات المماثلة » بفضل فهرس مجموعات الخطوط الأثرية السامية (Corpus) المطبوع فى باريس والموجود فى مكتبتنا . وظهر أن اللوحات المعروفة حتى الآن هى أربع أو بمعنى أدق ثلاث ونصف . لأن إحداها لا يوجد منها سوى النصف العلوى فقط . وأنه توجد إثنتان منها فى لندن وإثنتان فى فيينا . وهذا الواقع قوى تشككى . وكان من الصعب الافتراض أن مثل هاتين اللوحتين النادرتين استطاعتا أن تقعا بالصدفة فى يد مشتر عابر . فإن تجار الآثار القديمة اليمنيين يعرفون جيداً قيمة الآثار القديمة الحقيقية ، وكان يمكنهم أن يبيعوا هاتين اللوحتين بمزيد من الربح .

على أن الحل التدريجى لرموز النصوص لم يكشف لى عن شيء يمكن أن يشير إلى وجود تزوير . وأمكننى بسرعة أن أفسر معنى مضمون هاتين اللوحتين وذلك بفضل اللوحات المماثلة الموجودة فى الفهرس . وهاتان اللوحتان كمثيلاتهما من النماذج التى عرفت من قبل ، هما من اللوحات التى تعرف بما يسمى « بلوحات الاستغفار » التى كانت تعلق فى المعابد وتتحدث للجميع عن تلك الذنوب التى ارتكبها من قام بتعليقها .

ولما كان غالباً ما تتردد أسماء النساء فإنه أمكن الحكم بأنه من المحتمل أن المذنبات كن كاهنات فى معابد جنوب جزيرة العرب . وأن ذنوبهن هى عادة أخطاء فى القوانين أو النذور ، وأغلبها يتعلق بالمراسيم والطقوس الدينية . على أن أسماء التائبات والمستغفرات (التى وردت فى اللوحات) هى أسماء مختلفة ، أما المعبد فتغلب عليه تسمية واحدة .

وكان من الوضح أن أكثر هذه الخطوط يرجع فى الأصل إلى مكان واحد . على أنه قد نشأت صعوبات عند تحليل هاتين اللوحتين ، لا سيما عندما صارت اللوحات المماثلة المعروفة لى غير كاملة وكافية . ومما حيرنى أنه ظهرت فى اللوحتين أسماء آلهة وشخصيات مجهولة حتى الآن . ووجدت كلمات وتعبيرات غير معروفة

لدى أيضاً . ولم أكن أصدق تماماً أن هاتين اللوحتين اللتين ظهرتا عندنا تحملان ثروة كبيرة لمعلوماتنا لا من وجهة نظر ثقافتنا العامة فحسب . بل وتحملان أيضاً المعلومات الخاصة بمسائل محددة تتعلق بذخيرة الكلمات والأسماء الشخصية . ولقد اعتقدت أنه لما كانت قراءاتي عن الآثار باللغة السامية قليلة ، ولما كنت لم أحصل على هذه القراءات إلا في أثناء حركة عملي على اللوحتين ، لذلك فإن بعض الحقائق بقيت لى ببساطة غير معروفة .

وعندئذ قررت أن آخذ الأمر بطريقة مألوفة جيداً ، وأعنى بها الروابط والصلات الدولية بين العلماء . وبدأت أتوجه إلى متخصصين كبيرين فى النمسا والدانمارك من أجل الاستفسار عن الأسئلة التى تواجهنى . كان أولهما قد تعرفت به عن طريق المراسلة . وقد اشتغل كثيراً بالشعر العربى فى أعوام شبابه ، وقبل أن يتركز فى الدراسات السبئية . وكان رأيه مهماً لى بصفة خاصة كعالم قريب من مجموعات فيينا ، وبالطبع كخبير بلوحات الاستغفار الموجودة هناك . أما الباحث الدانماركى فكان قبل ذلك بوقت قليل قد قام بنشر أول جزء من الفهرس الكبير للآثار العربية القديمة .

وسرعان ما ارتبطت المراسلات بيننا . لكن الفرق فى مزاج كلا العالمين كشف لى عن أشياء ممتعة جداً . ولعل الزميل من النمسا هو المستشرق الكبير الوحيد من اليونانيين . وقد حاول بطيبة خاطر تفسير النواحى التى لم أفهمها والتى يمكن أنها كانت تبدو له أحياناً أشياء أولية بسيطة . وقد دلنى على الوقائع المماثلة والمختلفة وتقدم بآراء مغايرة ، وأيدنى فى اعتقادى حـــول أصالة اللوحتين . أما الدانماركى فكانت علاقته بى أكثر صرامة . ولعله لم يود أن يغرق نفسه فى تفاصيل هاتين اللوحتين . وأكد لى أنه يلزم أولا توضيح ما إذا كانت هاتان اللوحتان البرونزيتان حقيقيتين بالفعل أم لا . وهل تساويان أن نحطم عليهما رؤوسنا أم لا ؟ وأبدى استعداده ، فى حالة إرسال صور هاتين اللوحتين ، لإعطائها إلى أحد تلاميذه لدراستها ، وعلى حد تعبيره فإن هذا التلميذ اشتغل خصيصاً على مثل هذه المواضيع .

لكننى وجدت أنى لو عملت برأى هذا العالم الدانماركى فإن هذا يعنى

الاعتراف بعجزى . والتخلى عن قصب السبق لعلمنا قبل اختبار جميع الوسائل والطرق فى بحث اللوحتين . وكان هذا بالطبع مخجلا لى . ففضلت أن « أحطم رأسى » ، وواصلت لجوئى النادر لطلب مساعدة ذلك الأستاذ الخبير من مدينة جراتس .

وتحت إصرارى أخذت الخطوط تتضح لى أكثر فأكثر ، وإن يكن ببطء ، حتى خطوط اللوحة الثانية التى تعانى بعض أماكنها من الصدأ معاناة شديدة . فانفتحت لى بالتدريج رموزها المتآكلة تماماً من النظرة الأولى . وساعدتنى كثيراً فى بعض الحالات عين حادة فى تعرف رسم الخطوط ومتخصصة فى تطورها ، وأعنى بها عين زوجتى التى سهلت نقل ورسم صورة الأصل لأجل طبعه على الزنكوغراف . فلم تكن فى مطابعنا الحروف السبئية بالطبع . ولقد خاطرنا وجددنا بتحفظ بعض الحروف الممسوحة تماماً وبعد أن نشرت مقالتى عن خطوط اللوحتين قام خبير متخصص فى تجديد الآثار بتنظيف اللوحتين وظهرت بعض رموزهما أكثر وضوحاً . وأسعدنا أننا وُجدنا أن افتراضاتنا وتجديداتنا للرموز كانت صحيحة .

وقويت ثقتى فى أصالة اللوحتين اللتين وقعتا فى أيدينا : ذلك لأنه لا يمكن أن يقوم بتزويرهما هكذا بمنتهى الدقة إلا خبير عظيم وعالم كبير ، وهو ما لا يمكن افتراض وجوده فى جنوب كل الجزيرة العربية . صحيح أنه قد بقى هناك احتمال آخر هو أنه يمكن أن تكون خطوط اللوحتين قد نقلت حديثاً من أصل قديم . لكن مثل هذا الأصل لم يعرف فى العلم حتى هذه اللحظة .

ومعنى هذا أنه حتى إذا كانت اللوحتان هما فى الحقيقة صورة عن الأصل فإنهما ما تزالان إذن منطويتين على أهميتهما العلمية .

وبالتدريج ، خطوة بعد خطوة ، عملت كل ما كان فى وسعى . وقررت أن أطلق سراح اللوحتين لحكم العلم الدولى . فنشرت صورتيهما مع دراستى لهما التى استطعت أن أقوم بها فى حدود قدرتى . وعملت كل هذا بخوف شديد . وكان يساورنى خوف ضئيل من أننى ربما أكون قد أخطأت فى قراءة أو تفسير

بعض التفصلات الجزئية . وأردت أن يقوم أى عالم بتفسير ما بقى مشكوكا فيه لدى . لكننى خفت أن يظهر فجأة أن اللوحتين مزيفتان . فأجلب لنفسى سمعة سيئة طول الحياة مثل أولئك الفرنسيين فى الآثار القديمة الذين لم يستطيعوا اكتشاف تزييف « تاج سايتافيرن » المشهور من مدينة أوديسا .

على أنه قد ظهر دليل آخر فى صالحى حتى قبل صدور مقالتى . فقد جرى فى معمل كيميائى تحليل للبرونز الذى صنعت منه اللوحتان . وأظهر التغيير الذى طرأ عليهما أن اللوحتين استمرتا فى الأرض ما لا يقل عن ألف عام . وهذا الواقع مرتبطاً مع الاعتبارات السابقة المتعلقة بنصوص اللوحتين حل المسألة من وجهة نظرى بصورة قاطعة . ومع هذا بقى عندى شىء من الخوف .

على أنه سرعان ما طار هذا الخوف تحت تأثير الاستجابات الأولى لنشر اللوحتين . وأدت قلة المتخصصين إلى أن جميع المتخصصين فى الدراسات السبئية استجابوا لهذا الكشف الجديد بمختلف الوسائل . وأظهر هذا الكشف مرة أخرى كل دولية العلم فى مجال دراساتنا .

وبهذه المناسبة قام أكبر ممثلى هذا المجال وهو بلجيكى ، بكتابة مقالة خاصة عن خطوط اللوحتين . وأشار إلى بعض آثاره الخاصة فى تفسير بعض التفصيلات إلا أنه أقر صراحة بأصالة اللوحتين . وبعد عدة أعوام قام هذا العالم بتسجيل اللوحتين فى Répertoire (فهرس الخطوط الأثرية) لجنوب الجزيرة العربية الذى ألف بناء على طلب المجمع العلمى الفرنسى للخطوط الأثرية . وبهذا فإن هذا العالم وطد تماماً مكانة هاتين اللوحتين بفضل سمعة هذا الفهرس . وبعد ذلك صدر كتاب عن تحليل الأسماء السامية الجنوبية القديمة . وفيه ضمن هذا العالم هاتين اللوحتين . وقام عالم إيطالى فى كتابه المتعدد الأجزاء عن فكرة الاستغفار فى أديان كل العالم بإلقاء ضوء عميق على أهمية هاتين اللوحتين فى التاريخ الدينى . واستجاب لهاتين اللوحتين أيضاً ذلك البطل فى الدراسات السبئية فى ألمانيا البالغ من العمر ثمانين عاماً ، وكان قد ورث اهتمامه بهذه الدراسات عن والده الذى كان فى وقت ما من الرواد الأوائل فى هذا المجال .

وقد استطاع هذا البطل أن يجمع بين دراسته العميقة للشرق الأدنى ، وبين

اهتمامه بجنوب الجزيرة العربيـــة . وهو أيضاً لم يشك فى الإعتراف بأصالة اللوحتين . وبفضل مقالتى التى نشرتها ، تعرفت مع العلماء الانجليز الناشئين فى الدراسات السبئية الذين أخذوا يتوجهون إلى بأسئلة مختلفة ، غير عارفين أننى لست إلا ضيفاً طارئاً على هذا المجال العلمى . أما ذلك الزميل الدانماركى فقد تغلب على تشاؤمه الأول . وفى مقالته عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية التى كتبها خصيصاً لمجلتنا « أخبار التاريخ القـــديم » ، أشار إلى مقالتى دون أى تحفظ أو إعتراض . وهكذا فإن « إجماع الأمة » هذا بشكله الخاص فى « جمهورية » العلم الدولى ، هدأنى تماماً وكان مكافأة لى على كل ما عانيت وقاسيت فى تحليل هاتين اللوحتين . .

وكان لهذا الإجماع نتيجة « عالمية » أخرى . ذلك أنه عندما عقد المؤتمر الدولى للمستشرقين فى ليدن ١٩٣١ ، اختيرت لجنة خاصة لبحث ونشر الآثار القديمة لجنوب الجزيرة العربية ، كان ضمن هذه اللجنة ممثل بلادنا أيضا . وهكذا بفضل علاقتنا المعاصرة مع اليمن وقعت لدينا بالصدفة لوحتان أثريتان من مملكة بلقيس الأسطورية ويمكن أن تستخدما لدينا فى وقت ما كبداية متواضعة للتراث العلمى السبئى .

٢ — رسالة من بلاد الصغد

(١٩٣٤)

إن العالم السعيد هو الذى استطاع فى عصره أن يراقب ميلاد وتطور فرع علمى جديد ، وهو الذى ظهرت أمام عيونه اكتشافات غير متوقعة ، وتطورت أمامه دراســـة المواد المكتشفة . فخلقت بالتدريج صورة عظيمة مجهولة لأجيال الباحثين السابقين . هكذا كان الأمر فى حياتى مع اللغة والثقافة الصغدية التى ازدهرت خلال عدة عصور فى آسيا الوسطى ، بل وامتدت فروعها بعيداً خارج حدود بلادها . وعندما انهارت هذه الثقافة أمام ضغط العرب فإنها لم تفن تماماً بل انتقلت بطريقة طبيعية إلى مرحلة جديدة استمرت كخط واحد متصل فى تطور ثقافة آسيا الوسطى .

ونظرت من جانبي كتفرج على المحاولات التي لا تكل ، وعلى السعادة التي يحس بها العلماء جيداً فى اكتشافاتهم ، فيما قام به رفاقى الأكبر منى سنا فى فكهم بإصرار وخطوة بعد خطوة لرموز السطور المجهولة منذ وقت قريب ، هى سطور المخطوطات الصغدية التى كان يتوالى اكتشافها . ولم أكن أفكر مطلقا فى أننى كمستعرب بعيد عن تاريخ آسيا الوسطى ، سيقدر لى أن أمارس بدورى هذا العمل .

ولم أكن أفكر مطلقا أنه سيقع فى يدى أثر عربى فريد من نوعه لا يقدر بثمن للعلم ، ويعكس بوضوح تلك اللحظة التراجيدية للصراع الأخير بين الصغديين والعرب . لكن هكذا أراد لى القدر . فى ليننغراد وعلى إحدى المناضد استلقت المخطوطات الصغدية والعربية جنبا إلى جنب ، وجلس مستشرق فى العربيـــة ومستشرق فى الفارسية جنبا إلى جنب أيضا ينظران باهتمام فى الحروف شبه الممسوحة . وأنه لمن الصعب أن تحدد أيهما الذى تلألأ أمامه أول شعاع كشف طريق الرشاد . إنه الشعاع الذى مس كليهما فى آن واحد كأنه التيار الكهربائى .

فى عام ١٩٣٢ فى مدينة ليننغراد هاج المستشرقون فى الفارسية على أثر إشاعة تقول أنه قد اكتشفت فى تاجيكستان مخطوطات صغدية . ومن المعروف أنه لم تكن قد اكتشفت مطلقا حتى تلك اللحظة أية مخطوطات صغدية فى بلاد الصغد نفسها . وما اكتشف منها كان فى المستعمرات الصغدية فى تركستان الشرقية على أن الإشاعات تقوت ، وأخذ الناس يتحدثون عن آثار للمحفوظات اكتشفت على جبل موغ على الشاطىء الجنوبى لنهر الزرافشان . وأخيراً ، وفى خريف ١٩٣٢ أعدت بعثة صغيرة قامت هناك بحفريات منظمة . وتأكد كل ما قيل . فثروة المواد الصغدية التى اكتشفتها البعثة ، غطت بضوئها على كل الاكتشافات السابقة ، بل وأعجب من هذا ، أنه وجدت هناك عدا المخطوطات الصغدية بعض المخطوطات العربية ، والصينية ، كما لو كانت تعكس تماما تلك الصورة السياسية المعقدة لآسيا الوسطى فى ذلك العصر .

وأخذت أخبار المخطوطات العربية تطير إلى ليننغراد قبل عودة البعثة . لكن هذه الأخبار حملتنى على التشاؤم وقلما افترضت احتمال وجود اكتشافات

قيمة بين المخطوطات . وقيل أن هذه المخطوطات مكتوبة على الجلد . لكن ما عرف من الوثائق العربية المكتوبة على الجلد فى كل العالم حتى ذلك الحين هى ست فقط . وكان من الصعب الافتراض بأنه فى تاجيكستان بالذات ، وليس فى البلاد العربية توجد زيادة لهذا العدد . وكان أسرع ما تخيلته هو أن هذه الورقات هى من أوراق الرق التى كتب عليها القرآن ، وبالطبع قد يكون ذلك شيئا ممتعا ، لكننى لم أتصور وجود شىء ذى ندرة خاصة .

ودعمت هذه الفكرة رسالة من رئيس البعثة فريمان ، وهو رفيق الأكبر فى سنوات الدراسة بالكلية ، أخبرنى فيها فيما أخبرنى ، أنه وجد من حفريات البعثة قطعة جلدية صغيرة رقيقة ، عليها كلمة عربية واضحة هى «لا اله ....» ويمكن أن تكون جزءا من الشهادة العادية للعقيدة الإسلامية . وحقيقة ، وصلت إشاعات أن من شاهدوا هذه المخطوطات فى آسيا الوسطى ، رأوا هناك اسم طرخون وهو ما كان يسمى به أحد كبار الحكام الصغديين فى عصر فتوح العرب ، لكننى ملت إلى أن أعزو هذا إلى الولع المغتفر من الراغبين فى ربط المخطوطات المكتشفة بتاريخهم المحلى .

ومع هذا جذبنى حب استطلاعى إلى هذا العمل. وحاولت أن أتسلم صورة من المخطوط . لكن لم يمكن تحقيق ذلك فى آسيا الوسطى لسبب ما . وتولد صراع بين السلطات حول مسألة ملكية المخطوطات ، ومن الذى يجب اعتباره مالكا لها جميعاً ؟ وأين ستخزن بعد ذلك ؟ ولمن توكل دراستها ؟ ووصلت المخطوطات لحسن الحظ آخر الأمر إلى لينينغراد . وهناك أيضا كان بعض الأخذ والرد فيما يتعلق بالمكان الذى تتم فيه دراستها . وعلى كل فقد عرفت فى كانون الثانى (يناير) ١٩٣٤ أن المخطوطات ستحفظ مؤقتا فى قسم المخطوطات بمكتبة أكاديمية العلوم . وكنت مريضا ودرجة حرارتى عالية ، إلا أنى لم أستطيع .

بالطبع أن أصبر أكثر من ذلك . وفى اليوم التالى توجهت إلى مبنى أكاديمية العلوم سائراً فى شارع الرصيف الجامعى الذى عرفته طيلة سنوات . ولم أذهب بمفردى بل كانت معى زوجتى التى انغمرت مدة العشر سنوات الأخيرة فى أسرار علم تطور الخطوط العربية وعلم خطوط الآثار القديمة ، لدرجة أنها تستطيع أن

تقرأ الخط الكوفى أحسن منى . وتذكرت معها ببشاشة كيف أنه منذ ربع قرن مضى كنا نشاهد مساجد القاهرة ، وبسؤالنا عن بعض الخطوط الأثرية هناك ، أجاب بعض العرب المتعلمين القائمين هناك بتعجب : « أن هذا بالخط الكوفى ومن المتعذر قراءته ! » والآن فإن موهبتها فى فهم الخطوط وعينها الحادة ، قد ساعدانى مراراً فى فهم بعض الخطوط فى المخطوطات التى كانت غير واضحة لى ، رغم كل دراستى للغة العربيـة التى أعطتنى سنوات مديدة ، على ما يبدو ، حق التظاهر بمعرفتها .

فى الطابق الأسفل للمكتبة ، فى قسم المخطوطات ، وجدنا عند المنضدة الكبيرة البان (السيد) فريمان كما تعودنا أن نسميه منذ سنوات التلمذة بالجامعة . وكان غارقاً فيما حملته البعثة من الكتابة أو « العصى » الصغدية . وكان مغترباً بأفكاره وخياله مع المخطوطات الصغدية ، مع أنه كان يبدو عليه كالعادة هيئة الصرامة والجد بنظارته الدائرية التى كان يرفعها إلى جبهته كل دقيقة . وكان قد أعد لنا مظروفاً فأخرج منه وثيقة راغباً فى معرفة الانطباع الذى ستثيره فينا . ومن النظرة الأولى شعرت أننى قد صرعت تماماً .

ولست أدرى أمن ارتفاع حرارتى أو من انفعالى ، غلى الدم فى رأسى وعلت عيناى غشاوة ، بوهن فى يدى ، أمسكت بقطعة الجلد البالية التى أكلها الدود . ولم أر من خلال الغشاوة الحمراء سوى حروف عربية متقطعة . ولم أستطع أن أميز أية كلمة عربية واحدة مرتبطة . وأخذ قلبى ينبض كأنما كان يريد أن يقفز من صدرى . وكان أول شىء مرعب خرجت به ، هو « أننى لن أفهم أى شىء ! » . ولكن الخجل إعترانى . فحملت نفسى بشدة كبيرة على النظر مرة ثانية ، إلا أنى وجدت نفسى عاجزاً عن النظر بثبات . فقد ابتدأ يكسو عينى ضباب أحمر . وجمعت كل إرادتى بدفعات عصبية يتفق إيقاعها مع إيقاع نبضات الدم .

وأخذت أتطلع فى هذا المكان أو ذاك من الوثيقة . إذ لم يعد فى وسعى أن أثبت النظر على أى شىء لمدة طويلة . وتوالت الأفكار محمومة عند كل دفعة . وبدون وعى همست : « نعم ، فى السطر الأول بقايا صيغة الابتداء العادية « البسملة »: يعنى أن هذا بداية لشىء ما وليس مقطوعاً من الورقات الداخلية ...

ها أنه يوجد حقاً فى الوسط اسم طرخون ... وإذن فهذا ليس قرآناً ... لكن ما هو إذن ؟ » .

وأخذ يفكر يطرق فى رأسى بعجز وألم ، والدم ينبض بعنف فى الآذان . « لعلها رسالة ؟ ها هو يرد فى نهاية السطر الثانى بالضبط « من ... مولاه ... لكن الاسم ... الاسم ؟ « ديوا » ، « ديوا » — ها هو يقف بوضوح اسم « ديوا » مع « ى » ممدودة و « ا » ممدودة ! ما هذا الهراء ؟ أى إسم هذا ؟ .

ثم يبتدىء السطر التالى بصورة أكثر سوءا فمع أنه واضح أن الكلمة تقرأ « ستى » لكن هذه الكلمة لا يمكن أن تكون باللغة الفصحى لأن كلمة « ستى » لا تستخدم إلا فى العامية ومعناها « سيدتى » . لأى شىء إذن يوجد هذا هنا ؟ فى نهاية أحد السطور « ديوا » وفى بداية السطر الثانى « ستى » ... » وفجأة ومن جديد طرقت دقات النبض : « أليس من الممكن هنا أنهما لفظ لكلمة واحدة مجزءة ؟ ! إن مثل هذه التجزيئة توجد فى كتابة أوراق البردى العربية الإسلامية من مصر : ديواستى ... ديواستى ... لا يوجد مثل هذا الاسم ! . . ها هو طرخون يذكر فى الكتب عن آسيا الوسطى ، ولا يوجد هناك أى ديواستى... ما العمل إذن بهذه الشيطنة ؟ .

لكن ما يوجد بوضوح هنا هى كلمة ديواستى ... » وتوجهت صاحبتى بالكلام إلى فريمان وقالت له متعجبة : « هل يوجد لديكم فى الوثائق الصغدية أى اسم ديواستى ؟ » . فارتعد فريمان ورفع نظارته على جبهته وقال لها فى النهاية بتعجب مجهول : « لا ... لكن ذكر فى كل مكان اسم مشابه لكلمة «ديوانستيج» ولعلها كلمة مرتبطة بكلمة « ديوان » ولعلها لقب ... » وصحت : « لكن هنا لا يوجد فى الكلمة العربية حرف « ن » فالكلمة ببساطة هكذا : ديواستى! . . » وفجأة لمعت لى فكرة جديدة ، فقفزت من على الكرسى ، وهربت . وأثار ذلك دهشة كبرى لدى جميع الجالسين على المنضدة ، ولدى المستشرق الناشىء فى الدراسات الفارسية ، الذى أتى إلى فريمان لسبب ما وكأنما هو قد تحجر من منظرى الجنونى ، ومن ذلك الحوار الغريب .

وهرولت على السلم الجانبى لأسرع إلى الطابق الثامن ، حيث يوجد معهد الاستشراق، والقسم الاستعرابى. وهناك على الرف يقوم إثنا عشر جزءاً لمؤرخنا الأساسى الطبرى . وكان يزهو فى نفسى أمل ، فلعلنى أجد فيه فجأة حل لغز ذلك الاسم الذى طفا . فقد كنت فى حالة لم أكن أستطيع معها أن أبين بوضوح ما حدث لى .

ووصلت إلى الرف المعروف لدى جيداً وأنا الهث من الجرى ، وتناولت فهرس مجلدات الطبرى وأخذت أتصفحه محموماً بحثاً عن اسم مشابه لذلك الاسم . كان كل شىء يبدو فى عينى مزدوجاً ، إلا أننى نظرت بسرعة فى جميع الكلمات تحت حرف « د » حتى نهاية الحرف . « لكن لم يكن لكلمة ديواستى وجود » — وهبط قلبى حزينا . وفجـــأة وفى بعض السطور السفلى لمعت أمامى كلمة « ديواشنى » . فكدت أصرخ : « يا سلام ، الفرق فى النقط فقط ! أنهما شىء واحد ! » لكننى لم أصدق نفسى . فأخذت أتصفح تاريخ الطبرى نفسه تحت رقم الصفحات التى أشار إليها الفهرس .

وهناك لم يكن أى احتمال للشك . ففى تلك الصفحات يدور الحديث عن آسيا الوسطى ووصف حوادث بداية الأعوام المئوية الهجرية . على أننى لم أكن فى حالة تسمح لى بأن أدقق النظر ، ولم يعد هناك أى تردد بعد ذلك ، وفى داخل نفسى كما لو كان كل شىء يتلألأ . وهرولت بسرعة متجهاً إلى أسفل ، ليتنى كنت أصغر بعشرين عاماً فأهبط السلم منزلقاً على درابزينه . وهبت كالزوبعة فى قسم المخطوطات ووقعت على الكرسى ، ولم أستطع إلا أن أهمس لفريمان الذى لم يفهم سبب هرولتى غير المنتظرة : « لقد وجدت ديواستى ! » .

وقد كان ذلك غير متوقع إلى حد أن ، ثلاثة أزواج من العيون نظرت إلى بتعجب يشوبه خوف . وعندما هدأت قليلا بينت بعبارات متقطعة حقيقة الأمر ، فعمت البهجة الجميع وشعروا للتو أن هذا الاكتشاف قد اتضح وأنه وقع فى يدى خيط هاد .

وقد حدث لى رد فعل على الفور بعد كل تلك الانفعالات . فقد شعرت،

بانهيار قوتى تماما ولم أستطع فى ذلك الصباح أن أدرس الوثيقة أكثر من ذلك. ولكننى صرت هادئاً . وما يزال بانتظارى عمل طويل جداً وصعب جداً . لكننى كنت أعرف تماماً أننى أقف على طريق الرشاد . وفى اليوم التالى وبمزاج مختلف تماما بدأت بتسلسل فى فك رموز هذه الرسالة وبالدراسة التفصيلية فى صفحات مؤرخنا الطبرى ، التى تتناسب مع هذه الرسالة .

ومنذ ذلك الحين فقط استطعت التطلع فى هدوء إلى تلك الخطوط التى لم تعد تخيفنى ، وإذ ذاك فقط استطعت أن أقدر كل تقاسيم جمال الرسالة التى كتبها خطاط الديوان الخبير . وكان كل يوم يحمل السعادة والحزن معاً . وتداخلت الاكتشافات الصغيرة مع خيبة الأمل . لكن كل هذا لم يكن شيئا مرعبا لى . ذلك أن قطعة الجلد التى انكمشت ، وظلت فى الأرض مدة اثنى عشر قرنا لم تستطيع أن تخفى أسرارها لدى التحليل الدقيق الذى قام به عالم فى تطور الخطوط الأثرية . ولم تستطيع هذه القطعة الجلدية أن تصمت أمام شهادة العيان للمؤرخ الذى حفظت أخباره فى كتاب الطبرى الذى لا يقدر بثمن .

وفى الحق ، لقد كان اسم ديواستى مفتاحا لكل شىء ، فهو لم يوضح هذا الرسالة العربية فحسب ، بل ووضع أساسا ثابتا لفهم الوثائق الصغدية . وظهر أن الديواستى كان أميراً صغديا ، وقعت بقايا محفوظاته فى يد تلك البعثة على جبل موغ . وأن لغز اسم ذلك الأمير العربى ، الذى وجه إليه الديواستى رسالته ، أمكن حله بمجهود أقل .

وحمل هذا الاسم بدون انتظار تاريخ الوثيقة الدقيق وهو العام المئوى الهجرى أى تقريباً ٧١٨ — ٧١٩ م . وحرفا حرفا أمكن تملك جميع حقائق الرسالة. وأمكن بسرعة وضع قطعة الجلد المتآكلة — التى تحمل الصيغة الابتدائية للشهادة الإسلامية — فى مكانها من الوثيقة .

وكانت البعثة قد وجدت هذه القطعة الجلدية منفصلة عن الرسالة . بل وأمكن بصورة أساسية إعادة بناء سطور الرسالة التى أكلها الدود الشره . والآن عندما أنظر إلى الصورة الشمسية للرسالة المكتوبة على الجلد بعد أن سوى انكماشها

أعجب أنا نفسى لاستطاعتنا فهم تلك السطور التى بقى من كلماتها حرف أو اثنان ، بل ولاستطاعتنا تصيد المعانى من الأماكن المتآكلة ، وشعرت بالفخر بعملنا وبطرقنا المضبوطة ، التى أمكن بها إيجاد أشياء كانت تبدو أحيانا من النظرة الأولى ، أنها هالكة بلا رجعة .

وبدا لى أن الجميع شعروا مثل هذا الشعور حتى المتخصصون فى المجالات الأخرى المختلفة تماما ، الذين اجتمعوا بعد أسبوعين ، فى شهر شباط (فبراير) فى جلسة من دورة أكاديمية العلوم ، التى كانت بمناسبة حساب ما قامت به البعثة على جبل موغ .

كان القراء يجلسون عادة فرادى فى زوايا متفرقة من قاعة القراءة لمعهد استشراق . أما فى ذلك الوقت فكانت هذه القاعة مكتظة،ولم تكن جميع الأماكن مشغولة فحسب بل وجميع ممراتها تقريبا . ووصل الأمين الدائم لأكاديمية العلوم فى منتصف الجلسة وما أن فتح الباب ، حتى تراجع عفويا إلى الوراء . فقد كان المنظر غير عادى إلى درجة كبيرة بالنسبة لهذا الشخص ، العارف بصورة الجلسات الدورية لطائفة المستشرقين . وفى الحق ، لقد كان ذلك احتفالا . انه احتفالا بالبعثة ، التى أغنت العلم بمواد كانت غير معروفة ، وهو احتفال بالعلم نفسه ، الذى يتحدث بصوت مسموع عن قوته . التى رفعت معرفتنا إلى درجة كبيرة أمام عيون الجميع .

وبالطبع لم تنته دراسة الوثائق بهذه الجلسة ، ولم تنته أيضاً بأن طبعت فى تلك السنة « المجموعة الصغدية » بما فيها من وضوح للنتائج الأساسية العلمية وللأبحاث المتسلسلة لهذه الرسالة العربية التى أذكرها الآن .

واتضح مع مرور الوقت أن اسم البطل الأساسى لهذه الرسالة يجب أن يقرأ ديواشتى لا ديواستى . وأمكن التأكد من اسم القلعة التى التجأ اليها مع أصحابه الصغديين بعد قطع العلاقات نهائيا مع العرب . بل وأمكن أيضا تحديد نوع الماعز الذى كتبت الرسالة على جلده . ولعل كثيرا من التفصيلات تظهر عند بحث هذه الوثيقة فى المستقبل ، وآمل أن يستطيع أحد قراءة الكلمات والحروف المتقطعة —

التى بقيت لنا لغزا — بصورة أحسن وأكمل مما فعلت . إلا أن هذه كلها أشياء جانبية . فقد انفتح الطريق الرشيد منذ تلك اللحظة التى لمع فيها لأول مرة اسم غريب ملغز هو اسم ديواستى . انها لحظة الدفعة اللاشعورية للفكر ، لحظة الاكتشاف .

وكانت هذه اللحظة بداية لطريقة التحليل العلمى . وها هو ذلك الاسم يرن الآن ، بفضل هذه اللحظة ، رنينا قريبا ومفهوما لدى جميع المستشرقين فى الفارسية وجميع مؤرخى آسيا الوسطى . وأن ذلك المسعرب ليشعر فرحا بأن الرسالة التى وقعت فى يده من بلاد الصغد لم تكن أثراً مشهوراً ورائعا لعلم تطور الخطوط الأثرية العربية فحسب ، بل ومصدرا تاريخيا من الطراز الأول .

وبعد هذا الاكتشاف على جبل موغ دخلت دراسة الثقافة الصغدية فى مرحلة جديدة من تطورها . لكن قسوة القدر لم تمكن شخصين من القيام بدورهما فى هذه الدراسة ، فى حين أنهما كانا يملكان الحق فى هذا أكثر من العلماء الآخرين جميعا . احدهما هو س. ف. أولدنبورغ الذى كان بنفسه فى آسيا الوسطى وفى تركستان الشرقية والذى أغنى بنفسه العلم بما عثر عليه من المخطوطات الصغدية . وكان فى طريق الموت بسبب المرض العضال الذى أصابه وسمع وهو على سرير الموت حكاياتنا عن النجاحات الأولى فى فك رموز هذا الأثر الصغدى . فكان سروره لايقل عن سرورنا ، ورسم خطوطا لعمل المستقبل ولبعثات المستقبل التى كان يعرف جيداً أنه لن يكون له مكان فيها . لكنه كان يعمل طوال حياته من أجل العلم ومن أجل تنظيمه . وكان من البديهى له استمرار تطور العلم وديمومته . ولذلك فإنه هكذا بهدوء وببساطة ظل يتحدث عن المستقبل حتى فارق الحياة . ولهذا كان واجبنا نحوه أكثر من الآخرين هو أن نهدى إليه « المجموعات الصغدية » التى لم يقدر له أن يراها .

أما الثانى فهو ف . آ . روزنبرغ الذى امتد به الأجل ثلاثة شهور ، وكان مدة طويلة خازن المتحف الآسيوى والزميل المخلص لاولدنبورغ فى إدارة هذه المؤسسة التى كانت فى وقت ما « المعهد » الوحيد للإستشراق فى أكاديمية العلوم . وفى عشرات الأعوام الأخيرة من حياته ، درس بنجاح كبير المواد الصغدية .

وفك بإصرار ، وتسلسل ، رموز حطام المؤلفات . والمخطوطات الصغدية القليلة التي كانت مخزونة في مجموعاتنا. ولما كان يملك قاعدة صلبة في الدراسات الفارسية ، فإنه سرعان ما صار واحداً من أوائل العارفين في العالم بالكتابة الصغدية . إلا أن دماغه قد تعب من مرضه الثقيل في أعوامه الأخيرة . ولم يصدق كل الصدق ما سمعه من الحكايات عن تلك الاكتشافات المتميزة العظيمة . ولعله كان من الصعب عليه أن يتقبل وهو الذى حلل طول حياته القطع والنسخ الوحيدة ، أنه قد اكتشفت الآن فجأة عدة عشرات من الوثائق التي أضاءت بوضوح جوانب لم تكن معروفة من الثقافة الصغدية المقربة إليه . وكان يشعر بتشاؤم وبصفة خاصة نحو المخطوطات التي كتبت على « العصى » التي لم تكن معروفة لأى شخص من قبل . ولعله كان يظن حتى آخر أيام حياته أنه قد يكون هناك شيء مخفى من سوء الفهم . وكان من المهدى لنا نوعاً ، ذلك التأكيد غير المنتظر ، للعظمة العلمية لهذا الاكتشاف ، الذى بدا لهذا المتخصص شيئاً مستحيلا لا يمكن تصديقه وأنني نفسى ، كثيراً ما أتمنى أن توجد فى آسيا الوسطى فى أى وقت ولو وثيقة عربية أخرى مماثلة لهذه الرسالة الصغدية التي اشتهرت فى العلم .

٣ — قرآن كوفى و « جدة عربية »

(١٩٣٦)

يمثل القرآن الكوفى من القرنين الهجريين الأول والثانى ، شيئاً نادراً جداً فى مجموعات المخطوطات . وتعتبر النسخ الكاملة منه أحادية فى كل العالم . وكان زينة مكتبتنا العامة مدة طويلة ، القرآن الذى يعرف بالعثمانى أو السمرقندى . وقد حمل إلى مدينتنا بأمر الجنرال فون كاوفمان كغنيمة حربية عند غزو آسيا الوسطى . ثم عاد من جديد إلى آسيا الوسطى بعد ثورة أكتوبر . وبالطبع فإنه لم يكن مطلقاً فى يد الخليفة عثمان فى اللحظة التى مات فيها ، مثله كمثل توائمه التى عرف منها فى العالم ما لا يقل من ثلاث أو أربع نسخ .

ولكنها تنسب كلها أو ترجع إلى القرن الأول الهجرى . فإن تلك النسخة الكاملة لم تبق فى لينينغراد . وكان الأمر هنا وفى البلاد الأخرى عادة ، أن القرآن

الكوفى فى كل مكان ، يتمثل فى أوراق ناقصة من الرق يختلف عددها باختلاف الأماكن . بل أن مارسيل المشهور مؤسس المطبعة العربية فى مصر وقت حملة نابوليون ، والهاوى الكبير لفن الخطوط ولعلم تطور الخطوط الأثرية ، لم يستطع أن يحمل معه (من مصر) إلا أوراقاً منفردة وقع جزء منها فى مكتبتنا العامة . ولقد شكلت أمريكا طيلة القرن الأخير وبفضل ملايينها ، مجموعات فى مجالات مختلفة ، يكسف ضوؤها أحياناً مجموعات العالم القديم . إلا أنها حتى الآن ليست أسعد من هذا العالم فى المخطوطات الكوفية . وهى تقوم بنشاط بوصف وبحث الأوراق الجزئية المختلفة التى تقع لديها من وراء المحيط . إلا أن مثل هذه الأوراق الكوفية لم تكن تظهر بصورة كثيرة .

ولذلك يصبح من المفهوم كيف خفق قلبى عندما وقع فى يدى ذات مرة ، فى خريف ١٩٣٦ ، بضع عشرات من الأوراق الرقية الكبيرة الرائعة بخط كوفى قديم . وكانت سيدة مجهولة قد حملت هذه الأوراق إلى معهد الاستشراق لتبيعها . وقالت أنها كانت قبل ذلك فى المكتبة العامة ، إلا أنهم هنا لم يقبلوا على شراء هذه الأوراق عندما عرفوا أنها « قرآن » فمخطوط القرآن ليس نادراً . ولم يسعنى إلا الابتسام لدى سماعى هذا ، فقد كان من الواضح لى أنه لا يوجد عندنا فى أى مكان حتى ولو ورقة أو ورقتين بمثل شكل هذه الأوراق . فى حين أن السيدة حملت إلينا بضع عشرات منها . وكانت حالة الأوراق عظيمة ويتميز شكلها عما يقابلها من النماذج العادية المعروفة بأن طولها أكبر من عرضها على عكس النماذج العادية المعروفة .

ويتميز الخط نفسه بميل عادى إلى اليمين فى أعلى الحروف يشير إلى قدم ليس بالقليل . ولم أتكل على نفسى بل قمت فيما بعد بالتحقيق من هذه الأوراق بطرق مختلفة . فتوجهت إلى إثنين هما أحسن العارفين عندنا بعلم تطور الخطوط الأثرية العربية . أحدهما هو خازن قسم المخطوطات لمعهد الاستشراق والثانى هو أستاذ تاريخ الفن الإسلامى فى جامعتنا . توجهت إلى كل منهما بطلب ابداء رأيهما فى تاريخ هذه الأوراق .

وبالطبع فإننى أخفيت عن كليهما أننى سأتوجه الآخر . واتفق جوابهما :

فكلاهما اعتبر إن هذه الأوراق ترجع إلى بداية القرن التاسع الميلادى أو ربما إلى نهاية القرن الثامن . ولم يكن عندى شك فى ضرورة إنقاذ هذا الأثر النادر ؛ وإنه لا يمكن أن يفلت هذا المخطوط من مجموعات الدولة .

أول سؤال يتولد عندما يبدأ المخطوط حياته الجديدة فى المجموعة العلمية ، هو عن تاريخ حياته والبيانات الخاصة به . ولم تكن ظاهرة على أوراقه أية ملاحظات أو آثار لأصحابه السابقين ، لكن هذا المخطوط لم يكن ليملكه أى صاحب طارىء يخزنه هكذا بعناية فى حالة جيدة . وقد كانت الأوراق مختلطة بالطبع ولعلها نزعت من جلدها ؛ إلا أنه لكى تمتلك ويحافظ عليها فى الوقت القديم كان ينبغى أن يكون مالكها أما ذا معرفة أو ذوق وأما أن يكون نفسه عربياً حتى يقدر فى هذه الاوراق آثاره القديمة .

على أن محاولتى فى أن أعرف من السيدة قصة المخطوط ، اصطدمت مع رغبتها فى اخفاء معالم آثاره . وكان هـــذا شيئاً عاديا . فكثيراً ما يحدث أن عارضى المخطوطات أو الكتب للبيع ، يخافون من مصادرتها ، أو من الكشف عن روابطهم بالملاك السابقين المكتبات الكبيرة أو جلب النحس لأنفسهم إذا كشفوا عن علاقتهم مع أية عائلة مشهورة قبل الثورة .

وهذه السيدة سمت نفسها باسم روسى عادى إلا أنها قالت أنه كانت لديهم منذ وقت بعيد جدة عربية توفيت لا تذكرها .

وذكرت أيضاً أنه قد بقى من آثار جدتها ، حقيبة بها بعض الأشياء القديمة التى رأت الآن أن تبيعها بسبب سفرها ، وأن هناك فى الحقيبة بعض الكتب العربية والفرنسية . وأردت أن أمسك بهذا الخيط . فسألتها عما إذا كان من الممكن إرسال مستخدمنا من أجل رؤية هذه الأشياء فقد يوجد هناك أى شىء آخر مهم أو ممتع بالنسبة لنا .

لكن السيدة قالت بسرعة وبخوف إن الشقة لديهم غير مرتبة كثيراً . وأنهم سيقومون بأنفسهم بالفحص ثم يحضرون ما يجدونه . ولحسن الحظ أضافت

إلى الإجابة على سؤالى قائلة أنه يبدو أنه توجد فى الحقيبة أوراق أخرى مشابهة. ووعدتنى بأن تحضرها لأننى قلت لها أن ذلك يرفع من ثمن هـــذه الأوراق. ولم يسعنى آنذاك ألا أطيعها لا سيما أنها لم تذكر لى عنوانها.

وبقيت الأوراق التى كانت معها عندنا. وكان هذا ممتعا لى. على إننى كنت أشك فى قصتها عن الجدة العربية. فنحن حقيقة نعرف أنه كان فى عصر أمية فى أحد الضواحى الشرقية بقرطبة مائة وسبعون إمرأة شهرن بخطهن الجميل فى نسخ القرآن.

أما أن توجد فى القرن التاسع عشر إمرأة عربية تزوجت روسيا ثم يظهر أنها مالكة لهذه النسخة النادرة فانه كان شيئاً مشكوكا فيه بالنسبة لى.

على أن السيدة ظهرت من جديد. بعد أسبوع ونصف. وكان مدعاة لسرورى أنها حملت مرة أخرى بعض أوراق القرآن. وبهذا جمع لدينا ما يقرب من ربع نسخة كاملة لا يوجد مثلها فى أى مكان فى لينينغراد. وبناء على قول السيدة لا توجد هناك أوراق أخرى أكثر من ذلك. وحملت أيضاً بعض الكتب. وظهر أن ما هو بالفرنسية من هذه الكتب هى كتب عادية لقراءة التسلية، وهى حقا ذات تجليد حسن. وما هو منها باللغة العربية كتب عليه عن الفقه الإسلامى المطبوع فى الشرق ولا يمكن مطلقاً أن تثير اهتمام أى «جدة» حتى ولو كانت عربية.

ومن جديد فكرت فى المالك السابق لهذا القرآن الكوفى. وفجأة عندما قلبت فى يدى آليا أحد الكتب التى حملتها، رأيت على كعب الغلاف حرفين فرنسيين أعرفهما جيداً هما «ا. ن.».

ولم أظهر للسيدة انى فهمت اسم المالك وواصلت الحوار معها قائلا: «يعنى أن القرآن أيضاً من مكتبة ايرينى نوفل؟» فهمست خائفة وقد امتقع لونها: «من أين عرفتم؟» فأوضحت لها بصراحة حقيقة الأمر وكيف حللت اللغز. لكنها لم تبد صراحة أكبر. وانتظرت بمشقة تسلم النقود التى وعدتها بها،

وانصرفت بسرعة خائفة كما لو كان أحد سيقبض عليها . ولم أدر ما إذا كانت قد سافرت حقيقة أم استمر يؤلمها الخوف من كشفى عن اسم ايرينى نوفل — وعلى كل حال فلم تظهر السيدة فى المعهد بعد ذلك .

لكنى لم أقل أى شىء مخيف . وايرينى (أو بالعربى سليم) نوفل كان خلال مدة طويلة أستاذ للغة العربية والفقه الإسلامى فى القسم التعليمى للغات الشرقية بوزارة الخارجية الروسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . وكغالبية المعلمين هناك شعر بأنه مستخدم إدارى أو ديبلوماسى أكثر من كونه عالما . لكنه كان ديبلوماسيا لامعا من الناحية الظاهرية ، ومثل وزارة الخارجية مرارا بل وأحيانا مثل الحكومة الروسية فى المؤتمرات العالمية للمستشرقين .

وهو ينتسب إلى عائلة عربية مسيحية مشهورة فى طرابلس الشام . وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة . وفى وطنه ، فى سنوات شبابه ، استطاع ككثير من العرب المساوين له من حيث وضعهم فى المجتمع أن يقسم وقته بين التجارة ، وتمثيل الدول الأجنبية ، وبين الاشتغال بالأدب الذى كان نوعا ما فى مرحلة من النهضة فى منتصف ذلك القرن . وقد كتب بعض المؤلفات والكتب التى لقيت نجاحا . ووجهت إليه وزارة الخارجية الروسية اهتمامها .

وكان الشيخ الطنطاوى يدرس فى القسم التعليمى لوزارة الخارجية ، فلما مرض مرضا لا أمل فى شفائه ، دعت الوزارة نوفل لأن يشغل مكانه . ووصل إلى روسيا حوالى عام ١٨٦٠ ، وصار روسيا لدرجة أن أولاده الذين لم يكونوا مطلقا فى وطن ابيهم ، نسوا اللغة العربية . .

وهو نفسه انصرف عن الاشتغال بالأدب لكنه نشر بعض الكتب فى الفقه الإسلامى باللغة الفرنسية . لكنها لم تكن كتبا علمية بل أقرب إلى الكتب السياسية التى تحمل ظل ظله . فقد كان نوفل كالكثير من العرب المسيحيين لا يميل إلى الإسلام . وسمح مرارا لنفسه فى كتبه بالنيل من الرسول محمد ومن الإسلام . وقد احتج السفير التركى على ذلك وطلب مصادرة كتبه . وقد

حقق لنفسه فى وزارة الخارجية الروسية درجة كبيرة من الوظيفة ، وتسلم كثيرا من الرتب والأوسمة .

وكان قد بقى لديه بقية من الذوق الأدبى . وكانت مكتبته جيدة فى وقت ما. ولم تكن تحوى الكتب فحسب بل والمخطوطات أيضاً . وكانت منظمة كما يبدو من رموز كتبه التى كانت دائماً ذات طابع موحد . وكان نصيب المكتبة لسوء الحظ مؤسفا . فأولاده نصف الروسيين ونصف الفرنسيين كانوا قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الخاصة بأولاد كبار الشخصيات . وكانوا من أولئك الأولاد «ذوى الملاعق الذهبية» الذين كانوا معروفين آنذاك . ولم يكونوا يهتمون لا بالعلم ولا بالأدب . ولم يبلغوا اية وظائف عالية . وعاشوا فقط على اموال ابيهم . وانتهى بهم الأمر تدريجيا إلى انهم انتهزوا فرصة شيخوخة والدهم فأخذا يبيعون الكتب المختلفة سراً ، إلى تجار الكتب القديمة . وبعد موت أبيهم صارت المكتبة هباء منثورا . ونادراً وعلى نحو غير متوقع ، كانت بعض الكتب تظهر فى مخازن الكتب فى شـــارع «ليتينى» أو فى سوق الكسندروفسكى . وكانت أحيانا محتويات هذه الكتب غير عادية سواء كانت بالفرنسية أو العربية . وكانت أغلفتها أنيقة تحمل على كعبها الحرفين «ا . ن .» وبرموز مكتبية متماثلة على الأغلفة الداخلية لها . وهذه الكتب تتحدث عن صاحبها السابق الذى كان فى وقته هاويا للكتب ، والذى خزن بعناية ذلك القرآن الكوفى النادر . ولعل هذا القرآن لم يحفظ كاملا بسبب أولاده أيضا .

ولعل حفيدته لم ترد أن تتذكر مساوىء والدها التى تكون معروفة لها . أو لعلها خافت أن نكشف عن جدها الذى كان مستخدما كبيراً فى وزارة الخارجية فى زمن القيصرية . وبسبب هذا استبدلت «الجد العربى» «بالجدة العربية» . ومن الصعب القول أى هذين الاحتمالين هو الأصح . وكان من الخير على كل حال أن اغتنت مجموعاتنا بهذا القرآن الكوفى النادر بفضل هذه الحفيدة .

على أن الحرفين «ا . ن .» حملا قلبى على الخفقان مرة أخرى وفى موقف آخر عندما رأيتهما على كعب كتاب «وصف الروسيا» وهو المسودة التى كتبها بخطه الشيخ الطنطاوى الذى كان سلفا لنوفل فى التدريس بالقسم التعليمى للغات

الشرقية . وبعد أعوام كثيرة عرفت ، مصادفة ، أن تخميني كان مضبوطاً وأننا اشترينا القرآن الكوفى حقيقة من حفيدة نوفل .

٤ — المراقب الملازم لشامل فى كالوجا

(١٩٢٨ — ١٩٤١)

إن تاريخ استعرابنا معروف معرفة رديئة لدى المتخصصين ، وغير معروف إطلاقا فى الدوائر العلمية الواسعة . أو فيما وراء حدود بلادنا ، فى حين أن لهذا التاريخ معالم ولحظات ممتعة ليست بالقليلة أعطته أحيانا شكله الخاص وأصالته التى لا يوجد لها مثيل فى الغرب . وينبغى أن لا يغيب عن البال أن استعرابنا العلمى أحدث من الاستعراب الغربى بقرنين وأن كثيراً من جوانبه انفتحت فى الفترات الأخيرة ، وكثيراً ما كان انفتاحها مصادفة تماما .

ونحن لا نعرف حتى الآن إلا معرفة رديئة جداً المستعربين من الأوساط العسكرية مع أنهم كانوا موجودين دون شك ، ولا يجوز اعتبارهم جميعاً مجموعة من المترجمين فى النواحى العملية . وبالطبع فإن وطننا كان يشعر دائما بقلة العلاقات المباشرة مع البلاد العربية ، ولم ينشأ من الكتاب أو السياسيين مثل لورنس أو فيلبى. لكن علاقاتنا مع الشعوب التى استوعبت الثقافة العربية كانت قوية . فكانت هذه الشعوب فى كثير من الأحوال جيرانا لنا وكانت أحيانا ضمن حدود بلادنا ودولتنا . وقد ساعدت آسيا الوسطى على خلق مستشرق عظيم من « الكابتن تومانسكى » الذى احتفظ بهذا اللقب عندنا فى الأوساط المختلفة وفى الشرق ، مع أنه مات جنرالا . وأن اهتمامه بدراسة تراث البابيين قد جعل منه بالتدريج مستعربا جديا . واستطاع أن ينشر « كتابهم المقدس » الأساسى المؤلف باللغة العربية . وتوطد اسمه فى العلم إلى الأبد بكتاب لمؤلف مجهول يعرف باسم « مجهول تومانسكى » هو مخطوط بالفارسية يعكس بوضوح تطور علم الجغرافيا العربى فى القرنين التاسع والعاشر . وكان تومانسكى هو الذى اكتشفه .

وحتى الآن لم يوضح تاريخ استعرابنا تماماً تلك الصورة التى كان مهادها

اللغة العربية فى شمال القوقاز أى فى داغستان وتشيتشيتيا . فقد كانت اللغة العربية هناك طيلة عدة قرون هى اللغة الفصحى الوحيدة لا للعلم فحسب بل لعلاقات الأعمال أيضا . وبهذه اللغة تطور تراث له معالمه الخاصة ، خلق رجال الشريعة المحليين ، والمؤرخين والشعراء . وتولد هناك أدب كبير باللغة العربية الفصحى التى كانت تستعمل كوسيلة حية للعلاقات بين القبائل . إن مستعربى القرن التاسع عشر لم يتحدثوا مطلقاً بجدية عن هذه الصورة الممتعة والعظيمة فى بابها . ولعلها ظلت مخفية عنى أيضا لو لم تحملنى المخطوطات على التفكير فيها .

فى نهاية العقد الثالث من هذا القرن اشتريت بالمصادفة مخطوطاً لترجمة للقرآن من أحد الشخصيات غير المعروفة لدى . وينتسب المخطوط بملاحظاته إلى « الجنرال د . ن . بوغوسلافسكى » كما يشير إليه الغلاف الأزرق المخطوط . وهذا الاسم لم يوح إلى بأى بشىء آنذاك . بل أننى لم أستطع أن أخمن على الفور أن الإختصار الحرفى لكلمة « جنرال » المكتوب على الغلاف يعنى هذه الرتبة العسكرية بالضبط . وكان من الصعب على أن أتصور أن هــذا العمل الجدى المعقد يرجع إلى رجل عسكرى المهنة . والانطباع الذى آثاره المخطوط بأجمعه ، هو أنه « مبيضة » كتبها المترجم بخط يده . والأوراق التى كتب عليها هى من نوع جيد ذات حجم كبير . والمقدمة مؤرخة فى عام ١٨٧١ وتشير إلى أن المؤلف زار استانبول . على أن النظرة العاجلة فى المخطوط ، والاستيضاحات المختلفة الطارئة مرتبطة مع اشتغالى بالقرآن ، سرعان ما أقنعتنى بأن الترجمة تمت على أساس الأصل العربى وبأن المترجم مستعرب واسع الاطلاع . لكن ما هو ؟ هذا ما لم أفكر فيه بسبب انشغالى بأعمال أخرى فى ذلك الوقت . ثم فتحت لى الصدفة الثانية عن هذا دون انتظار . وعلى الفور دخل هذا الموضوع إلى دائرة اهتماماتى العلمية الحديثة .

فى بداية القرن العشرين ، فى شارع بتروزافودسكايا من حى المدينة البتروغرادى ، غير بعيد عن شارع غيسليروفسكى ، كان يقوم منزل ليس بالضخم مبنى من الحجر ، ذو ثلاثة طوابق ، وبشكل مقبض نوعا ما . ولم يكن المبنى يتميز عن باقى البيوت المجاورة بأى شىء خاص به من ناحية الشكل الخارجى .

بل لم يكن له [illegible] قول ، أية ناحية من فن العمارة . وكان الجيران يعرفون أن هـذا البيت يقطنه صاحبه نفسه مع أسرته . ولم يـكن أحد من الجيران بل والقليلون فى مدينة بطرسبورغ كلهـــا من كان يظن أن كل البيت ، عدا بعض الحجرات السكنية ، يمتلىء بالمجموعات العلمية النادرة ، وأن المنزل يمثل متحفاً كبيراً له شكله الخاص . ولقد ذكر ا عارفون من الناس أن مالك المنزل قد أنفق على جميع هذه المجموعات تركتين كبيرتين ورثهما بالإضافة إلى حالته المالية الممتازة التى تزعزعت الآن . وكان من الصعب أن يحدد بكلمة واحدة طابع هذا المتحف الذى يعكس بوضوح ذوقا واهتماما واسعاً . بل ويعكس فى الوقت نفسه حقيقة النظام والترتيب الذى يتمتع بهما صاحب هذه المجموعات .

وكان المؤرخ الروسى بحسب تخصصه المهنى عارفا كبيراً فى الوقت نفسه بالثقافة البيزنطية ومتخصصاً كبيراً جداً فى المواد الثانوية للتاريخ . وكان هذا المتحف يعسكس جيداً تلك الآفاق الواسعة والمعارف الدقيقة الخبيرة لصاحب هذه المجموعات الذى يعرف جيداً تجار الآثار القديمة المشهورين فى العالم . ولذلك فانه فيما بعد عندما انضم المتحف إلى أكاديمية العلوم كان من الصعب إيجاد تسمية صحيحة تليق بالمتحف . فسمى أولا « متحف علم تطور الخطوط الأثرية » ، ثم بعد ذلك « معهد الـكتاب ، والوثيقة ، والرسالة » ، وفى آخر الأمر تفرقت مجموعات المتحف بين مختلف مجموعات أكاديمية العلوم وغيرها من المؤسسات . أما الوحدة الحقيقية للمتحف فقد كانت موجودة فقط بفضل شخصية صاحبها الذى كانت له اهتمامات عديدة لن تتكرر بمثل هذه الصورة من اتساع الأفق .

ولقد كان المستشرق والمستعرب ، بصرف النظر عن اختصاصهما ، يجد كل منهما لنفسه مادة علمية فى ذلك المتحف الممتع ، الموجود بدون لافتة فى شارع بتروزافودسكايا . وكم هناك من أشياء فريدة ! لوحات بابلية قديمة ومراسيم بابا روما ، وشاهدات قبور عربية من القرون الأولى للاسلام ووثائق بيزنطية ، ومراسيم مدينة كريمونا الايطالية ، وأوراق بردى عربية من مصر ... ولم يكن المستعرب وحده هو الذى تزوغ عيناه ، والواقع أن صاحب المتحف السخى كان يعرف كيف يجذبهم بثروته العلمية التى كانت أحيانا ذات طابع غير منتظر إطلاقا .

وفى بداية الحرب العالمية الأولى شغف بدراسة الجزء الذى كان فى المتحف من محفوظات السائح الإيطالى المشهور فى بداية القرن السابع عشر بيترو ديلا فاله. وفى هذه المحفوظات وجدت رسائل عربية من أهل عشيرة زوجته التى ولدت فيما بين النهرين بالعراق . وهذه الرسائل هى آثار ممتعة جداً عن أدب الرسائل العربية فى ذلك الوقت . وهى مهمة جداً لتاريخ علم اللهجات العربية ، ولتاريخ حياة أحد الآنسانيين ورائد الاستشراق الإيطالى . وكان يلزمنى لفهم هذه الرسائل بعض استفسارات فى المحفوظات الإيطالية . وكان من الصعب الحصول عليها بسبب فترات انقطاع العلاقات مع إيطاليا . وبقيت كل هذه المواد جميعها غير منشورة حتى الآن . ولحسن الحظ لم تنشأ مثل هذه الصعوبات فى الحالات الأخرى . ومن هذه المجموعات صدرت تلك التعويذة من جنوب الجزيرة العربية ، وتلك اللوحة النحاسية المغربية ، وخرجت طبعة ضخمة عن صور شواهد القبور العربية ، ووضعت دراسات أوراق البردى العربية على أرض ثابتة. على أن مجموعات المتحف التى جمعت فى وقت ما من كل أنحاء العالم فى منزل شارع بتروزافودسكايا ، تحتوى على كثير من الكنوز العلمية غير المعروفة لدى المستغرب .

وذات مرة ، سنة ١٩٣٢ ، عندما كنت أنظر فى فهرس معهد الكتاب والوثيقة والرسالة ، وجهت اهتمامى إلى رسالة لشامل مشار اليها فى الفهرس . وقد ظهر أن هذه الرسالة هى حقيقة بامضاء شامل نفسه بل لعله كتبها بخط يده باللغة العربية بالطبع فى السنوات الأخيرة من وجوده فى روسيا قبل سفره إلى جزيرة العرب بوقت قليل. والرسالة معنونة باسم « الأمير الجنرال بوغوسلافسكى » وهنا تذكرت على الفور مترجم القرآن . ومع أنه توجد هنا كلمة « الأمير » إلا أن الاسم بدون شك هو لشخص واحد . ذلك لأن لقب « الأمير » كان يعتبره سكان القوقاز عائداً لجميع العسكريين أو المدنيين الكبار وأحسست بأنى أفلت من القدر هذه المرة وأنه يجب على أن أعمل على توضيح هذه الشخصية التى حملتنى المخطوطات على الالتقاء بها للمرة الثانية .

وقد ظهر أن هذا ليس بالأمر الصعب . فقد وقع فى يدى خيط « أريادنا » ثم أخذت الأمور بعد ذلك تسير من تلقاء نفسها ، واستسلمت « الوحوش » للصيد ، جماعات . وابتدأت التوضيحات تظهر من كلا الجانبين العربى ، والروسى . فقد وجد فى المتحف الآسيوى مخطوط بخط صهر شامل عن ذكريات إقامتهما فى روسيا . وقد أثنى مؤلف المخطوط بحرارة بالغة على الكولونيل بوغوسلافسكى الذى كان يعرف اللغة العربية ، فعين مراقباً ملازماً لشامل فى بطرسبورغ وفى الفترات الأولى من وجودهم فى كالوغا . وقد أكدت الوثائق الروسية أنه كان أول مراقب ملازم لشامل ، ثم حل محله بعد ذلك كل من رونوفسكى وبرجيتسلافسكى . وكان هذان الأخيران معروفين فى الأدب ، بحكم أنه قد طبع لهما كثير من ذكرياتهما ومقالاتهما عن شامل ، وبخاصة عن حياته فى روسيا . هذا فى حين أن بوغوسلافسكى لم يكتب أى شيء تقريباً عن حياة شامل ولعل ذلك يرجع إلى أسباب خاصة لديه . وكان هذا مما يدعو إلى الأسف ، ذلك لأن جميع المواد العربية التى ترتبط بشامل تمدح بوغوسلافسكى دائماً بأحسن النغمات .

ولعل ميل بوغوسلافسكى إلى الإيجاز كان سبباً فى قلة المعلومات المطبوعة عنه . وكان لبوغوسلافسكى بثقافته الاستشراقية ارتباط ما مع جامعة بطرسبوغ . وفيما بعد ، أشار كاظم بك عميد كلية اللغات الشرقية المعروف فى ذلك الوقت ، فى إحدى مقالاته عن بعض المسائل الاستشراقية إلى بوغوسلافسكى ، كمثال على ما يستطيع أن يحصله المستمع الحر — لا الطالب — من الاستفادة من محاضرات الجامعة . وعندما كتبت هذه المقالة كان بوغوسلافسكى يعمل فى سفارتنا بالقسطنطينية . وظهرت مصادفة جديدة سمحت بالافتراض بأن اهتمامات بوغوسلافسكى ، خرجت فى تلك الفترة بعيداً عن نطاق وظيفته كملحق عسكرى عادى . ففى إحدى مكتبات ليننغراد توجد نسخة ممتعة من ديوان أشعار الصحفى العربى الذى كان لاجئاً فى روسيا ، رزق الله حسونة مترجم كريلوف . وكانت هذه النسخة مهداة من المؤلف إلى بوغوسلافسكى مع إهداء شعرى مؤثر جداً ، يتضمن تلميحات الساعدة التى أبداها له . والغالب أن بوغوسلافسكى ساعده فى هربه من تركيا إلى روسيا .

وهناك فى القسطنطينية أتم بوغوسلافسكى ترجمة القرآن التى وقعت فى يدى . وهى عمل يعطى كل الحق لهذا الجنرال فى أن يحتل مكاناً فى تاريخ استعرابنا . وطيلة القرنين التاسع عشر والعشرين كانت هذه هى المرة الثانية فقط التى ترجم فيها القرآن إلى الروسية من الأصل العربى . وتدل الظواهر على أن هذه الترجمة كانت من قبل معدة للنشر . وإذا كانت قد بقيت غير منشورة — فلعل السبب فى ذلك يرجع إلى أنه اتفق فى ذلك الوقت ، من العقد الثامن من القرن الماضى ، أن ظهرت فى مدينة قازان ترجمـــة سابلوكوف الذى كان فى وقت ما معلماً لتشير نيشيفسكى(*) فى مدينة ساراتوف . ويمكن القول بأن الترجمة كانت مهنة لسابلوكوف وأنه أعطى من حياته لهذا العمل عشرات السنين . أما الشىء الممتع فهو أنه فى نهاية العقد العاشر عندما سلمت أرملة بوغوسلافسكى ترجمته إلى أكاديمية العلوم ، أشار المستعرب الكبير روزن فى تقريظه الذى اكتشف فى محفوظاته ، إلى أن هذه الترجمة لا تقل فى قيمتها عن ترجمة سابلوكوف . ومثل هذا التقييم من جانب هذا المستعرب العظيم كبير الدلالة . وإذا نحن وزنا جميع الظروف الخاصة بتطور ثقافتنا فى منتصف القرن التاسع عشر فمن الممكن أن يؤدى ذلك إلى الاعتراف بأن رفع هذا الجنرال إلى مثل هذه الدرجة من العلم كان أصعب من رفع سابلوكوف الأستاذ بالأكاديمية الروحية .

لست أعرف ما إذا كان يوجد من الجيل التالى لبوغوسلافسكى أى تلميذ أو تابع من بين أولئك الذى عرفوه ، واستطاعوا أن ينفذوا مباشرة إلى استيعاب اهتماماته . إلا أنه بالنسبة لى ، فإن معرفتى بشخصيته كشفت لى تدريجياً وعلى نحو غير ملحوظ عن صورة لم تكن مرئية من قبل قط ، هى صورة الأدب العربى فى القوقاز . وكما حدث مراراً عند تركيز الأفكار على موضوع جديد ، توافرت العملية إلى حد لم يعد معه من داع للبحث عنها خصيصاً ، بل جاءت

---

* من أعظم الديموقراطيين الثوريين الروس وكاتب وعالم ناقد . (١٨٢٨ — ١٨٨٩) .

المواد بنفسها إلى يدى . ولقد اندهشت . صدفة ، كيف لم يستطع أحد ملاحظة هذه المواد من قبل .

إن خطاب شامل إلى بوغوسلافسكى جذب معه بعض الآثار المماثلة الخاصة بأدب الاتصال والرسائل . فقد أدت الترجمات الضعيفة لبعض المترجمين الطارئين إلى معرفة الأصول التى اكتشفت تدريجياً . وفى هذه الأصول ، معالم خاصة للأشكال المختلفة للحروف العربية ، التى كانت أحياناً علامات تشكيل لا تجدها فى أى مكان آخر . وكان هذا يقف أحياناً للوهلة الأولى كسدّ مانع لفهمها . على أن الوثائق المختلفة كثيراً ما أحيت أشياء غريبة . ومن هذه الوثائق أمر شامل المكتوب على ورق شجرة البلوط الذى اكتشف فى متحف مدينة روستوف . وهناك فى المتحف الآسيوى ، ظهر مخطوط ، كان موجوداً فيه منذ وقت بعيد ومكتوب بخط صهر شامل عن ذكريات حياتهما فى روسيا .

وقد أظهر هذا المخطوط مرة أخرى ، كيف أنه يجب النظر باحتراس ، حتى إلى ترجمات رونوفسكى المراقب الملازم لشامل ، التى اعتبرت مصدراً تاريخياً موثوقاً . وفى تركة أحد أساتذة كلية اللغات الشرقية ، عثر على نسخة مفحوصة من قبل الرقابة ، وهذه النسخة هى عن تاريخ شامل ، وكان قد ألفها أحـــد أمنائه الأقربين . وهى فى آخر صورة لها ، تتناول حتى السنين الأولى من القرن العشرين .

إن المهارة فى استعمال اللغة العربية ، تتحدث عن الحيوية العظيمة لهذا التراث العربى فى القوقاز فيما بعد أيضاً . فى العقد الثالث من القرن العشرين ، أرسل إثنان من القوقازيين من الاينغوش لإكمال تعليمهما فى معهد لينينغراد للغات الشرقية . وكانا لا يعرفان إلا لغتين : لغتهما الوطنية واللغة العربية . وكانا يتحادثان باللغة العربية بطلاقة تامة ، فى مختلف الموضوعات عن السياسة العالمية والحياة المعاصرة . بل إن أحدهما كان ينظم بسهولة ، أشعاراً عربية على أساس أصول وقوانين الشعر العربى القديمة .

وفى العقد الرابع من هذا القرن أرسلت إلى من شمال القوقاز مجموعة أشعار

عربية لشعراء الفترة الأخيرة . وقد بلغ بى الأمر ، من شدة المفاجآت فى أول اللحظات ، أننى ظننت أن فى الأمر « مقلباً » مدبراً . ذلك لأننى ذهلت من المعرفة الواثقة لكل أشكال وألوان الشعر العربى القديم فى هذه المجموعة . لكن لم تكن هناك أية « مقالب » . فإن قـــوة تيار التراث العربى القديم فى القوقاز ، استطاعت أن تحمل حتى أيامنا ، اللغة العربية الفصحى التى لا تستخدم فى التخاطب العام فى موطنها فى البلاد العربية . أما فى شمال القوقاز فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة ، لا فى الكتابة فحسب ، بل وفى الحديث أيضاً .

وقد صبت عندى مواد هذا التراث ، واتسعت صورته ، واكتشفت بالتدريج منابعه التى تأخذنا أحياناً بعيداً وراء حدود تركيا ، لا إلى سوريا ومصر فحسب ، وإنما أيضاً إلى المملكة العربية السعودية واليمن . وقد قرأت بانفعال كبير قصة أحد اليمنيين من القرن الثامن عشر الذى سمع فى وطنه فى صنعاء أحد الداغستانيين الذى رحل إلى هناك والذى كان يتكلم بلسان عربى بليغ إلى درجة أن « اقشعر بدن » هذا اليمنى على حد تعبيره . وها هو الآن بعد قول هذا العربى الخالص فى عروبته ، صار من الواضح لى ذلك الانطباع الأول الذى أثارته لدى آثار الأدب العـــربى فى القوقاز أو الذى أثاره لدى ذلك الحوار العربى مع القوقازيين اللذين ظهرا بالصدفة فى لينينغراد .

وارتسم عالم جديد أمامى ، وانفتح امتداد تطور خاص كما لو كان فرعاً جانبياً من الأدب العربى ، والذى كان من الصعب أن تجد مقارناً له . ولقد كانت آثار هذا الأدب أكثر تنوعاً مما كان يبدو للوهلة الأولى ، وكانت مهمة لا للتاريخ المحلى فى القوقاز فحسب وإنما للاستعراب أيضاً ، وللتاريخ العام للأدب العربى .

وقد وجدت هذه الآثار الأدبية فى القوقاز قريبة منا جداً ، وكان مايدعو إلى العجب الشديد ، هو أن الاستعراب الجامعى لم ينبس ببنت

شفة عن هذه الآثار طيلة كل القرن التاسع عشر . إن علمنا الاستعرابى ما زال ناشئاً تماماً ، ولم يتمكن من الإحاطة بكل المجالات . لكن لعله لم يوجه اهتمامه نحو القوقاز تحت تأثير المزاج النفسى الذى يتردد مراراً . بل وفى العلم أيضاً ، وهو « أن الشىء القريب مزهود فيه » . فلم يقف ملاصقاً الأدب العربى فى القوقاز إلا المستعربون المترجمون من العسكريين . وإن شخصية أول مراقب ملازم لشامل لتتميز من بينهم ، وقد احتلت مكانها فى تاريخ علم الاستعراب . ومع مرور الوقت . حين يجد فصل الأدب العربى بالقوقاز مكانه الذى يستحقه فى التاريخ العام للأدب العربى ، ينبغى لنا ألا ننسى أن المخطوطات المرتبطة باسم الجنرال بوغوسلافسكى هى التى أعطت أول دفعة فى جيلنا نحو التعرف على هذا الأدب .

٧ ـ ظل الأجداد

١ ـ « صريع الأدب العربى »

(١٩١٠)

فى الأدب العربى ، كثير من الكتب التى تتعلق بالعشق والعشاق مبنية على أسس مختلفة . بعضها منثور . وبعضها منظوم . إلا أنها تزخر بمختلف ألوان المشاعر الإنسانية. وتبدأ هذه المختارات بالقصص عن العذريين ، من قبيلة بنى عذرة ، الذين « صرعهم الحب » . وعن هذا تحدث كل من الشاعر الألمانى هنريخ هاينه فى أشعاره والموسيقى الروسى روبنشتين فى موسيقاه .وفى هذه المختارات إلى جانب ذلك ، بعض الفصول التى يمكن أن نضمها الآن فى مقالة عن الشذوذ أو حتى الأمراض النفسية .

يمكن غالباً العثور فى هذه المختارات على فصل عن أولئك الذين وقعوا فى هوى المحبوب من صورته . وقد أثار هذا الموضوع وكثيراً من المؤلفات فى الأدب العالمى ، بعضها بليغ وبعضها عادى . وهذا الشعور العاطفى الذى تولد عن الصورة المنقولة من الأصل ، معروف جيداً لدى جميع المشتغلين بالمخطوطات ، إذ غالباً ما يحدث فى جيلنا أن يعمل الإنسان على صورة شمسية من المخطوطات . وهذا ما لم يعرفه أجدادنا . فقد كانوا يعملون دائماً على أصول المخطوطات أو على نسخ منها مكتوبة باليد . ولكن هذه النسخ لم يكن فى وسعها ، حتى مع مهارة نساخها ، أن تعكس التفصيلات الكثيرة . وعبر هذه النسخ كان يمكن الدخول إلى المضمون فقط ، دون الشعور بحيوية المخطوط وبذاتية خطوطه ، التى لا توجد إلا فى الأصل . وبالطبع فإن الصورة الشمسية للمخطوط أيضاً، تترك العالم لا حول له ولا قوة أمام المسائل المعقدة الخاصة بتحليل كتابه المخطوط .لكن كما أن صورة الإنسان السالف منذ زمن بعيد ، تعطى إمكانية للشعور به، فإن الصورة الشمسية للمخطوط ، تعطى إمكانية لتصور من كتب أصله . ومع أن الصورة الشمسية تسجيلية ، وبدون حيوية ، وعلى مادة أخرى ، وبألوان أخرى ، إلا أنها أدق

بدرجة لا تقارن من يد الإنسان ، مهما بلغت من المهارة ؛ فهى تعكس جميع الملاحظات ، والتصحيحات . ولا يندر أن تظهر بوضوح عبر هذه الوثيقة « الثانوية » شخصية من اشتغل على المخطوط نفسه ، وشخصية من درسه ، شخصية لم يرها ذلك الخلف العجول بوضوح عندما أمسك فى يده بهذا الأثر العلمى .

فى آخر شتاء لى فى بيروت فى ١٩٠٩ — ١٩١٠ ، انتهى معلمى الأستاذ العربى لويس شيخو من عمله مدة سنوات طويلة على نشر ديوان أشعار من القرن التاسع للبحترى . وكان هذا الديوان مجموعة أشعار من نوع آخر . فهو لا يتناول العشق والعشاق إنما يتناول جزء منه أشعار « الحماسة » التى أخذ منها الديوان أسمه ، والتى تتشابه مع أشعار معاصره ومنافسه أبى تمام ، ويتناول الآخر شتى المبادىء الخلقية التى تصور بوضوح المثل العليا للعصور الأولى لازدهار الثقافة العربية .

وكان مصير هذه المجموعة غريباً . فلسبب ما لم تتمتع عند العرب بشعبية وشهرة . ولم يعرفها إلا القليل منهم. بل إن عبد القادر البغدادى (فى القرن السابع عشر) الشارح المفسر المدقق الذى أمضى الجزء الأكبر من حياته فى القاهرة ، وزار أدرنة واستانبول ، والذى تتضمن مجموعته الضخمة « خزانة الأدب » كثيراً من الاقتباسات من المؤلفات المفقودة وهو ما لا يقدر بثمن بالنسبة لنا ، قد اعترف ، مع كل هذا ، بأنه لم يسمع بديوان « الحماسة » للبحترى. على أن الأقدار قد سخرت منه . ففى القرن السابع عشر نفسه ، ابتدأ « الفرنجة » يحتكون عن كثب بخزائن الآداب الشرقية وبدأوا بانتظام فى جمع المخطوطات. وكان من بينهم الممثل الدبلوماسى الهولندى فى تركيا ، الخريج الجديد من مدرسة المستعربين المعروفة فى ليدن والذى أهدى جامعته العزيزة « مجموعة وارنر » «Legatum warnerianum» وهى مجموعة مخطوطات غنية كان من بينها مخطوط ديوان « الحماسة » الذى حمله من استانبول . وهذا المخطوط يعتبر فريداً حتى أيامنا هذه . وعلى أساسه أعد شيخو نشره للمخطوط . وكان قد قام بنسخ صورة خطية لنفسه من المخطوط فى ليدن فى العقد العاشر من القرن الماضى .

وكنت فى ذلك الوقت ألتقى معه كل يوم تقريباً فى المحاضرات أو فى المكتبة

الشرقية المريحة فى جامعة القديس يوسف . وكنت على معرفة بسير العمـــل فى المخطوط . وأحيانا كنت أنظر نسخ تجارب الطبع . وعند الوداع أعطانى شيخو بعض الملازم المطبوعة . واستطعت أن أدرسها وأنا على الباخرة فى طريق إلى أوديسا . وكانت الطبعة قد أعدت كلها بعد أن رجعت إلى روسيا فى النصف الثانى من عام ١٩١٠. وقبل ذلك بقليل كانت قد ظهرت فى ليدن طبعة فوتوغرافية رائعة المخطوط الفريد . وهكذا أصبح لدى إمكانية لأن أ تمثل الأصل الجميل لطبعة بيروت ، وأن أتحقق من صحة هذه الطبعة عند اللزوم بطريقة مضبوطة تماماً .

وعندما كنت غارقا فى ديوان « الحماسة » تحت تأثير انطباع حى من دراساتى اللبنانية القريبة العهد ، فإننى سرعان ما لاحظت أن على هامش المخطوط ، كثيراً من الملاحظات التى كتبت بيد أخرى غـــير التى كتب بها الأصل . وغالبية هذه الملاحظات باللغة العربية . لكن بينها ملاحظات باللغة اللاتينية ، ترجع بحسب رأيى إلى الشخصية نفسها التى كتبت الملاحظات العربية . وقد أدهشنى أن كلا من الناشر البيروتى والناشر الليدنى لم يوجه أى اهتمام إلى هذه الملاحظات. فقد اعتبرها شيخو ملاحظات عادية إما لنساخ شرقى أو لقارىء ما . وعلى هذا استخدمها شيخو آليا فى فحص النص ونقـــده . غير أن شيخو لم يلتفت إلى سمات الخط الأوروبى الذى كتبت به هذه الملاحظات كما لم يلتفت إلى الملاحظات اللاتينية . ولم يشر محرر طبعة ليدن إلى هذه الملاحظات أيضاً . لكن لا يمكن أن يكون كاتب هذه الملاحظات قارئاً عادياً بسيطاً. فى أغلب الأحوال كانت هذه الملاحظات تصحيحات سليمة للنص . وكثيراً ما كانت الملاحظات أيضاً صوراً نصية مباينة من مصادر أخرى .

وقد أشير ، عادة ، إلى هذه الصور المباينة فى الاقتباسات الموجودة باللغة اللاتينية. ومن هذه الملاحظات أمكن الإحساس بسهولة بأن مؤلفها كان على معرفة بكل ما طبع من المخطوطات حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وبما يوجد فى مجموعة مخطوطات ليدن ، وهو أمر من السهل التحقق منه حالياً بفضل المطبوعات التى ظهرت طيلة القرنين الأخيرين . وإذن فلا يمكن أن يكون صاحب هذه الملاحظات إلا عارفا كبيراً ذا معرفة واسعة وذاكرة عظيمة . وهذه الملاحظات

تتحدث عن اهتدائه بطلاقة إلى الطريق ، وسط ألف ونصف من القطع الشعرية ـ القصيرة عادة الموجودة فى ديوان « الحماسة » وذلك دون أن يستعين بالمصادر الميسرة لنا من الفهارس أو الدلائل .

فمن ترى يكون صاحب هذه الملاحظـــات ؟ أهو وارنر صاحب مجموعة المخطوطات نفسه ؟ لكن الاقتباسات تشير أحياناً إلى مطبوعات القرن الثامن عشر ، وعدا هذا فإن وارنر كان قلما يهتم بالموضوعات الأدبية البحتة . أهو أى شخص من الهولنديين من القرن الثامن عشر ؟ إن الاحتمال الوحيد هو أن يكون سخولتنس الأكبر ، مؤسس العائلة الاستعرابية التى شغلت كرسى الاستعراب ثلاثة أرباع قرن ، وهو وحده الذى كان يعرف هذه المواد العلمية بكاملها . لكن الاستعراب كان بالنسبة له بالأحرى « كخادم لعـلم اللاهوت المسيحى » ، ومن غير المعقول أن يـكون على هـذه الدرجة من الانجذاب ، فيغرق نفسه فى دراسة ومقارنة النصوص الشعرية . ومعنى هذا إذن ، أنه يجب أن يبحث عن مؤلف الملاحظات بين العلماء الذين سافروا إلى هولندا فى تلك الفترة . وهذه المسألة سرعان ما حلها نهائياً اتفاق المصادفات . فعندما كنت استعد المحاضرات عن تاريخ الاستعراب ، اتجهت إلى ترجمة حياة ذاتية تراجيدية لأحد العلماء الألمان من القرن الثامن عشر . ووقفت أمام عينى وبحروف ملتهبة إحدى صفحاتها الأولى التى يتحدث فيها عن رغبته فى التوجه إلى ليدن فى عام ١٧٣٨ عندما كان عمره ٢٢ عاماً :

« لقد أصابنى الضر من هذا . كان على أن أدفـع ثمن حماقتى غالياً بل وغالياً جداً ، لقد أصبحت صريع الأدب العربى . ياليت ظمئى الملتهب آنذاك إلى هذا الأدب ، هذا الظمأ الذى لم يجلب على إلا التعاسة لأنه أصابنى فى وقت جد مبكر ، فى وقت لم يكن أحد محتاجا إليه وبالأحرى لم يكن أحد يقدر ذلك أو يشجعه أو يكافىء عليه ؛ أو ليت هذا الظمأ يهتدى إلى نفس تستطيع فى وقت ما أن تحيا فى أزمنة أكثر سعادة ! وإذا جاءت هـذه الأزمنة فى وقت ما ، — وإن كان ليس هناك أمل فى هـذا ، — فعندئذ يقدر الأدب العربى ، ويدرس باهتمام أكثر مما هو الآن » .

هكذا كتب « ريسكه الفذ » — كما سماه ث. مومزين المشهور — بأسلوبه العادى شديد العصبية . وريسكه هذا يعتبر الآن أكبر مستعرب ومتخصص فى الدراسات الهلينية فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر . وكان من الصواب أن تبقى صفته « صريع الأدب العربى » كما لقب نفسه فى آخر حياته . ولم يكن هذا اللقب مجرد عبارة . فمنذ تلك اللحظة التى كان فيها تلميذاً فى عامه السابع عشر فى مدينة ليبزيغ ، حيث وصل إليها من بيت يتيم فى مدينة هاله ، شعر على حد قوله « برغبة ملحة غامضة مجهولة لدراسة اللغة العربية » . وحتى آخر أيام حياته « ذاق تماماً معنى مرارة الفقر » كما كتب بكآبة مؤلف ترجمة حياته . وإلى جانب هذا تذكر كلمات معاصر آخر عظيم ، استطاع أن يقدره ، هو ك. نيبور الذى لعب دوراً علمياً هاماً فى عصره ، برحلته إلى جزيرة العرب . وقد نقل هذه الكلمات عنه إبنه المؤرخ فى التاريخ القديم والتى يقول فيها : « إذا كان أى إنسان من قومنا قد ذاق تعاسة الكمال المطرد فانه هو ريسكه ... الذى كان يكافح الجوع بكل معنى الكلمة ، الأمر الذى عرفته كل ألمانيا » . وبهذا الأسلوب الحزين لنغمة موسيقية تراجيدية تدق عبارات مؤلفى ترجمة حياته باللغة اللاتينية تارة وبالألمانية القديمة تارة أخرى . وحتى الآن وبعد ما يقرب من قرنين من الزمان ، فإنه لم تضعف هذه النغمات الضاغطة الحزينة لتلك العبارات .

وقد وصل ريسكه إلى ليدن سائراً على قدميه بالطبع . وهناك أمضى ثمانية أعوام من شبابه فى ظروف معدمة « مزيلا الجوع — على حد تعبيره — بالأطباق الغنية من مجموعة مخطوطات وارنر . ولم يكتف بالقراءة فقط ، بل نسخ مكتبة كبيرة من المخطوطات التاريخية والشعرية ومن بينها كانت « حماسة » البحترى التى انتهى استنساخها فى ١٠ أيلول (سبتمبر) ١٧٤٠ . ولقد بقيت آثار دراسته لهذا المخطوط فى ملاحظاته على مخطوط ليدن والتى نقلتها إلىّ الصورة الشمسية للمخطوط التى أرتنى الطريق إلى الشخصية الرائعة ، لجدنا التعس الحظ فى العلم .

لقد جاء حقاً قبل أوانه . ففى العصر الذى سيطرت فيه نظرية أن الاستعراب

يجب أن يقتصر على خدمة « علم اللاهوت المسيحى » ، جرؤ على أن يعلن : « أن اللغة العربية يمكن أن تكون مفيدة جداً للتاريخ والشعر وهذا ما يقوى رغبتى فى أن تكون اللغة العربية عندنا أكثر شهرة وذيوعا . ولا يهمنى أن ما يسمى « بعلم اللغة المقدسة » ، يمكن أن يبنى على أساسها ... وإذا أردنا أن نساعد اللغة العربية ، فإنه ينبغى ألا تدرس كما يدرس علم اللاهوت . فبمساعدة اللغة العربية يجب العمل على تفسير واغناء التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والطب». وهكذا يمكن أن يعتبر ريسكه أول من نادى عن وعى وسعة بأن يكون للاستعراب دوراً مستقلا فى الاستشراق وفى العلم بصفة عامة . إلا أنه لم يستطع أن يجد فى عصره من يشاركونه الشعور فى نظرته ، وكانوا ينظرون إليه فى أحسن الأحوال كما لو كان « إنساناً بالغ الغرابة يحترم دراسته الشرقية فوق كل شىء » ، وبمثل هذا تحدثوا عندنا (فى روسيا) فى القرن الثامن عشر نفسه عن مستشرق اخر غير مفهوم هو «كر» صاحب المشروع المنسى لتأسيس « مجمع علمى أسيوى أو جمعية العلوم واللغات الشرقية » فى روسيا وهو المشروع الذى فكر فيه لومونوسوف أيضاً .

وأن السعادة الوحيدة التى وجدها ريسكه هى فى المخطوطات . ومن الصعب الآن أن نقرأ دون تأثر تلك السطور التى توجه بها إلى المخطوطات منتهياً من كتابة ترجمة حياته : « ليس عندى أولاد . فأولادى يتامى بدون أب أعنى المخطوطات. لقد ربيتهم بنفس جد حزينة حتى بلغوا رشدهم ، وخرجوا إلى النور . لكن ماذا سيكون من أمرهم بعد موتى ؟ ومن الذى سيتبناهم ؟ هل سيجدون قلباً وفيا أمينا سامى التفكير ؟ فليرعاهم الرب ! لقد عملت لهم كل ما استطعت من جانبى بل ولن أكف عن مساعدتهم بكل ما أطيق حتى اخر رمق فى الحياة » .

وقد كان القدر ، لحسن الحظ ، رحيما بالمخطوطات اكثر من رحمته بصاحبها العالم . فبعد موته وقعت فى يد ليسينغ المشهور مؤلف « ناتان الحكيم » ، وهو واحد من القليلين الذين استطاعوا أن يقدروا ريسكه فى حياته . وبعد ذلك وصلت المخطوطات إلى مكتبة كوبنهاجن . ورأى النور بعض من هذه المخطوطات. أحدها هو تاريخ أبى الفدا المنشور فى خمسة أجزاء ، والذى لا غنى عنه حتى الآن لجميع

المؤرخين . وكان ريسكه هو الذى أعد هذه الأجزاء لنشرها . أما المخطوطات الأخرى فهى تعبر حتى أيامنا عن جهود « صريع الأدب العربى » التى لم تعرف الكلل. ولعل أخبار ريسكه قد وصلت حتى روسيا . فقد كتبت أولغا فورش فى روايتها « خميرة اليعاقبة » أنه عند وداع راديشيف والطلبة الروس فى عودتهم من ليبزيغ « وصل يعقوب ريسكه العالم العجوز مؤسس علم اللغة الاستعرابية الذى لم يشق مطلقا فى الحصول على غذاء غده » . ولعله لا توجد فى هذه العبارة حقيقة تاريخية مضبوطة لكنها تعكس تماما حقيقة فنية وحياتية .

ولندع مستعربينا يتذكرون أن الوقت الذى حلم به — بتشاؤم وعدم ثقة — أحد صريعى العلم « وهو الوقت الذى يقدر فيه الأدب العربى ويدرس باهتمام أكثر » نقول لندع مستعربينا يتذكرون أن هذا الوقت قد جاء ، وأن هذا يفرض واجبات كثيرة . وهناك منذ وقت بعيد يزين جدارن مكتب اللغة العربية بمعهد الاستشراق ، اقتباس من تاريخ حياة هذا العالم الذى لم يعترف به فى حياته . وعند النظر إلى هذا الاقتباس ، فإن الإنسان يتذكر عفواً ، أية ظروف كان يعمل فيها أحياناً ، أجدادنا فى الاستعراب ، وأية قدوة عظيمة خلفوها لنا .

٢ — كركاس « الوديع »

(١٩٠١ — ١٩٤١)

فى شتاء ١٩٠٧ عندما كنت أدرس ذات مرة فى المساء عند البارون ف. ر. روزن ، وفى فترة الاستراحة عند تحليل بيتين من شعر الأخطل ، تذكرت وفاة كركاس منذ عشرين عاماً . وسألت روزن عن السبب فى أنه لا يعرف إلا الشىء القليل . ففكر البارون المعروف بحيويته المعهودة ثم تحدث بطريقة أبطأ من طريقته العادية قائلا : « ولكن ماذا أقول عنه ؟ لقد كان رجلا وديعاً ولم يكن يحب أن يتحدث عن نفسه أو يتحدث عنه الآخرون . لقد علمنى كلمات أبيقور « عش مخفيا » . كان يخاف أن يثير غضب قدره إن

رآه الناس . وحتى فى المحاورات البسيطة لم يكن ينسى دائما « الإستدراك » العربى فكان يقول دائماً : « سآتى إليكم فى المساء إن شاء الله » . كان كركاس إنسانا مريضا ، وقد عانى كثيراً ، وكان يعرف أنه لن يعيش طويلا ، وكان يعمل فى هدوء وانتظام دون أن يشعر به أحد . أجل ، كان فلاديمير فيدوروفيتش كركاس وديعا لين العريكة ولكن إلى حد معين فقط لم يستطيع أحد زحزحته إلى أبعد منه. لقد كد طولى حياته ، وعندما شعر بأن نهايته تقترب ، انعزل جانبا ، ومات فى هدوء كما كان فى حياته بعيداً عن الجميع . وان بعض الأشخاص لا يعرفون حتى الآن تاريخ موته بالضبط . على أنهم لم يكونوا عبثا يلقبونه بالوديع ... لقد عمل كثيراً وبهدوء ودون أن يشعر الآخرون . وهانحن بكل عجلتنا وتسرعنا لم نستطع طيلة عشرين عاما أن ننهى ما بدأه ... » واستغرق البارون فى التفكير . ولم استطع بالطبع أن أخمن المعنى الذى قصده بتلميحه ، لكن كان من الواضح أن نموذج المعلم « الوديع » للبارون وصديقه قد أثار فى نفسه ذكريات الماضى . إلا أن البارون لم يرد أن يتحدث عن ذلك لأن كركاس ذاته لم يكن يحب أن يتحدث عن نفسه .

وفى الحق لقد عمل كركاس كثيراً . وفى وقت تلمذتى فى بداية هذا القرن ، والآن أيضاً بعد ٦٠ عاما من وفاته ، أحاطت كتبه بطلاب الجامعة من بداية دراستهم حتى نهايتها . وفى السنة الأولى بالجامعة ظهر فى أيدينا قبل كل شىء « كتاب القراءة للصف الأول » الذى أعده كركاس وروزن . ولم يكن لنا حاجة آنذاك إلى كتاب مطبوع فى النحو . فقد كان يكفينا كشكول المحاضرات الذى كنا نسجل فيه ما كان يقوله المعلم . وفى السنة الثانية التقينا بكتاب القراءة الكبير لهاتين الشخصيتين بالذات ، وقد الحق به قاموس كبير أعده كركاس وحده . وظللنا نلازم هذه الكتب حتى نهاية الجامعة بل وأبعد من ذلك . وحتى الآن وبعد ٦٥ عاما من ظهور القاموس العربى الروسى لكركاس ، لم يظهر مثل هذا المعجم الأصيل للغة العربية القديمة . وقد ظهر التفكير منذ بداية هـذا القرن فى إعادة طبع المعجم . لكن من الصعب جدا أن يتقرر ذلك ، خوفا من أن تخرج هذه الطبعة أقل جودة من طبعة كركاس الأولى . وفى السنة الثالثة أضيف

إلى المصادر الاعتيادية ، طبعة كركاس لتاريخ القرن التاسع الميلادى لأبى حنيفة الدينورى ، وأضيف أيضاً كتاب الفقه الإسلامى ترجمة كركاس عن اللغة الهولندية . وقد استعددنا للامتحانات النهائية بالجامعة فى تاريخ الأدب العربى بناء على كتابه الذى نشره بالزنكوغراف .

وهكذا كانت تحيط بنا كتب كركاس دائماً . ومع أنه لم يكن قد مضى على وفاته انذاك ، سوى ما يقرب من ١٥ عاما ، إلا أنه كان يتمثل لنا فى صورة أسطورية بدأ يكسوها الخيال ، مثلا عن انتساب مولده إلى الشرق . (وهو فى حقيقة الأمر بيلوروسى — ليتوانى) . ولم أكن أظن فى تلك السنين أن المخطوطات فى هذه الحالة أيضاً ، ستفتح لى فيما بعد ، كثيراً من الجوانب التى إن لم تكن تتعلق بشخصية كركاس فإنها تتعلق بحياته الكادحة التى لم يكن يعرف عنها إلا أناس قلائل . ولم أكن أفكر أن بعضا من أعماله ستظل تصحبنى حتى أيامى الأخيرة .

فى نهاية عام ١٩٠٧ ، والحديث يدور عن سفرى إلى سوريا ، أعطانى روزن ذات مرة دفترا عاديا صغيرا مكتوب بخط كركاس بطريقة دقيقة جميلة ويتضمن ما يقرب من ٥٠٠ مثل شعبى . من المحتمل أنه جمعها فى وقت وجوده فى سورية ومصر فى بداية العقد السابع من القرن الماضى . كانت أهمية هذه الأمثال تتلخص بصورة رئيسية فى أنها لا تعكس اللغة العربية الفصحى بل لهجة التخاطب العامية التى لم يفكر العلم الأوروبى فى ذلك الوقت فى دراستها دراسة منظمة . كشف هذا الدفتر الصغير عن عمل كركاس فى هذا المجال الذى لم يعد إليه فيما بعد .

وأحسست فيه سلفا لى مهتما باللغة العامية ، وفهمت مدى أهمية نشر هذه المجموعة حتى فى تلك الأيام وبعد مرور عشرين سنة على وفاته . وكان يجب التحقق من صحة هذه المجموعة فى المكان الذى أخذت منه ، لكننى لم أخاطر بأخذ الدفتر فى أول سفرة لى إلى الشرق فى سورية ولبنان مع أنى كنت مرارا فى تلك الأماكن التى زارها كركاس . وكان ذلك من سوء الحظ ، ذلك لأنه لم يتيسر لى مرة أخرى أن أزور العرب فى وطنهم . ولم أستطع أن أتحقق كاملا

من صحة تسجيلات كركاس عن طريق لغـة التخاطب العامية الحية . وظلت مجموعة كركاس الصغيرة غير مطبوعة مع أنه تجمع عندى غير القليل من المواد المماثلة لهذه المجموعة . ولم يصدر إلا جزء صغير طبع فى كتاب القراءة الذى أعده احد تلاميذى .

على أنى كثيراً ما تذكرت كركاس هناك فى الشرق وأنا أقوم بعمل آخر فى أحد الأوقات . فعندما كنت فى فترات التلمذة بالجامعة وفى محاضرات الأستاذ ن . ا . مدنيكوف ، درست تاريخ أبى حنيفة الدينورى . وكنت دائما أنظر إلى العبارة الفرنسية على جلد النص العربى لهذا الـكتاب كما لو كانت لغزا . وهذه العبارة تقول: «La préface et les index paraîtront plus tard» (« ستنشر المقدمة والفهارس فيما بعد ») . وكانت حركة العلم والحياة تبدو لى بحكم الشباب أسهل بكثير من وجودها فى واقع الأمر . وتحيرت فى سر امتداد « فيما بعـد » منذ أن ظهرت الطبعـة فى عام ١٨٨٨ حتى القرن العشرين . إلا أننى مع الوقت عرفت كل قصـة الطبعة وهى قصة لهـــا دلالتها من ناحية سمات العلاقة بين كركاس وروزن .

كان مخطوط الدينورى يعتبر انذاك مخطوطا فريدا . وكان إحـــدى لآلىء مجموعة القسم التعليمى لوزارة الخارجية التى انتقلت بعـد الثورة إلى معهـد الاستشراق . وقد وصل هذا المخطوط إلى هناك مع مجموعة «ايتالينسكى» سفيرنا السابق فى استانبول وروما ، الذى لم يـكن أميرا كما قد يخيل من اسمه ، ولـكنه خريج الأكاديمية الروحية فى كييف ، ودكتور فى الطب من جامعة لندن . وعندما كان فى الستين من العمر تعلم اللغـة العربية فى تركيا ، وأصبح مولعا بجمع المخطوطات ، بل كان أحيانا يضارب فى شرائها النمساوى المشهور هامير . على أن البارون روزن عندما كان يعد فهرسه ، اكتشف حقيقة مخطوط تاريخ الدينورى . وكا روزن أول من قدر الأهمية الرائعة لهذا الأثر . ونقل منه نسخة كاملة عازما على نشره . إلا أن أعمالا أخرى جذبته إليهـا , وفى العقـد التاسع (من القرن المـاضى (عـدل عن فـكرة نشره وأعطى نسخته لـكركاس . وهـذا أعد طبعة المخطوطات بعـد مقابلته مع صورة أخرى له كانت قـد وصلت فى ذلك الوقت إلى مكتبة ليدن . وكانت قد كتبت بخط المؤرخ والخطاط والديبلوماسى المشهور

فى عصر الغزو المنغولى ، ابن العديم الحلبى . على أن كركاس لم يقدر له أن يرى المخطوط مطبوعا فأكمل روزن طبعها . وعند ذاك ظهرت على الغلاف تلك العبارة التى تتعلق بالمقدمة والفهارس . ولعل هذا ما كان يقصده روزن بتلميحه فى إجابته على السؤال الذى وجهته إليه عن كركاس . ولم أرد أن أسأله عن هذا مباشرة . على أنه بعد موت روزن ، وعندما توجهت إلى الشرق ، أخذت معى دون أى غرض خاص نسخه من طبعة كركاس .

وهناك فى رحلتى طيلة عامين . غالباً ما كانت تصيبنى فترات من توتر المزاج لم أكن أرغب فيها مقابلة الناس . ووجدت لنفسى انقاذاً وسلوى فى أى عمل مع المخطوطات أو الكتب . هكذا حدث فى صيف ١٩٠٩ . وعندما تذكرت عمل كركاس غير المنتهى بدأت من ١٥ حزيران (يونيو) فى إعداد فهارس تاريخ الدينورى . وكان ذلك فى ناحية طرابلس القريبة من البحر فى مدينة صغيرة هادئة هى الميناء حيث عشت فى حجرة من الطابق الثانى من منزل صغير ولها نافذة تطل على فناء صغير نظيف مرصوف به بستان صغير . وكانت تنمو فى الفناء شجرة « دفل » كبيرة تمتد فروعها المزهرة إلى شباك حجرتى مباشرة . وقال أصحاب المنزل أن رائحة هذه الشجرة تطرد البعوض . على أن مناظر الطبيعة لم تعطنى من الهدوء إلا قليلا . ولم أجد ما يلهينى إلا فى العمل على الفهارس . وانتهيت منها بعد شهرين فى ٢٢ آب (أغسطس) فى « أميون » بلبنان إلى الجنوب الشرقى من طرابلس .

وهناك فى « أميون » كنت أسكن أيضا غرفة رحبة فى الطابق الثانى تطل على أشجار الكرمة فى سفح جبل لبنان . وهناك كانت الطبيعة جذابة رائعة ، لكنها كانت ذات نغمات نشاز غير متوقعة . فقد عدت مرة فى المساء واستطعت بالكاد أن أرى ثعباناً ملتفاً على سريرى . ومرة أخرى كنت شاهداً عن غير قصد لحالة ثأر من معلم مدرسة طعن بالسكاكين بعد أن تربص له أحدهم فى الظلام . وقد زحف بصعوبة حتى باب حجرتى وظل أسابيع طويلة ممدداً فيها . هذا بينما كان عملى يسير بدقة ، وشغلت الفهارس أكثر من ألفى بطاقة ربطتها باهتمام . وفى صيف العام التالى حملتها معى إلى روسيا .

كان العام الخامس والعشرون على يوم وفاة كركاس يقترب . وكنت جد راغب فى أن أشير إلى ذلك بأية طريقة . وفى بداية عام ١٩١١ كتبت إلى دار « بريل » للطبع والنشر فى ليدن المعروفة بين مستعرقى العالم كله ، ما إذا كانت ترغب فى الوفاء بالوعد الموجود على غلاف تاريخ الدينورى فتنشر الفهارس التى أعددتها له . وكانت دهشتى عظيمة عندما تسلمت فى أقل من أسبوعين رداً على رسالتى ولم يكن هذا الرد رسالة فقط ، بل ومعه أوراق مطبوعة للفهارس مع طلب لفحصها . واتضح من رسالة الدار أن هذه الفهارس أعدها تلاميذ روزن منذ العقد العاشر ، وأن روزن قد حررها بنفسه وتم طبعها فى ١٩٠٤ ثم تعطل الطبع من أجل المقدمة التى لم يرسلها روزن إلى دار بريل بالرغم من تذكيره .

وقد خفت تحت تأثير الانطباع الأول من أن يكون عملى قد ذهب بدون جدوى . إلا أن الآلاف بطاقة لم تذهب هباء منثورا . فقد أظهر لى فحصى لفهارس روزن أنها أعدت بنظام يختلف عما عندى . وأعطتنى هذه البطاقات إمكانية لضبطها والتحقق من صحتها بمقابلة كل منها بالأخرى . وإلى جانب ذلك كانت تلك الفهارس لا تحتوى على بعض الأقسام التى كانت موجودة عندى والتى كنت قد أعددتها . وكان من السهل آنئذ إكمال الطبعة . واقترحت على بريل إعداد المقدمة الناقصة مع تحليل للمخطوطات التى استخدمت أساساً فى طبعة كركاس . ومع وصف المواد التى تجمعت منذ تلك الفترة . ومع اختصار لمعلومات عن تاريخ حياة المؤلف ، واستعراض لمؤلفاته وبخاصة التاريخ الذى يمثل إحدى المحاولات المبكرة فى الكتابة العربية للعرض العملى . ولم تكن هناك أية مسودات عن موضوع هذه المقدمة فى أوراق روزن التى كانت محفوظة آنذاك عند تلميذه الأكبر ف.ا. جوكوفسكى المستشرق فى الفارسية . وكان قد تجمع عندى طيلة السنين الأخيرة كثير من المواد اللازمة ولم يكن من الصعب طلب إرسال مخطوط ليدن إلى بطرسبورغ فى نفس ذلك القسم التعليمى لوزارة الخارجية حيث كانت تحفظ مخطوطتنا الفريدة سابقاً .

وانتهيت من عملى فى مستهل خريف عام ١٩١١ . ووصلتنى بسرعة الملازم المطبوعة فى ليدن . واستغرقت مراجعة طبعها الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩١٢ . واتفق أن ظهرت المقدمة والفهارس بعد انتظار طويل وبالضبط قبيل مرور ٢٥

عاماً على وفاة كركاس ناشر الطبعة . وقد اهديت هذا العمل لذكرى أولئك العلماء الثلاثة الذين كان لهم الفضل الخاص فى الكشف عن نص تاريخ الدينورى وطبعه. إثنان منهم روسيان هما روزن وكركاس والثالث هو الهولندى دى جويه . وقد لقى هذا العمل تجاوباً فى المشاعر من العلماء العرب والغربيين . وتذكر العلماء مرة أخرى اسم « الوديع » كركاس معترفين له بالجميل .

على أننى أدركت أننا لم نوف تماماً ديننا قبل ذكرى كركاس . وقد كانت تذكرنى به ظروف متباينة . فقد كانت فى مكتبة الجامعة أجزاء « كتاب الأغانى» وهو كتاب أشعار لا يقدر بثمن من القرن العاشر . وكان كركاس قد أعد فهارس هذه الأجزاء فى مجلد ضخم اشتراكا منه فى ذلك العمل الدولى المشترك . ولم يظهر هذا المجلد مطبوعا إلا عام ١٩٠٠ . وبقى حتى الآن إحدى « المونساتى » الرائعة لعملنا . ومن جديد استطعت أن أرى من نسخة المكتبة مدى الدقة التى أعد بها كركاس طبعة هذا المجلد الضخم للفهارس . وهذه النسخة هى من طبعة بولاق «لكتاب الأغانى » . وقد كتب كركاس على هامشها بخط عربى وبخط مؤلف منظومة صغيرة . وهناك عند أحد تجار الكتب القديمة ، وجدت بالمصادفة بعض كتب كركاس ، ومن بينها كشكول مسودة كبيرة كتبها كعادته بخط أنيق دقيق ، فيها اقتباسات وتعليقات وملاحظات عن تاريخ الأدب العربى . وقد تضمن كتابه المنشور بالزنكوغراف أقل من نصف هذه المسودة . الأمر الذى يظهر مدى جدية كركاس فى عمله فى الفترة التمهيدية ومدى قدرته فى جعل مادة المسودة خاضعة لمطالب البناء العام للكتب . وقد نظرت طيلة هذه السنوات كذلك فى تلك المخطوطات العربية القليلة التى وصلت منه إلى مكتبة الجامعة . كما فتحت هذه المخطوطات أمامى جوانب مختلفة من اهتماماته وجهوده .

ومنذ عام ١٩١٧ صرت أقرب إلى فهم ومعرفة كركاس. فقد كنت فى ذلك الوقت الأمين العلمى للكلية . وكانت تعد فى ذلك الوقت كتابة تاريخ كرسى اللغة العربية هذا التاريخ الذى لم ير النور . ولهذا السبب كان يلزمنى أن أتوجه مراراً إلى الأرشيفات ، الأمر الذى كان يجمعنى مراراً بكركاس . وكأن تقريره عن السنوات الثلاث التى قضاها فى الشرق ، والمخزون فى محفوظات الكلية ، قد سبق

انطباعاتى الخاصة التى نلتها أنا بعد ٥٠ عاما . وهكذا شعرت فى المؤلف سلفاً أخيرا لى من جامعة بطرسبورغ . لقد سبقنى فى الاهتمام بالشرق العربى الحى بلهجاته وبأدبه الحديث الذى كان قد ولد لتوه آنذاك . ثم رأيته وقد نهض نهضة كبيرة. كان كل شىء يجذبنى نحو كركاس . وقد أردت من جديد ، بمناسبة مرور أربعين عاما على وفاته ، أن أنوه به فى مقالة خاصة و « بكلمات وديعة طيبة » . وبعد ذلك بوقت قليل ، قمت بمثل هذا فى كتابى الخاص الذى يتعلق بأحد أسلاف كركاس هو الشيخ الطنطاوى المصرى .

وقد جمعت بعناية ،كل ما استطعت عن تاريخ حياة كركاس العملية ، وجهوده غير المرئية . ومن خلال هذا وحده أمكن الإحساس بشخصيته . لكن المادة التى تصور شخصيته لم تكن كافية لتمسكه بدقة بمبدأ « عش مخفياً » . على أن إحدى الصور الشمسية القديمة احتفظت لنا مصادفة بوجهه المريض، وبطابعه البياوروسى ، وبعينيه الهادئتين المفكرتين ، ولحيته الدائرية الصغيرة . ويشير شعره الطويل إلى أنه لم يكن ممثلا عاديا للموظفين الإداريين المهنيين فى « عصر الاصلاحات » للقيصر الكسندر .

وظهر بعد مقالتى أحد المصادر الذى يعكس دائماً طبيعة الرجل أحسن مما تعكسه أعماله المطبوعة أو أوراقه الرسمية . أعنى بهذا المصدر رسائل كركاس وأخته إلى روزن . وكان كركاس قد قضى مع أخته الأعوام الأخيرة من حياة عزوبته ، والآن وبعد انقضاء عشرات الأعوام أمكن الإستفادة من هذه المراسلات . لكن يداً خبيرة دقيقة مهتمة هى وحدها التى تستطيع أن تنتشل من هناك حقائق قليلة غير معروفة بعد ، عن تاريخ حياة كركاس العامة. وكان الشىء الأهم هو أن يستخلص منها العديد من السمات الصغيرة لتصوير شخصية « الوديع فلاديمير فيدوروفيتش كركاس ». وقد أمكن الشعور من هذه المراسلات بتدفق وداعته . وقد كتبت هذه المراسلات بخط دقيق ، دائم الانتظام ، فهى ترن بنغمة هادئة من أخ أكبر إلى أخ أصغر أو أحيانا إلى صديق « قلق ، ذى ميول علمية منظمة لاتعرف الكلل. وقد قدر كركاس فى صديقه هذه الميول عالياً ، ومبكراً استجاب لها كركاس بطيبة خاطر منذ العقد الثامن .

وحتى الآن لم نف بديننا قبل ذكرى كركاس وليس فيما يتعلق بمراسلاته

فحسب . ونحن أنفسنا مذنبون فى هذا التباطؤ وإن لم يكن دائماً . وإذ كانت مجموعة الأمثال التى جمعها لم تنشر حتى الآن . فإن ما أعاق ذلك هو المبدأ القديم « الأحسن عدو الحسن » أى السعى من أجل إيجاد ما يناسب الأمثال التى جمعها كركاس من المطبوعات المختلفة التى ظهرت منذ زمنه . على ان العمل سنين طويلة أظهر أنه لا يمكن استنفاد الشىء كله ، وأنه من الأفضل أن ينشر ولو الصلب الرئيسى فى ذلك الشكل الذى تركه عليه كركاس .

على أن ثمة عملا أكبر من سابقه ، هو إتمام عمل أجيال العلماء الروس فى دراسة تاريخ الدينورى الذى كشفه روزن ونشره كركاس . وكان يلزم العلماء الروس القيام بترجمة علمية انتقادية لتاريخ الدينورى. وكانوا ينتظرون هذه الترجمة منذ مدة طويلة. بل أن روزن فكر فيها فى وقته وأعطى أحيانا لتلاميذه أجزاء منفصلة منها. ثم ظهر التفكير فى هذا العمل من جديد فى نهاية العقد الرابع واتخذت هذه الأفكار شكل عمل مشترك . وقد اقترب هذا العمل من نهايته فى مستهل عام ١٩٤١ ، وكان هناك مترجمون جديون لترجمة جميع أجزاء تاريخ الدينورى . وكان هناك أيضاً أمين نشيط موهوب « للجنة الدينورى » وهو أمر مهم بصفة خاصة . وكان من الممكن إذن التفكير فى تحرير الترجمة نهائياً ، إلا أن حصار ليننغراد فى ذلك الوقت أهلك الأمين وبعض المترجمين ... وحفظت المواد ولكنه كان من الصعب العمل على إنهاء الترجمة بقوى ضعيفة ضائعة. ولعل الأجيال القادمة تقوم بأداء هذا الواجب .

ولقد كتبت هذه السطور أملا فى أن تقع فى يد واحد من أولئك الذين سيسلمهم القدر مشعل الاستمرار فى استعرابنا. فليحاولوا ما أمكنهم — كما حاولت أنا فى وقتى — أن يحيوا تلك الذكرى ويواصلوا ذلك العمل الجدير لذلك الشخص الذى لقبه المعاصرون بكركاس « الوديع » .

٣ – نصف قرن فى دراسة مخطوط واحد

(١٩٠٣ - ١٩٣٨)

ثمة مخطوطات تشعر بنفسك أمامها كأنك تلميذ أسطورى لساحر استحضر الأرواح ثم لم يستطع تسخيرها. فما أن تتذكر هذه المخطوطات أو تهم بالحديث عنها، حتى تهب على الفور سلسلة من الأشخاص من القرون البعيدة الماضية ، ومن الأعوام القريبة من حياتك الخاصة . وإذا الأمر يقتضيك أن تكتب عن هذا إما رواية وإما كتابا كاملا . ولكن لما كانت حياتنا هى على رأى القائل « عمر الفأر فرار» فهى لاتسمح بإعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد . وتراك بقوة الإرادة تطرد ما يقف أمامك من الأفكار لا سيما عن تلك المخطوطات بالذات التى هى عزيزة عليك بصفة خاصة والتى تتعايش معها . لكن المخطوطات تكون أحيانا عنيدة وتجد نفسك عاجزاً عندما تسألك بقوة وتحكم : « من ذا سيتحدث بعدك عن هذا ؟ أترى أعطيناك الحق فى أن تطوى هذا بانطوائك ؟» إن أوامر العلم الخالد على مدى القرون أوامر جدية ، ولسوف تنحنى لها إرادتك الذاتية فى آخر الأمر .

قليلا ماتمر فى ذاكرتى المخطوطات القديمة المرتبطة بعالم معاصر بتلك الدرجة التى ارتبط بها مخطوط لينينغراد « ديوان الأخطل » — صديق يوحنا الدمشقى — مع ناشره العالم البيروتى الصالحانى العربى من دمشق . ولقد جاء اسم هذا الشاعر فى ذكرياتى منذ وقت بعيد عندما كنت فى الصف الثانى بالجامعة عام ١٩٠٢ .

وعندما كنت أتنقل بعجز تام عبر صفحات كتاب القراءة الضخم لكركاس وروزن ، وصلت بالمصادفة آنذاك إلى ثلاثة أبيات أدهشتنى.وقصة هذه الأبيات هى أن الخليفة اقترح على الأخطل المسيحى أن يعتنق الإسلام فأجابه الأخطل منشداً بارتجال إما ساخراً وإما تحت تأثير الخمر قائلا :

« ولست بصائم رمضان طوعا ولست بآكل لحم الاضاحى
ولست بقائم أبدا أنادى كمثل العير : حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح»

على أن الشاعر لم يعاقب على هذا الهجاء لتحريم الإسلام الخمر . والصوم والحج والآذان . وقد هدأ غضب الخليفة بيتان ليسا أقل دعابة ، وفيهما صور الشاعر حالته تحت تأثير الخمر .

أعطتني هذه الأبيات القدرة على فهم العلاقات الداخلية للخلافة بصورة أكبر مما أعطتني إياه بعض الصفحات عن « تاريخ الإسلام » للعالم ميولر الذى قرأته أكثر من مرة . وبالطبع فإن هذه الأشعار متجاسرة . ولذلك فإنها عندما ظهرت مطبوعة لأول مرة فى بيروت فى العقد العاشر من القرن الماضى ، كان من غير الممكن أن تمر من رقابة المطبوعات التركية إلا بواسطة وضع نقطة على كلمة «العير» التى وصف بها الشاعر المؤذن ، فصارت كلمة لا تؤلم المسلمين هى كلمة « الغير » . وهكذا كانت رقابة المطبوعات التركية فى القرن ١٩ أكثر تشبثاً من خليفة دمشق فى القـــرن الثامن . على أن الناشر الماكر فلت من الرقابة فى شيء آخر هو أنه حافظ بدون تغيير على كلمة « العير » فى النسخ الأخرى المخصص إرسالها إلى أوروبا .

وكنت قد سمعت التفاصيل عن هذا الناشر لأول مرة من البارون روزن ، عندما اقترح على فى كانون الثانى (يناير) ١٩٠٦ عند تخرجى من الجامعة أن نتدارس كل ديوان الأخطل . وكان هذا بالنسبة لى عيدين . فمن جديد عاد إلى الشاعر الذى التقيت معه صدفة فى كتاب القراءة ، والشيء الثانى أننى أستطيع أن أتعرف عن قرب إلى مخطوط أشعار مشهور عندنا كان أساسا للطبعة .

وكان هذا المخطوط قد وجد آنذاك فى القسم التعليمى بوزارة الخارجية ودخل إليه ضمن مجموعة ايتاليسكى نفسه ، خريج المدرسة الدينية ، الطبيب ، السفير ، العالم فى الآثار القديمة ، الذى حفظ لنا أيضاً مخطوط تاريخ الدينورى . وعلى حد تعبير روزن فإن المخطوط كان أحسن مازين مكتبة ايتاليسكى ، وصار درة مجموعة القسم التعليمى . واستطاع العارفون « الشاميون » أن يجدوا هذا المخطوط . وفى عام ١٨٦٧ نقل منه نسخة لنفسه رزق الله حسون المهاجر العربى ومترجم كريلوف والذى عاش آنذاك فى بطرسبوغ ووقعت هذه النسخة بعد عشرين عاماً فى بيروت وأعطت الدفعة الأولى لطبع المخطوط .

وقبل هذا الوقت فكر المستعرب الانكليزى ف. رايت فى نشر مخطوطنا . ولكن ، تأتى الرياح بما لاتشتهى السفن ، كما قال الشاعر العربى . فإن رايت يستطع تنفيذ خطته لانتهاء طريق حياته فى عام ١٨٨٩ . على أن روزن فى الحقيقة هو الذى كشف عن هذا المخطوط فى فهرسه . لكن قبل ذلك أيضاً كان مؤرخونا الروسيون يعرفون أنه توجد عند الأخطل إشارة إلى الصقالبة تكاد تكون أقدم إشارة معروفة عند العرب . وفيها يقول :

« عوادل عوجا عن أناس كأنما يرين بهم جمع الصقالبة الصهب »

وقد اتفق أنه فى السنة التى مات فيها « رايت » وقعت نسخـــة حسون فى بيروت . ويمكن القولة بأنها غيرت هناك مجرى حياة عالم ليس بشاب هو أنطون صالحانى . وقد كتب هو نفسه فيما بعد يقول : « فلما قرأنا هذه الصفحات المحياة بنفس الشعر المحض قد عزمنا على أنه لا يجب أن نترك هذا الكنز مغلقاً إلى أبعد من ذلك » . وكان الصالحانى قبل ذلك قد اشتهر فى العلم كعالم لغوى يعتد به ذى معرفة دقيقة بآثار أدبه القومى . فقد أصدر طبعة من خمسة أجزاء (لألف ليلة وليلة) وهى الطبعة الوحيدة الصالحة للانتشار الواسع . وأعد بدقة ونجاح كتاب المنتخبات من (كتاب الأغانى) الضخم . والآن تحول كل اهتمامه تقريباً إلى دراسة واحد من أهل وطنه الأقدمين هو الأخطل .

على أن الصعوبات لم تكن بالقليلة لاسيما الصعوبات الفنية . فقد كان من غير الممكن فى ذلك الوقت أن يرسل مخطوطنا إلى بيروت ، والصور الشمسية لم تكن شائعة آنذاك . وهنا اقترح روزن حلا للخروج من هذه المسألة . وبناء على هذا أعد الصالحانى طبعة المخطوط حسب نسخة حسون . وأرسل مسودة الطبع إلى بطرسبورغ حيث قام روزن بمقارنتها مقارنة كاملة مع أصل المخطوط وأضاف إليها جميع الملاحظات والتعليقات التكميلية . وخرجت الطبعة بسرعة فى بيروت . وكان قد بدأ طبعها فى عام ١٨٩١ . وبعد عام انتهى طبع أربعة أجزاء تضمنت كل مخطوطنا مع تعليقات تفصيلية دقيقة . وبدأ العمل فى إعداد الفهارس وتصحيح النص الإضافى وجمع الاقتباسات من مختلف المصادر . وكما يحدث فى العلم مراراً

أخذت تظهر . عند توجيه كامل الاهتمام ، مواد جديدة كما قيل فى المثل « من سار على الدرب وصل » . فقد وجد مخطوط فى بغداد وبعد ذلك وجد آخر فى اليمن . وكلاهما فى الحقيقة ناقص ومعيب ، ويتألف من أوراق غير كاملة فى تسلسلها ، لكنهما حملا كثيراً من التفسيرات والتوضيحات الجديدة . وقد نشرهما الصالحانى كليهما فى عامى ١٩٠٥ و ١٩٠٧ مستفيداً من تقدم خدمات فن الطباعة الفوتوغرافية .

وقد اتفق ظهور هاتين الطبعتين مع بداية دراستى عند روزن . فأراد أن يرجع من جديد إلى الشاعر الذى أهداه منذ ١٥ عاماً ما ليس بالقليل من الوقت والعمل . وقد كان الصالحانى يحب روزن ويحترمه .. وبناء على طلب الأخير سرعان ما أرسل إلى طبعاته ، وعند ذلك شعرت بشيء من الفخر . لحداثتى فى العلم ، ذلك أن الفرصة السعيدة سمحت لى بالدراسة فى كتب أملكها . إن مثل هذه المدرسة لدراسة التحليل النصى استناداً إلى تلك المخطوطات الثلاثة والكتاب المطبوع أقول أن مثل هذه المدرسة كانت صعبة لى فى الفترات الأولى غير أنها كانت مفيدة جـــداً . وأخذنا عاماً كاملا ندرس . باجتهاد ، القصائد البدوية الأصيلة من أشعار « حداء الإبل » « لمطرب بنى أمية » . هذه القصائد التى تعكس بوضوح حياة الخلافة فى القرن السابع والثامن ، وتعرف جيداً بتقاليد الجاهلية القديمة برمتها .

وكانت المراسلات بين روزن والصالحانى إحدى الأسباب التى جعلتنى أتوجه إلى سورية فى رحلتى إلى الشرق . وعندما سافرت إلى بيروت فى صيف عام ١٩٠٨ وجدت فى اليوم التالى الصالحانى ناشر الأخطل فى جامعة القديس يوسف . وفى حجرة صغيرة ليس فيها إلا الأثاث الضرورى جداً ، ظهر أمامى شيخ عجوز (كان آنذاك قد تجاوز الستين من عمره) إلى جوار منضدة غارقاً فى الكتب وتجارب الطبع . وهذا الشيخ نحيف ، قصير القامة ، له عيون ثاقبة ، ولحية كبيرة بيضاء ومنظر خارجى أنجيلى صرف .

وكان يبدو عليه اتزان دقيق فى علاقاته العامة لكننى شعرت أن ذكرى روزن — الذى لم يره الصالحانى مطلقاً — كانت بالنسبة له ذكرى مقدسة .

وقام من أول خطواتى هناك بالرعاية اللازمة لا لأمورى العلمية فحسب بل ولتنظيم حياتى المعيشية . وقد ألزمه كبر سنه بترك العمل الذى شغله مدة طويلة فى تحرير جريدة الجامعة ، والانقطاع عن التدريس فى المدرسة الثانوية . ولم يستطع أيضاً أن يقوم بالتدريس فى الجامعة . لكن هذا لم يمنعنى من الحديث معه أكثر من الحديث مع أساتذتى . وإذا كان فرق العمر بيننا ظاهراً وواضحاً فإنه سرعان ما قرب الأخطل بيننا .

وفى ذلك الوقت كان الصالحانى يعد الجزء الخامس من طبعته للأخطل مع جميع الإضافات والتعليقات الخاصة بنقد النص بصفة رئيسية . وكبر حجم هذا الجزء إلى درجة أن رئى تقسيمه إلى قسمين يخصص ثانيهما للفهارس . وكان من الممتع لى تتبع كل نظام العمل الذى كان على أعلى درجة من الدقة . وبلغ من دقة الصالحانى أنه كان يرى أوراق تجارب الطبع ما بين ١٠ إلى ١٥ مرة رغم دقة فن الطباعة البيروتية . وساعدت الصالحانى فى قراءة تجارب الطبع بارتياح كبير وما يعود على بالنفع الكبير . وقد صدر القسم الأول من الجزء الخامس فى حزيران (يونيو) ١٩٠٩ . وبدأ العمل على الفهارس الذى اشتركت فيه أيضاً . وعندما فارقت الصالحانى فى صيف ١٩١٠ لم أكن أظن أن خروج هذا القسم الثانى سيؤجل إلى أعوام طويلة .

وكان الصالحانى يعمل دون كلل ، لكن الأخطل وضع أمامه الجديد من المشكلات الواحدة تلو الأخرى وجذبه أبعد وأبعد بالمخطوطات الجديدة . وفى عام ١٩١٤ سافر هذا الناشر الجدير إلى استانبول خصيصاً من أجل الدراسة المباشرة لديوان أشعار هجائية موجود هناك للأخطل ولمعاصره جرير . لكن اشتعال الحرب عطل كل خطته مدة طويلة ، وأثر تأثيراً كبيراً على الجامعة ودار الطباعة . ولم يبتدىء العمل من جديد إلا فى مستهل العقد الثالث ، واستطاع الصالحانى فى عام ١٩٢٢ أن يخرج طبعة عن مجموعة ديوان استانبول . وظهر فى النهاية بعد ثلاثة أعوام ، القسم الثانى من الجزء الخامس مع الإضافات والفهارس . لكن لم ينته بهذا عمل الصالحانى عن الأخطل . ففى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٥ قام بطبع منتخبات صغيرة من قصائد الأخطل التى كانت حتى ذلك الوقت فى صورة

فوتوغرافية من مخطوطى اليمن وبغداد . وبالطبع لم يكن من السهل على الجميع أن يحصلوا على هذه النسخ .

وعندما انتهى من كتابة مقدمة هذه المنتخبات أشار إليها على أنها آخر طبعاته عن الأخطل . وبقيناً أن لهذا الرأى أساساً يقوم عليه من ناحية الحياة الإنسانية . ذلك أنه مرت خمسة وثلاثون عاما على دراسته لمخطوطنا . واقترب عمره من الثمانين . وهو العمر الذى يكون فيه من الصعب على الإنسان أن يرسم خطة له عن أعمال بعيدة مقبلة .

لكن المخطوطات غالباً ما تسوق أقدار الناس على نحو غير متوقع ، وتوجههم حسب إرادتها ورغبتها . ومن الصعب جداً على الإنسان الذى تعايش معها ، أن يخرج من تحت سلطانها . وهذه المرة أيضا لم تنقطع الصـــداقة بين الأخطل والصالحانى بطبعه لهذه المنتخبات فى ١٩٢٥ . وفضلا عن ذلك حدث لى أيضاً أننى لعبت بعض الدور فى اكتشاف جديد ولم افترق أيضاً عن شاعرى المقرب إلىّ .

ذلك أنه عندما كنت أعود إلى الشاعر من حين إلى حين بمناسبة مطبوعات الصالحانى بصفة خاصة ، شعرت بتضايق مامن أنانيتى العلمية .فقد درست الأخطل أعواما كثيرة لكننى لم أكتب عنه أى شىء مع أن الموضوعات الصغيرة المختلفة والمواد العلمية عن الأخطل تجمعت عندى بكميات كبيرة . وكانت الفرصة المناسبة فى عام ١٩٣١ عندما تسلمت دعوة للاشتراك بكتابة مقالة لمجموعة المقالات الدولية تذكاراً لجورج يعقوب . ولقد قدرت عالى التقدير أعماله الرائعة فى مجال الشعر العربى وبخاصة أبحاثه التى لا تدانى فى دراسته للحياة البدوية المبكرة على أساس تحليل الشعر الجاهلى .

وأردت أن أتتبع فى الموازيات المقارنة لأبحاث جورج يعقوب كيف تنعكس ألحان الخمر فى أشعار الأخطل من الناحية الثقافية والتاريخية والأسلوبية .وأشرت فى مقالتى بطريقة عابرة إلى مخطوط آخر لأشعار الأخطل اكتشفه فى طهران رفيق الأصغر ا. ا. روماسكيفيتش المستشرق فى الفارسية الذى مات ميتة مؤلمة وقت محاصرة لينينغراد فى ١٩٤٢ . وخرجت مجموعة المقالات التذكارية فى عام ١٩٣٢

قبيل مرور سبعين عاما على هذا المستشرق المبجل . وأرسلت أول نسخة من مقالتي في هذه المجموعة إلى صديقي ومعلمي العجوز في بيروت حتى يرى كيف أن حبيبه الأخطل يعيش في فكرنا نحن أيضا .

وبعد شهر تسلمت رسالة من الصالحاني الذي فضل أن يكتبها بالقلم بدلا من الريشة وتحمل هذه الرسالة خطه الخاص الذي ألفته منذ عام ١٩٠٦ وها هو الآن عمره ٨٥ عاما ! كان يطلب مني أن أخبره عن بعض التفصيلات المتعلقة بهذا المخطوط الجديد ، وحاولت تلبية طلبه بمساعدة روماسكيفيتش الذي شاهد المخطوط في مكانه هناك في طهران .

وإلى هذ الحد انقطعت مراسلاتي مع الصالحاني . ولما كانت هناك صعوبة في العلاقات مع الشرق في ذلك الوقت فإنني كثيراً ما فكرت فيما إذا كان معلمي البيروتي الأخير ما يزال على قيد الحياة أم لا . فلقد كان أكبر من كثير من الراحلين وقاسى طول حياته من حمى مزمنة . وفي نهاية عام ١٩٣٨ تسلمت على غير انتظار مؤلفه الكبير الجديد عن تحليل مخطوط طهران مع إهدائه بخطه الشخصي وبكلمات رقيقة مؤثرة . وظهر أن جامعة بيروت بدأت بعد رسالتي في مفاوضات مع المالك الطهراني المخطوط من أجل شرائه منه . واستمرت المفاوضات حول ثمن المخطوط أكثر من أربع سنوات . وفي آخر الأمر رحل المخطوط من طهران إلى بيروت في أيار (مايو) ١٩٣٧ . وفي آب (أغسطس) من هذا العام نفسه أتم الصالحاني من العمر تسعين عاما ، ومع هذا غرق في دراسة هذا المخطوط دراسة تفصيلية .

وبعد عام كانت في يدي نتيجة جهوده في طبعة منسقة مطبوعة بدقة ومحررة بطريقة ممتازة مع لوحات جميلة . وفي هذه الطبعة أشار الصالحاني في السطر الأول إلى مخطوطنا في بطرسبورغ الذي بدأ العمل فيه سنة ١٨٩١ ، وتناول الحديث في الصفحة الثانية عن ظروف اكتشاف مخطوط طهران الذي عثر عليه المستشرق الروسي . وفي الحق لقد كان مخطوط طهران يستحق الاهتمام . وتصورت مدى السرور الذي تمتع به الصالحاني — وهو في مغرب أيامه — في العمل على دراسة هذا المخطوط . ذلك السرور الذي كان أشبه بمكافأة له على أعماله مدة طويلة وتحية جديدة من شاعره الحبيب . وقد ظهر أن مخطوط طهران هي أقدم المخطوطات

المعروفة عن أشعار الأخطل وهو مؤرخ بالضبط فى عام ١١٠٥م . وهو ، بالمقارنة بباقى المخطوطات ، أكمل منها ، وقد حوفظ عليه بطريقة أحسن منها .

ولم أتمالك نفسى من العجب من توافق غريب عرفته من الكتاب الجديد للصالحانى . ذلك أن هذا المخطوط الطهرانى بالذات كان قد درسه التبريزى العالم اللغوى نفسه عندما كان عمره ٨٠ عاما . هذا التبريزى الذى سافر والمعجم على ظهره ليدرس عند أبى العلاء الشاعر الضرير « رهين المحبسين » . والتقيت من جديد مع التبريزى هنا فى هذا الكتاب . وهكذا ظهر أن العالم ضيق بالناس الذين تلتقى معهم على نحو غير متوقع وفى مكان غير منتظر . وإذا عشت مع المخطوطات طويلا فإنك غالبا ما تلاقى — لدى التعريف الجديد — الصديق القديم فى موقف جديد .

وبعد الحرب العالمية الثانية فقط وصلتنى أخبار عن الصالحانى بأنه أنهى حياته التى قاربت المائة عام فى ١٠ آب (أغسطس) سنة ١٩٤١ . والصالحانى الآن ، كما عبر لى كاتب الرسالة « ينام نومته الأخيرة تحت الأرز فى جونيه » . ولقد أهدى معلمى البيروتى ما يزيد على نصف حياته إلى إبن وطنه الأخطل « مطرب بنى أمية » وإلى مخطوط أشعاره الموجودة عندنا فى ليننغراد .

خاتمة وترحم

REQUIEM AETERNAM...

إن روحى فردوس الظلال
ظلال صامتة وضاءة رائعة .
تيوتشيف

... تتوالى أمامى صور الماضى الواحدة تلو الأخرى بخط لانهائى يلتف بعيداً بعيداً فى ذكراتى . وليس فى مقدورى بل ولا أريد أن أوقف توالى هذه الصور . إن كل مخطوط أتذكره الآن سواء أكان قديماً أو جديداً ، فى البلاد العربية أم فى روسيا ، قد دخل إلى حياتى بسلطان فبدلها بطريقته ووسع رحابها . ولو لم تكن هذه المخطوطات لما استطعت أن أعرض هذا الماضى ولما استطعت أنا نفسى أن أرى أولئك الناس الذين كتبوا هذه المخطوطات ولاأولئك الذين كتبت عنهم المخطوطات ، ولبقى تاريخ علمنا الاستعرابى صامتا لى ، ولرنت جافة بدون حياة أسماء أسلافنا العظام والمتواضعين العاملين فى الاستعراب .

على أن المخطوطات قد مكنتنى أحيانا من رؤيتهم بصورة أوضح مما لوكانوا فى حياتهم ، وقادتنى إلى فردوس عظيم هو فردوس « الظلال الصامتة الوضاءة الرائعة » . وتلألأت هذه الظلال فى عينى بكل ألوان الحياة . وعندها أرى أسلافاً ومعلمين ورفاقاً .

وهناك إلى جانب عمالقة علمنا الاستعرابى أمثال فرين وروزن ، كان عاملون متواضعون خلقوا قاعدة تدريسنا الاستعرابى أمثال بولديريف مؤسس الاستشراق فى موسكو الذى تدمرت حياته لتصريحه بطبع « رساله فلسفية » لتشآدايف ، وأمثال كركاس ضحية السل الذى مرض به سوريا ، وإلى جانب البارون اللامع برامبيوس وهو المستعرب سنكوفسكى الذى قرأت له كل روسيا ، يقف رجلان اشتهر كل منهما بكتاب واحد أولهما سابلوكوف المعلم المحبوب لتشيرنيشيفسكى

وثانيهما مدنيكوف . وكلاهما لا يعرفهما الآن إلا العلماء . وإلى جانب الروس يقف عربيان عملا فى روسيا . أولهما الشيخ الطنطاوى المصرى وثانيهما مرقص الدمشقى . وبين الشخصيات المدنيـــة تقف شخصية الجنرال بوغوسلافسكي الذى تصادق معه الشيخ شامل . وسار بعضهم بثبات على الطريق حتى النهاية وآخرون سقطوا تحت ظـــلم القدر القاسى دون أن يكملوا ما كان مقدراً عليهم أن يكملوه .

إن قلبي ينعصر . وإن ظل المعلمين لا يحجب ظل التلاميذ الراحلين قبلنا . وأراهم كثيرين ... حربان عظيمتان أهلكتا زهرات فى الشباب قبل الأوان . وقدر قاس لم يمهل ذلك الريعان . وجميعهم احتكوا عن قرب بالعلم الاستعرابي وجميعهم سحروا به وفتنوا . وكما تحدثت المخطوطات معى فإنها أيضاً تحدثت معهم وبلسان حى مبين . وغالباً ما حمل إلى أصدقاء شباب كنوزاً اكتشفوها بأيديهم وعيونهم . وسررنا معاً ، وحزنا معاً . وتحملنا معاً كثيراً من السنين القاسية عندما ساعد حماسهم « المتدفق » حيويتى المتهاوية .

إن « فردوس الظلال » واسع ... فهناك أجيال الشيوخ وأجيال الشباب فى استعرابنا مدة قرنين . وعندما تبدأ تعدهم أو تحسبهم تراهم يظهر منهم الجديد والجديد مثلهم مثل عدك أو حسابك النجوم فى السماء . ولقد عملوا كثيراً من أجل المخطوطات والكتب . والكتاب هو وحده الذى يمكن أن يحفظ ذكراهم . وقد مضى أكثر من ثلاثين عاما منذ بداية إعداد مثل هذا الكتاب . ويأتى إلى هذا الكتاب من المحفوظات والمخطوطات والمطبوعات ، كل جديد وجديد من الأسماء ، وكل جديد من معالم حياة العاملين فى الاستعراب أو الذين ارتبطوا مصادفة به . إن هذا الكتاب سيكون دقيقاً وجافاً وموجزاً ولكن سيفهمه مؤرخو العلم ومؤرخو ثقافتنا . ولعل فى الصور التى تقف الآن فى كتاب « مع المخطوطات العربية » . تلمع شخصيات أسلافنا فى الاستعراب حية أكثر مما فى ذلك الكتاب . ولعل «ظل الراحلين » يضىء بشعاع رقيق من الذكريات . ولندع كل من يقرأه يتمنى Requiem aeternam ، الرحمة والهدوء الأبدى والذكرى الحامدة الشاكرة لكل من يرتبط ذكرهم بصفحات هذا الكتاب .

لزوم ما لا يلزم

للشاعر أبي العلاء الذى ظهر اسمه أكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب ، ديوان أشعار تحت عنوان غريب « لزوم ما لا يلزم » . وفى هذا العنوان يرون عادة تلميحاً إلى القافية الثنائية المعقدة الموجودة فى جميع أشعاره مع أن الشعراء لا يستخدمونها إلا نادرا جدا من أجل إظهار براعتهم فى قطع صغيرة . ولاشك أن هذا هو المعنى الأول — الظاهرى إلى حد معين — لهذا العنوان . لكن من يعرف منهج أبى العلاء يمكن أن يتأكد من أنه أعطى لهذا العنوان معنى آخر « خفياً » . فهو يريد أن يقول إن أفكاره والاستنتاجات الناجمة عنها والتى عرضها فى أشعاره ، يمكن أن تكون غير ملزمة للآخرين . لكنها ملزمة له نفسه ، وأنه لا يستطيع أن يحيا بدونها . وهكذا أيضاً علماء اللغة ، من الصعب عليهم أن يقلعوا عن عاداتهم التى تبدو زائدة للقارىء العادى . وهم لا يشعرون بالرضا إلا عندما تقف إلى جوار « النص » الأساسى ، ملحقات الشروح وتعليقات على الشروح وأيضاً عندما توجدفى « هذه الملاحق » الملاحظات والفهارس ومعجم المفردات . وكل هذا « ما لايلزم » للكتاب ، لكن العلماء هم « أناس مفسودون » فإن « لزوم » مثل هذه الملحقات « غير اللازمة » أصبح لهم طبيعة ثانية لا يمكن تغييرها .

وعندما كتبت أقسام هذا الكتاب فإن مثل هذه الأفكار لم ترد فى رأسى . لكن عندما بدأ الكتاب يتخذ شكله النهائى رأيت من الضرورى ، إضافة ملحقاتنا «العلمية» العادية . وعن هذا حدثنى بالحاح وإصرار ملاحظات أولئك الأشخاص الذين اطلعوا مصادفة على فصول هذا الكتاب وأشاروا بصفة خاصة إلى إيجاز الفصل الأول حيث كانت هناك أشياء كثيرة لا يفهمها غير المتخصصين بدون تفسير أو إطناب . وحاولت ألا أنجذب « بالنزعات العلمية » وحددت نفسى بالأجوبة على تلك الأسئلة التى توجهوا بها إلى . وكان من غير الممكن إدخال التذييلات أو التعقيبات إلى النص الأصلى نفسه حتى لا يفسد سير العرض .

وكان من الأسهل جعل جميع مواد الملاحق فى النهاية حتى يكون فى إمكان من لا يهتم بهذه الملاحق أو لا يحتاج إليها ، ألا ينظر إليها .

وكان من اللازم قبل كل شيء أن تضاف قليلا كلمات تمهيدية عن أهم سبب استدعى ظهور هذا الكتاب . وعندما كنت أعمل فى تاريخ العلم وفى إعداد معجم تراجم حياة مستعربينا ومؤلفاتهم ، عرقل عملى دائما كون العلماء نادرا ما يتحدثون عن أنفسهم وعن تطورهم الداخلى وعما عاشوه فى هذا العمل أو ذاك ، وعن طريقة وصولهم إلى هذا الاكتشاف أو ذاك . وبالطبع فإن اللحظات الجزئية لكل هذا تنعكس أحيانا فيما يترجم لهم الآخرون من تاريخ حياتهم أو فيما يترجمونه هم أنفسهم من هذا التاريخ . ولكن هذه الانعكاسات تكون دائما فى صورة إشارات عارضة سريعة . ودائما ينشر حاصل نتائجهم العلمية فى مؤلفات خاصة . لكن مثل هذه التراجم لتاريخ الحياة الداخلية للعالم لا مكان لها فى هذه المؤلفات بحكم طبيعتها وأسلوبها وطريقتها .

والمعروف لدى من جميع كتب تاريخ الاستعراب هو كتاب واحد لعالم ألمانى من الدرجة الثانية يذكر فيه بحيوية وحدة ذكاء كيف درس اللغة العربية (هو كتاب Martin Thilo : Was die Araber sagen. Bonn, 1939. ، مارتين تيلو «ماذا يتكلم العرب » ، بون ، ١٩٣٩) . وإن علماء العلوم الطبيعية فى هذه الناحية هم أسعد حظا منا نحن علماء اللغة . فلديهم كتاب رائع لالكسندر فيرسمان هو « ذكرياتهم عن حجر » (موسكو — لينينغراد . طبعة أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى ، ١٩٤٥) . وأن أهمية هذا الكتاب لعظيمة . يتبين هذا لا من إعادة طبعاته فحسب بل ومن الصدى الحى الذى أثاره فى جميع أطراف بلادنا وقد أسهم هذا الكتاب فى دعاية واسعة للعلم ودعم دعما عاليا الحماسة العلمية لدى أولئك الأشخاص الذين احتكوا بهذا الكتاب . وكانت المخطوطات — وهى المصدر الأساسى والمادة الأساسية فى عملنا — تقف دائما فى فكرى بمكان الحجر من هذا الكتاب . وهكذا منذ زمن بعيد صار واضحا لى محور كتابى هذا .

وعندما أخذت الأفكار والصور البشرية تسعى باصرار إلى عرضها على الورق ، فإن الدفعة المباشرة لهذا كانت الاحتفال التذكارى لإيفان بيتشكوف الذى كان مـــدة طويلة أمينا لقسم المخطوطات بالمكتبة العامة المعروفة باسم سالتيكوف — شيدرين فى لينينغراد . وقد احتفل بهذه الذكرى بحرارة فى بداية عام ١٩٤١ . وعند ذاك تولدت عندى فكرة استرجاع ذكرى تلك المخطوطات العربية التى تسلمتها من يده طيلة بضع عشرات من السنين من أجل أعمالى المختلفة. وهكذا تولد الفصل الأول من هذا الكتاب من خمسة أجزاء مع تمهيد وخلاصة وهو أول شىء فى الكتاب انتهى كاملا .

أما الفصول التالية فقد كتبتها بطريقة تختلف بعض الاختلاف وبحجم آخر . وكتبتها بصورة رئيسية فى عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ عندما حملتنى الحرب الوطنية الكبرى على ترك لينينغراد مؤقتا . وعندما وجدت نفسى ، لأول مرة خلال عملى الطويل ، بعيدا عن المكتبات التى ألفتها ، فإننى حزنت حزنا شديداً على المخطوطات ، ووجد فى كتابة ذكرياتى عنها سلوى لنفسى . وانضمت بالتدريج إلى هذه الفصول الثلاثة أقسام تمهيدية أخرى يغلب عليها طابع الذكريات الشخصية. وبما أن الفصول الجزئية لم تولد بذلك النظام المتتابع الذى تتحد فيــه الفصول الموجودة حاليا فى هذا الكتاب فإننى أشرت فى الملاحق إلى تاريخ الانتهاء من كل فصل . وقد تعلمت من عملى فى تاريخ العلم الاستعرابى بأنه يحدث أحيانا الأسف بسبب غياب التواريخ ، ولذلك عندما كان يحدث ارتباط الحوادث بالضبط مع سنيها أشرت إلى هـذه السنين تحت العناوين .

أما الملاحظات الخاصة بالكتاب فقد ظهرت الحاجة إليها بصورة رئيسية من اعتبارين برزا عند قراءة بعض القطع الجزئية من الكتاب على ممثلين مختلفين تماما فى تخصصاتهم . فقد ظهر أن المستمعين يميلون أحيانا إلى قبول أقاصيص الكتاب على أنها نوع من الخيال الأدبى الذى لا يوجد له أى أساس حقيقى محدد . وكان يجب على الرد بأن الأمر على العكس من هذا : فكل أقصوصة، تعبر عن حادث حقيقى مع المخطوطات التى وقعت فى يدى ، وأنه لا يوجد مطلقا أى خيال فى صلب الموضوع . وبالطبع فإننى نسيت بعض التواريخ فى تذكرى

لماض ينتشر فيما يزيد على أربعين عاما ، وأنني غيرت بعض التفاصيل وتحدثت عن بعض الحوارات بصورة ليست مطابقة تماما للصورة التي تمت بها في الواقع ، وأكثر من هذا أنني ، لم استطع أن أجد الاستفسارات الضرورية حتى في كتبي الخاصة . لكن كل الصور لا تعكس إلا حقائق واقعية وشعوري الذي عشته آنذاك . ولربما أن هناك تحريفا في تصوير هذا الشعور بسبب مرور السنين ، إلا أن نفس الحقائق صورت دون أي تغيير فيها .

ومن أجل هذا سمحت لنفسي في ملاحظات الكتاب بأن يتضمن كل جزء تقريبا ، اشارات إلى أعمالي التي تتحدث عن نفس تلك المخطوطات ، أو التي تدلي ببعض المعلومات عنها من الناحية العلمية الخالصة ، وآمل أن تكون هذه الاشارات مفيدة أيضاً لأولئك الذين يريدون أن يحصلوا على معلومات أكثر تفصيلا عن المصادر التي أشير إليها ، أو من أجل فك رموز أي تلميحة طارئة في الكتاب ، وذلك بناء على الرغبات التي أظهرها أولئك المستمعون ، وخاصة فيما يتعلق بالفصل الأول . وبالطبع لم استطع أن أقوم بتفصيل كل هذا بل ولم أرغب فيه ، ذلك لأن مثل هذا العمل قد يجرني بعيداً جداً وعندها قد يصل حجم هذه الملاحظات إلى حجم النص نفسه . وحاولت أن أكون مختصرا وألا أعطي إلا الخيط الرئيسي الذي يساعد من يرغب في توسيع تعرفه بالموضوعات الأساسية التي لمسها الكتاب . ولذلك حددت نفسي بالإشارة إلى أعمالي الخاصة وإلى أرقامها في « قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي » المطبوعة في دار الطبع والنشر لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي . وعند كتابة الأسماء والعناوين في هذا الكتاب ، فإنني بسطت ترجمة رموزها الصوتية العلمية العادية . ولنفس هذا الغرض وضحت بعض الأسماء الشخصية أو أسماء الكلمات العربية أي مجرد تعليقات مختصرة لأولئك الأشخاص الذين يلزمهم هذا .

على أنني أفهم جيداً أن كل هذا لا يمثل ضرورة في كتاب من هذا النوع ، وإن كل هذا من الأمور التي سماها أبو العلاء « لزوم ما لا يلزم » . لكن لعل في هذا الملحق إفادة ما ، فإن العرب يقولون : « زيادة الخير خيرين » . أما أولئك القراء الذين لا يحتاجون إلى ذلك ، فعليهم ألا يلوموني فهم يستطيعون ألا ينظروا إلى هذا الملحق .

ملاحظات

١ — « فى قسم المخطوطات »

١ — « كتاب قديم » . انظر « قصة من الانجيل فى مخطوط عربى (٨٨٥— ٨٨٦ م) » . « التاريخ البيزنطى » ، عـدد رقم ١٤ ، ١٩٠٧ — ١٩٠٩ ، ص ٢٤٦ — ٢٧٥ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٠)* .

٢ — « مترجم كريلوف » . انظر « رزق الله حسون (١٨٢٥—١٨٨٠) ، مترجم أشعار كريلوف إلى العربية » . المجموعة الشرقية — لينينغراد . طبعة المكتبة الحكومية العامة باسم سالتيكوف — شيدرين ، عام ١٩٢٦ ، ص ١٣— ٢٦ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٢) .

٣ — « معاصر هولاكو » . انظر "Angebliche Autographe des Geschichtsschreibers Kamal ad-din Ibn al-Adim in Leningrad", Der Islam, (باللغة الألمانية) ، العدد ١٥ . ١٩٢٦ ، ص ٣٢٤ —٣٣٦ . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٧) . فى هذه الملاحظة إشارة إلى الكتب السابقة عن هذا المخطوط .

٤ — « رهين المحبسين » . قارنه مع « نحو تاريخ ونقد « الرسالة الفلاحية » لأبى العلاء » فى مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » المجلد ٢١ . (١٩١١ — ١٩١٢) ١٩١٣ ، ص ١٣١ . — ١٢٧ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٥٢) .

٥ — « من صقلية إلى بطرسبورغ عبر إيران » . الوصف العلمى لمخطوط الادريسى الجغرافى المحفوظ فى المكتبة العامة ، لم يظهر مطبوعا بعـد .

---

* راجع هنا وما يليها : اغناتى يوليونوفيتش كراتشكوفسكى . موسكو — لينينغراد (مواد حول مؤلفات العلماء السوفييتيين) .

قارن هذا مع كتاب "Idrisi. La Finlande. Edition critique par O. J. Tallgren-Tuulio et A. M. Tallgren" (Studia Orientalia, III, Helsingforsiae). ١٩٣٠ ، ص ١٦ . ملاحظة رقم ٢ (باللغة الفرنسية) .

٢ — « جولات فى الشرق »

١ — « الكتب والناس » . كتبت فى موسكو فى ١٦ —١٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٢ . عن دراساتى فى جامعة القديس يوسف . انظر « الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف فى بيروت . من تقرير عن المأمورية الرسمية ». مجلة وزارة المعارف العامة (باللغـــة الروسية) . شباط (فبراير) ١٩١٠ ، « الأحداث المعاصرة » ص ٤٩ — ٨٧ . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٣) .

٢ — « أمقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟» كتبت فى مصحة «سوسنوفى بور» (« أجمة الصنوبر ») فى قرية بولشيفو قرب موسكو فى ١١—١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ .انظر « أبو العلاء المعرى — رسالة الملائكة . النص والترجمة والتعليقات ». أعمال معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية . مجلد ٣ . لينينغراد ، ١٩٣٢ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٨١) .

٣ — « رسالة ماجيستير غير مكتوبة » . كتبت فى مصحة « سوسنوفى بور » فى ٨ —٩ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ . انظر المخطوطات العربية لمكتبة المجلس البلدى بالاسكندرية. وديوان عمر الحار » مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » . مجلد ٢٢ (١٩١٣ — ١٩١٤) ١٩١٥ . ص ٥—٧ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٦٥) .

٤ — « مخطوطات بطريركين أم نبوءة تحققت » . كتبت فى مصحة « سوسنوفى بور » فى ١٨ —٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٢ . انظر « مخطوطات عربية من مجموعة غريغوريوس الرابع بطريرك أنطاكية . وصف موجز » . مجلة « أخبار المعهد القوقازى للتاريخ والآثار » . مجلد ٢ . (١٩١٧ — ١٩٢٥) ١٩٢٧ . ص ١ — ٢٠ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٣٩) .

٣ — « كتاب عرب ومستعرب روسى »

١ — « فيلسوف وادى الفريكة ». كتبت فى لينينغراد فى ١٩ آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « أمين الريحانى — مؤلفات مختارة . ترجمة وتعليقات ا . يو . كراتشكوفسكى » ، بتروغراد . دار « أوغنى » (« النيران ») للطبع والنشر ١٩١٧ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٩١) . « أمين الريحانى . أشـــعار منثورة . ترجمة ا . يو . كراتشكوفسكى » فى مجموعة « فوستوك » (« الشرق ») . مجلد ١ ، ١٩٢٢ ، ص ٤٨ — ٥٤ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١١٠) .

٢ — « ارستقراطى القاهرة — « الفلاح » » . كتبت فى لينينغراد فى ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٥

٣ — « طالب المدرسة الدينية فى بولتافا » . كتبت فى لينينغراد فى ٦ - ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٥ . انظر "Michail Na'imah's Autobiographie". Die Welt des Islams. مجلد ١٣ ، ١٩٣١ ، ص ١٠٤ — ١١٠ (باللغة الألمانية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٧٩) . وانظر « تقريظ كتاب ميخائيل نعيمة عن جبران » فى مجلة « الاستشراق السوفييتى » . مجلد ٢ ، ١٩٤١ ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٧٢) .

٤ — « فى المتحف الآسيوى »

١ — « مقدمة لأسطورة » . كتبت فى موسكو فى ٢١ - ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٢ . عن تاريخ المتحف الآسيوى حتى ١٩١٩ انظر « المتحف الآسيوى التابع لأكاديمية العلوم الروسية (١٨١٨ - ١٩١٨) . تذكرة قصيرة » . بتروغراد : ١٩٢٠ ، دار الطبع والنشر لأكاديمية العلوم السوفييتية (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٠٢) . وانظر « عن ف . ا . روزنبرغ » ، مقالة تأبين فى مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » ، قسم العلوم الاجتماعية . ١٩٣٥ ، ص ٨٩٥ - ٩١١ . (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى

تحت رقم ٣٤٠) . فى نهاية هذا الفصل إشارة إلى إسطورة عن المتحف الآسيوى ألفت على نمط قصص البطولة الفرنسية القـــديمة لأحد المستشرقين الروس فى الدراسات الصينية فى بداية العقد الثالث من القرن العشرين. وأبطال هذه الأسطورة كانوا مستخدمين فى المتحف الآسيوى فى ذلك الوقت .

٢ — « مخطوط وحيد وعلماء اثنتى عشرة لغة». كتبت فى مصحة « سوسنوفى بور » وفى موسكو فى الفترة بين ٢٤ أيلول (سبتمبر) و ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٩ . عن ابن قزمان انظر فصلا فى كتاب « الشعر العربى فى أسبانيا» فى مجموعة « الثقافة الأسبانية » ، طبعة أكاديمية العلوم السوفييتية ١٩٤٠ ، ص ١١١ — ١١٢ مع فهرس للكتب فى ص ١١٦ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٦) . عن مجموعة روسو فى المتحف الآسيوى انظر مقالة (مؤلف مجهول بخط الأمير السورى أسامة) فى مجلة «أخبار رابطة المستشرقين للمتحف الآسيوى التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية »، مجلد ١ ، ١٩٢٥ ، ص ١٦ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٨١) .

٣ — « معاصر أول غزوة صليبية » . كتبت فى موسكو فى ١٦—١٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٢ . انظر « مؤلف مجهول بخط الأمير السورى أسامة » فى المصدر السابق ، مجلد ١ ، ١٩٢٥ ، ص ١ - ١٨ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١٨١) . قارن هذا مع كتاب « أسامة بن منقذ. كتاب الاعتبار » ، ترجمة م. ا. ساليه . بتروغراد - موسكو ، دار الطبع والنشر « الأدب العالمى » ، ١٩٢٢ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ١١٢) .

٤ — « ربان فاسكو دى جاما » . كتبت فى موسكو فى ٢٩ - ٣٠ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤٢ . ملاحظة قصيرة عن المخطوط مع صورة الصفحة الأولى فى مقالة « الرحالة والجغرافيون العرب » فى مجلة « أخبار الرابطة الجغرافية الحكومية » ، مجلد ٦٩ ، الجزء الخامس ، ١٩٣٧ ، ص ٧٥٨ — ٧٦٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٥٢) .

٥ — « فى المكتبة الجامعية »

١ — « المكتبة وامناؤها » . كتبت فى موسكو فى ٢٥ — ٢٨ آيار (مايو) ١٩٤٣ .

٢ — « معارض رسالة ماجيستير لأول مرة » . كتبت فى مصحة « اوزكويه » قرب موسكو فى ٦ — ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « أحد مصادر تاريخ حياة الشعرانى » فى مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » . مجلد ٢٢ ، ١٩١٥ ، ص ٢٨٣ — ٢٩٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٧٢) ، قارن هذا مع تقريظ كتاب (ا . ا . شميدت . عبد الوهاب الشعرانى وكتابه « الدر المنثور » ، بطرسبورغ ، ١٩١٤ » ، فى مجلة وزارة المعارف العمومية ، نيسان (أبريل) ١٩١٥ ، ص ٣٨٨ — ٤٠٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٧٥) .

٣ — « من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبوغ » . كتبت فى مصحة « اوزكويه » فى ٩ — ١١ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « الشيخ الطنطاوى استاذ جامعة سانت — بطرسبورغ (١٨١٠ — ١٨٦١) » فى مجلة « أعمال لجنة تاريخ المعرفة » ، عدد ٨ . لينينغراد ، ١٩٢٩ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٦٦) . قارن هذا مع « الاستعراب وتاريخ الشعوب السوفيتية) فى مجلة (أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية) ، عدد ٥ ، ص ٥٩ — ٦٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٠) .

٤ — (الأندلس ولينينجراد) . كتبت فى مصحة (اوزكويه) فى ١٣ — ١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر (استعراب الأسبانى فى نصف قرن) فى مجلة (أخبار رابطة المستشرقين للمتحف الآسيوى التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية) ، مجلد ٤ ، ١٩٣٠ ، ص ١ — ٣٢ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٦٨) . وعن د . ك . بتروف انظر (د.ك. بتروف — المستعرب) فى المصدر السابق ، مجلد ٢ ، ١٩٢٦ ، ص ٦٣ — ١٧٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢١٥) .

٦ — من سار على الدرب وصل

١ — « لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ » كتبت فى مصحة « اوزكويه » فى ٢٤ — ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر (لوحتا خطوط أثرية من جنوب جزيرة العرب فى لينينغراد) فى مجلة (أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية) قسم العلوم الاجتماعية ، ١٩٣١ ، ص ٤٢٧ — ٤٥٣ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٧٧) .

٢ — « رسالة من بلاد الصغد » . كتبت فى مصحة « اوزكويه » فى ١٩—٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٣ انظر « أقدم وثيقة عربية من آسيا الوسطى » فى « المجموعة الصغدية » ، لينينغراد ، ١٩٣٤ ، طبعة أكاديمية العلوم السوفييتية ، ص ٥٢ - ٩٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣١٢) .

٣ — قرآن كوفى و « جدة عربية » » . كتبت فى لينينغراد فى ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢ . عن ا . غ . نوفل أنظر « مخطوط جديد عن وصف الروسيا للشيخ الطنطاوى » فى « خطب أكاديمية العلوم السوفييتية . سلسلة الاستشراق » . لينينغراد ، ١٩٢٨ ، ص ٣٠٢ ، ملاحظة رقم ٢ (باللغـــة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٥١) .

٤ — « المراقب الملازم لشامل فى كالوغا » . كتبت فى مصحة « أوزكويه » فى ٢٨ — ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٤٣ . انظر « رسالة غير مطبوعة لشامل » فى مجلة « أخبار معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفييتية » ، مجلد ٢ ، ١٩٢٣ ، ص ١ — ٧ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٩٢) . « ترجمة القرآن . د . ن . بوغوسلافسكى » فى مجلة « الاستشراق السوفييتى » . مجلد ٣ ، ١٩٤٥ ، ص ٢٩٣ — ٣٠١ (باللغـــة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٤٠٢) . وانظر « تشيرنيشيفسكى والمستشرق سابلوكوف » . وانظر « ن . غ . تشيرنيشيفسكى (١٨٨٩ — ١٩٣٩) » ، من أعمال الدورة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته . لينينغراد ، ١٩٤١ ، ص ٣٤ — ٤٥ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٧٨) .

وانظر « الإستعراب وتاريخ الشعوب السوفييتية » فى مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » ، عدد ٥ ، ١٩٣٨ ، ص ٥٧ — ٥٩ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٣٦٠) .

٧ — « ظل الأجـــداد »

١ — صريع الأدب العربى » . كتبت فى لينينغراد فى أول آب (أغسطس) ١٩٤٥ . انظر « حماسة البحترى وأول باحث لها فى أوربا » فى مجلة « أخبار القسم الشرقى لرابطة علماء الآثار الروسية » ، مجلد ٢١ ، (١٩١١ —١٩١٢) ١٩١٢ ، ٢٢ — ٣٣ . (باللغة الروسية).(قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم٤٩).

٢ — « كركاس « الوديع » . كتبت فى لينينغراد فى ٥ آب (أغسطس) ١٩٤٥ انظر « ف . ف . كركاس . بمناسبة ذكرى الأربعين لوفاته » فى مجلة « أخبار رابطة المستشرقين للمتحف الأسيوى » ، مجلد ٣ ، ١٩٢٨ ، ص ٦٤-٩٠ (باللغة الروسية) . (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٣٨) .

٣ — « نصف قرن على مخطوط واحد » . كتبت فى لينينغراد فى ٩ — ١٠ آب (أغسطس) ١٩٤٥ انظر « الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف فى بيروت» فى مجلة وزارة المعارف العامة (الروسية) شباط (فبراير) ١٩١٠ فى «الأحداث المعاصرة » ، ص ٧٧ —٧٨ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكى تحت رقم ٢٣) .

نحو قصة الكتاب

فى جلسة قسم الاستعراب بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى فى ١٣ أيار (مايو) ١٩٤١ ، قرىء لأول مرة الفصل الأول من هذا الكتاب . وكان هذا الفصل يحمل فى ذلك الوقت طابعاً مستقلا بذاته . وقرئت لأول مرة فصول أخرى فى جلسة لجنة طبع الكتب العلمية الشعبية لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى فى ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٣ . وأول إشارة إلى إعداد الكتاب وقراءة بعض قطعة كانت فى مجلة (أخبار أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفييتى ، عدد ٧-٨ ، ١٩٤٣ ، ص١٢٦ . وأول طبعة للكتاب نشرت فى ١٩٤٥ والثانية فى ١٩٤٦ . وبعض الفصول طبعت فى سلسلة مكتبة « أوغونيوك » (« الشعلة ») فى ١٩٤٨ ، العددان الثامن والتاسع .

الترجمات

ترجم نقلا عن الصورة الخطية إلى اللغة العربية فصل « من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو فى بطرسبورغ» ، ونشر فى مجلة «المستمع العربى» (المجلد الخامس ١٩٤٤ . العدد ١٥ ، ص ٤-٥ ، والعدد ١٦ ، ص ٦-٧ ، والعدد ١٧ ، ٦-٧ (٩ و ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) و ٩ كانون الأول (ديسمبر) مع الصور) .

وفى مجلة "International Literature" (العدد ٩ . ١٩٤٥ ، صص ٤٥ . ٤٥-٤٦ ، ٤٦-٤٨ ، ٤٨-٥٠) نشرت باللغة الإنكليزية ترجمة موجزة للفصلين التاليين ، نقلا عن الطبعة الروسية الأولى : « الكتب والبشر » و « أمقالة نحوية أم رسالة الحادية ؟ » وترجمة أوسع للفصلين التاليين : « رسالة ماجيستير غير مكتوبة » و « رسالة من بلاد الصغد » . وترجمت الفصول نفسها إلى اللغة الفرنسية فى مجلة "La littérature soviétique" ١٩٤٦ ، ص ص ٤٤-٤٥ . ٤٥-٤٦ ، ٤٦-٤٨ . ٤٨-٥١ ؛ وإلى اللغة العربية فى مجلة « الوطن » ، العدد ٢٤ ، ١٩٤٦ ، صص ١٠-١١ و ١١-١٢ ، والعدد ٢٥ ، صص ١٦-١٩ ، والعدد ٢٦ ، صص ١٥-١٨ (١٥ و ٢٦ كانون الثانى (يناير) و ٢ شباط (فبراير) ، ترجمة قطان) وفى مجلة «الكاتب المصرى» ، المجلد الرابع ، العدد ١٣ ، تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٦ ، صص ١٥٠-١٦١ (ترجمة سعدو) . ونشرت ترجمة مجلة «الوطن» بشكل كراس على حدة تحت عنوان « الدراسات العربية فى الاتحاد السوفييتى» ، بغداد ، مطبعة المعرى ، ١٩٤٦ ، صص ٣٧-٣٩ ، ٣٩-٤٤ ، ٤٤-٥٤ ، ٥٤-٦٨ .

وفى مجلة "Revue Africaine" (العدد ٤٠٦-٤٠٩ ، ١٩٤٥ ، صص ١٣٠-١٣٩ ، ترجمة كانار) نشرت باللغة الفرنسية ، نقلا عن الطبعة الروسية الثانية ترجمة فصل « ارستقراطى القاهرة — « الفلاح » » ونشرت فى مجلة "Literatura sovietica" (العدد ١٢ ، ١٩٤٦ ، صص ٥٣-٥٥ و ٦٣ ، ترجمة اتشيفاريا) باللغة الأسبانية ترجمة فصل « مخطوط وحيد وعلماء « اثنتى عشرة لغة » .

وقد صدرت حتى أيامنا هذه الترجمات التالية لكل الكتاب :

I. J. Kratschkovski. Uber arabische Handschriften gebeupt. Erinnerungen an Bücher und Menschen. Aus dem Russischen von Dr. Oscar P. Trautmann, Leipzig, 1949.

Ignacy Kraczkowski. Nad arabskimi rekopisami. Kartki ze wspomnien o ksiegach i ludziach. Przelozy oraz wstepem i przypisami opatrzy Ananiasz Zajaczkowski. Warszawa, 1952.

Among Arabic Manuscrips, Memories of Libraries and Men by I. Y. Kratchkovsky. Translated from the Russian by Tatiana Minorsky, Leiden, 1953.

Avec les manuscrits arabes. (Souvenirs sur les livres et les hommes) par I. Kratchkovsky. Traduit du russe par M. Canard. Alger, 1954. (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, XIV).

ونقله إلى العربية في دمشق الأستاذ سامى الدهان(*)، وإلى التشكية فى براغ؛ الدكتور هربيك (Hrbek).

التقــاريظ

الطبعة الروسية الأولى

ن. ف. بيغوليفسكايا . مجموعة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » ، العدد ٤٣ ، ١٩٤٥ ، ص ص ١١٣-١١٤ (باللغة الروسية) .

س. ريسير. مجلة « زفيزدا » . العدد ٤ ، ١٩٤٥ ، ص ص ١٠٠-١٠١ (باللغة الروسية) .

م. ف. تشوراكوف . كتاب ممتع. جريدة « ليننغرادسكايا برافدا » ، العدد ٢٠٩ (٩٢٤٤) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية) .

Moscow News, XV Year, N 78, 29 September, 1945, 4.

مجلة «نوفى مير» ، العدد ٨ ، ١٩٤٥ ، ص ١٣٤-١٣٥ (باللغة الروسية).

---

* لم يصدر ..

سيرغى ماركوف. كتاب الدر المنثور « ليتيراتورنايا غازيتا » ، العـدد ٤٩ (٢٢٦٠) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية) .

ب. ن. زاخودر. الكتب والبشر . مجموعة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » ـ سلسلة التاريخ والفلسفة . المجلد الثانى ، العدد ٥ ، ١٩٤٥ ، ص ص ٣٩١-٣٩٢ (باللغة الروسية) .

International Literature, N 9, 1945, 45.

ف: م. شتين. حديث فى إذاعة لينينغراد . بداية حزيران (يونيو) ١٩٤٥ (باللغة الروسية) .

ف . سيمينوف . النشرة التوجيهية لمكتبة لينين . الإذاعة . ٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٥ (باللغة الروسية) .

ا. سادوفسكى. حياة العالم . جريدة «فيتشيرنى لينينغراد» . العدد ٩١/٧٥ ، ١٩٤٦ ، ص ٢ (باللغة الروسية) .

البروفسور ن. سميرنوف. مجلة « سوفييتسكايا كنيغا » ، العدد ٢ ، ١٩٤٦ ، ص ص ٨٩-٩٢ (باللغة الروسية) .

ميخائيل نعيمة. مجلة « الطريق » . السنة ٥ . العدد ٣ ، ١٩٤٦ ص ص ٥-٧ .

F. Gabrieli. L'autobiografia scientifica di Ignatio Krackovskij. Oriente Moderno. XXVI, N 1-6, 1946, 37-41.

La littérature soviétique, N 2, 1946, 44.

ا. قطان. مجلة «الوطن» ، العدد ٢٤ ، ١٩٤٦ ، ص ١٠ .

الطبعتان الأولى والثانية

ى. بيلايف. أعمال معهد الاستشراق فى موسكو ، العدد ٤ ، ١٩٤٧ ، ص ص ١٠٥-١١٥ (باللغة الروسية) .

الطبعة الثانية

M. Canard. Quarante ans sur les manuscrits arabes. Revue Africaine, N 406-409, 1945, 118-119.

ى. سكر-جنسكايا. مجلة « أخبار أكاديمية العلوم السوفييتية » . العدد ١٠ ، ١٩٤٦ ، ص‌ص ١٢٩-١٣٣ (باللغة الروسية) .

S. Kara-Murza. Memorias del Academico Ignati Kratchkovski. Literatura sovietica, N 12,1946, 62-63.

I. Mecerian, Mélanges de l'Université Saint Joseph, XXVI, Beyrouth, 1944-1946, 138-139.

ك. غريغوريان. كتاب عن عمل العالم ، جريدة «كومسومولسكايا برافدا» ، العدد ٦٧٠٦/٧٤ ، ١٩٤٧ (باللغة الروسية) .

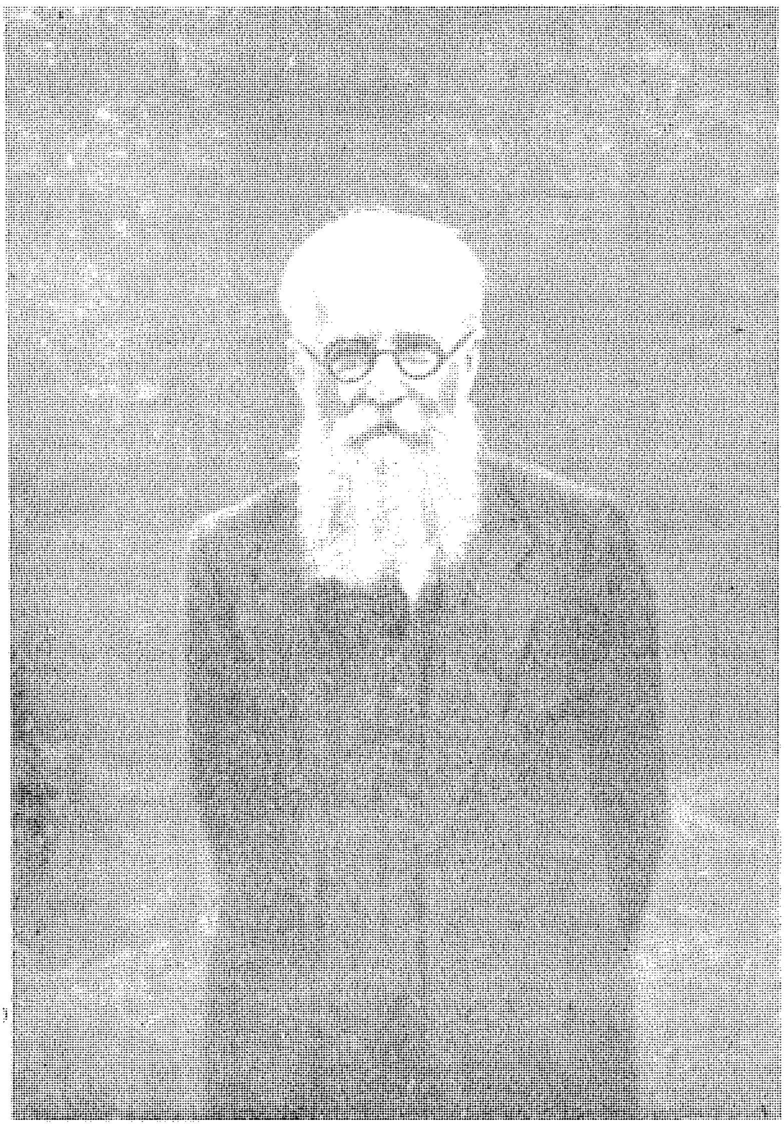
ك. غريغوريان. كتاب عن فرحة العالم الكبرى . مجلة «أخبار أكاديمية العلوم الأرمنية » — العلوم الاجتماعية . العدد ٥ ، ١٩٤٧ ص ص ٩٥-٩٨ (باللغة الروسية) .

ب. ى. — مجلة حول « العالم » . العدد ٦ ، ١٩٤٧ ، ص ص ٦٣-٦٤ (باللغة الروسية) .

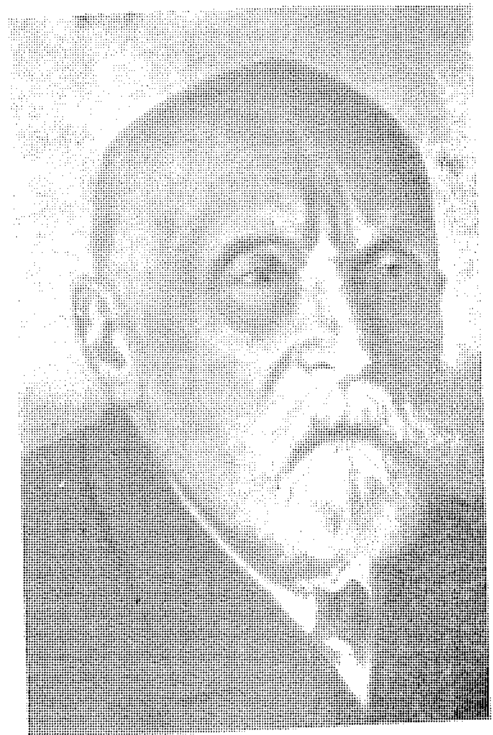
س. ماركوف . ربان فاسكو دى غاما . مجلة « حول العالم » ، العدد ١٢ ، ١٩٤٧ ، على الغلاف . (باللغة الروسية) .

محتويات الكتاب

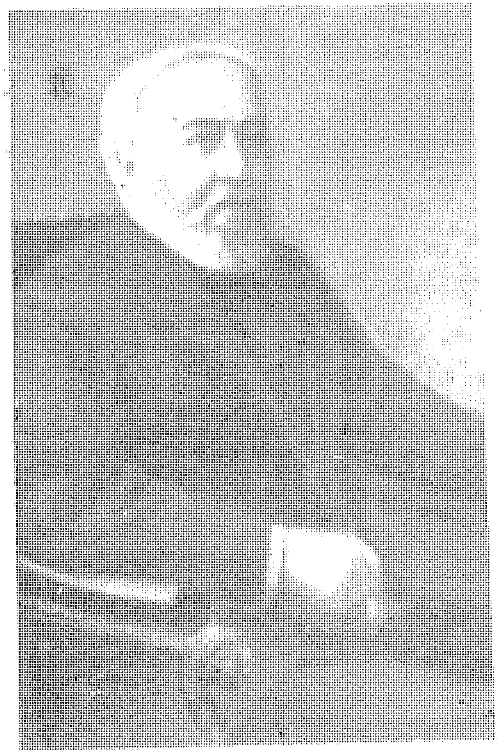
رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٠/٢٢٩٦



الاكاديمى ا. يو كراتشكوفسكى (١٨٨٣ ـ ١٩٥١) فى صيف ١٩٤٩ .



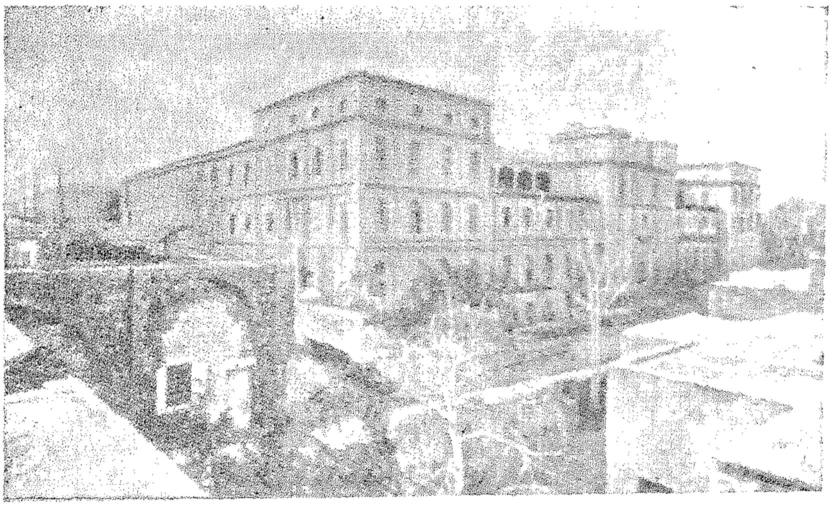
ا. ا. بيتشكوف (١٨٥٨ ـ ١٩٤٤)



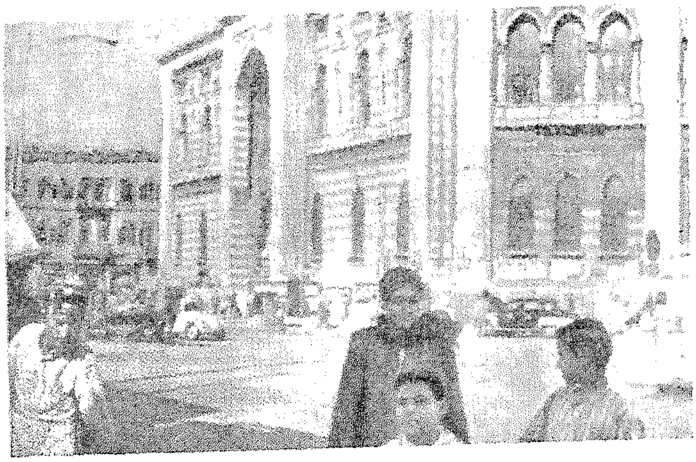
الاكاديمى ف. د. روزن (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨)



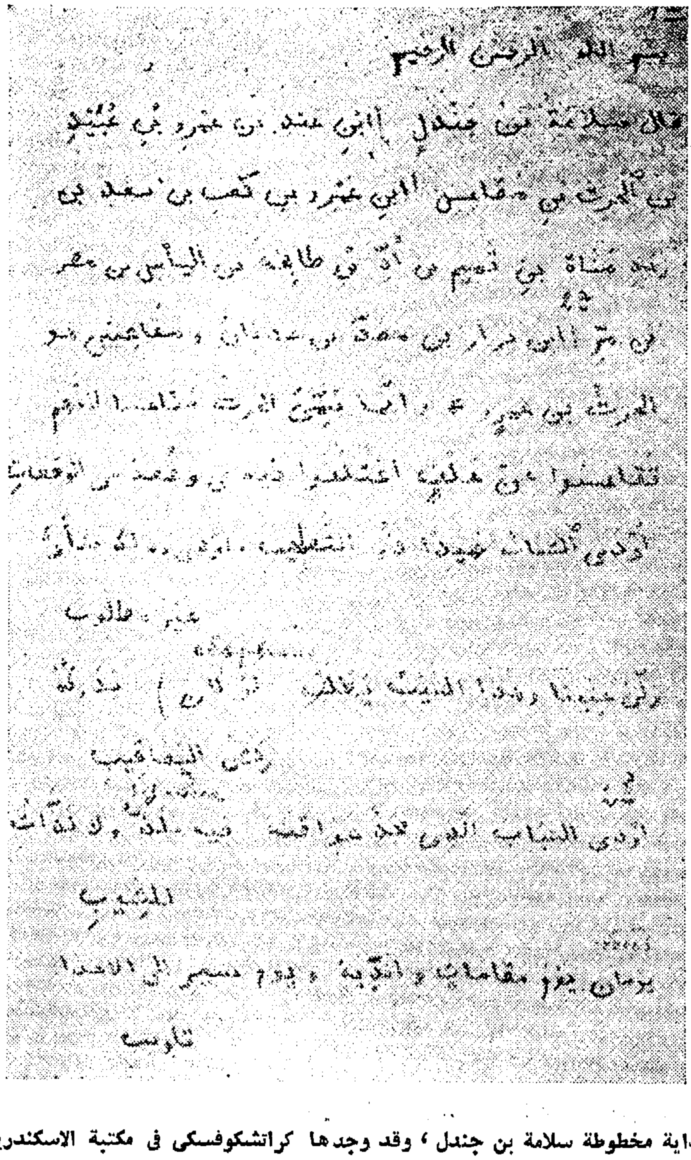
جلساء كراتشكوفسكى فى ١٣ نيسان (ابريل) ١٩١٠ فى القدس : الاستاذ فى جامعة قازان ثم جامعـة باكو بندلى صليبا جـوزى ، وجميـل الخالدى ، صاحب المخطوطات ، والشاعر اسعاف النشاشيبى ، والمعلم السكاكينى .



جامعة القديس يوسف في بيروت .



المتحف العربي في القاهرة . صورة البروفسور أ. أ. بيكوف ، عام ١٩٦٠ .


بسم الله الرحمن الرحيم

قال سلامة بن جندل ابن عبد بن عمرو بن عبيد

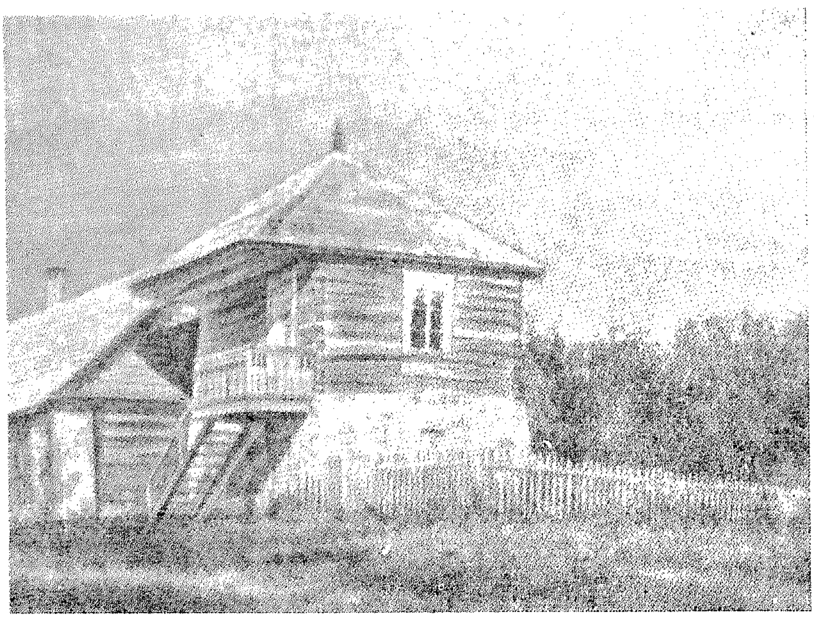
بن الحرث بن مقاعس ابن عمرو بن كعب بن سعد بن

زيد مناة بن تميم بن اد بن طابخة بن الياس بن مضر

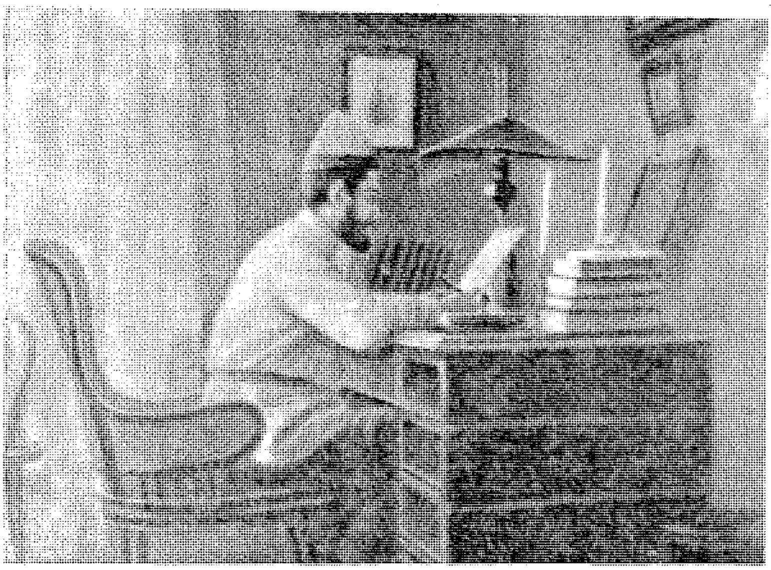
بداية مخطوطة سلامة بن جندل ، وقد وجدها كراتشكوفسكى فى مكتبة الاسكندرية
خط كراتشكوفسكى من المذكرات ٢١ شباط (فبراير) ١٩٠٩ .



النصب التذكارى على قبر الاكاديمى كراتشكوفسكى فى مقبرة فولكوفو بلينينغراد .
وقد كتب على الدرابيزون البرونزى هذا الشطر من بيت شعر لابى العتاهية :
الموت باب وكل الناس داخله



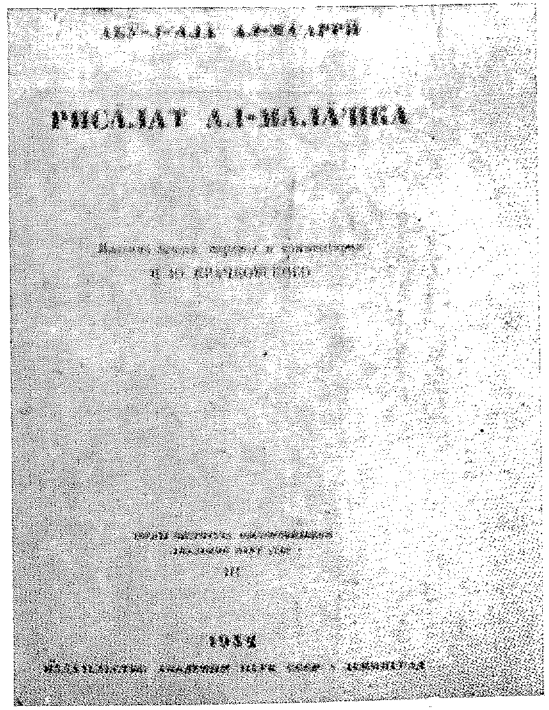
مكتبة والد كراتشكوفسكي . لوحة بالالوان المائية لفيرا كراتشكوفسكايا . سنة ١٩١٥ م



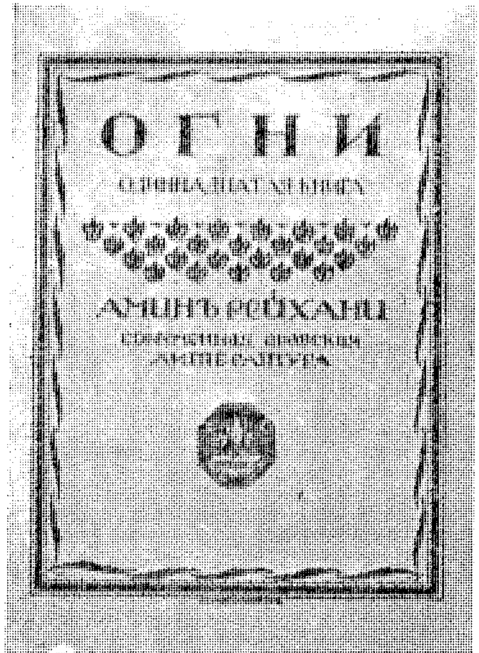
الطالب فى الصف الرابع من جامعة بطرسبورغ ا. يو. كراتشكوفسكى يـكتب بحث
« الخليفـة المهدى » فى صيف ١٩٠٤



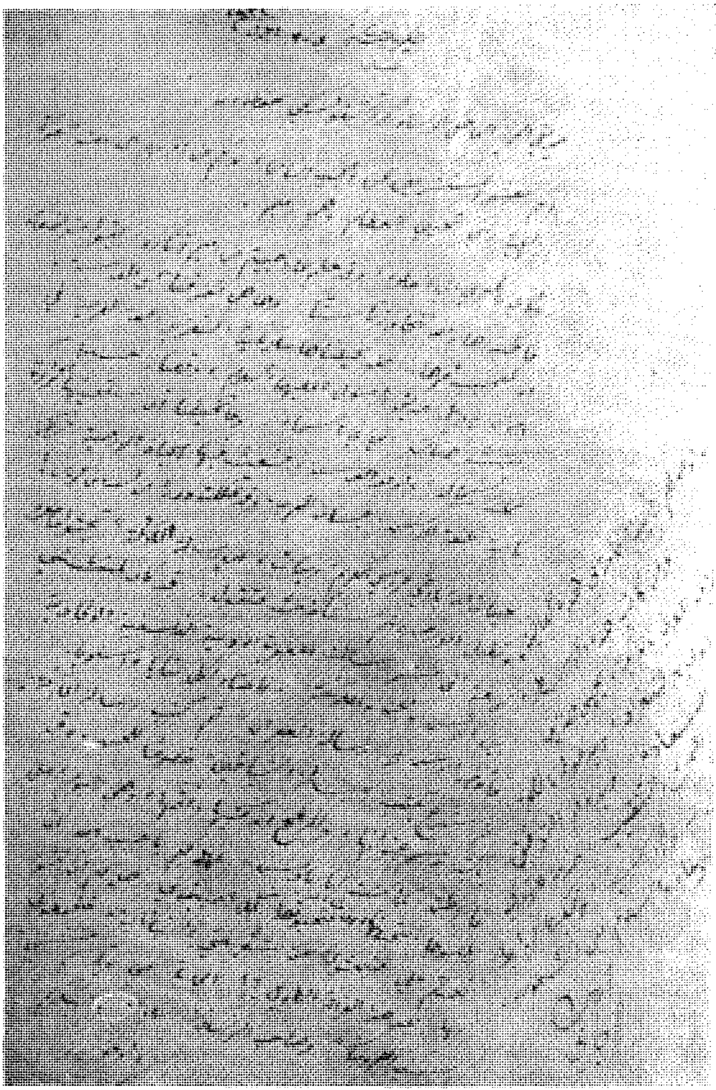
أبو العلاء المعرى (٣٦٣ ـ ٤٤٩) هـ ـ ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) بريشة الكاتب
اللبنانى الاديب والرسام جبران خليل جبران
(١٨٨٣ ـ ١٩٣١)



الصفحة الاولى لمؤلف ابى العلاء المعرى « رسالة الملائكة » الذى وجده كراتشكوفسكى فى مكتبة الازهر فى كانون الثانى (يناير) ١٩١٠ ، وقد طبع فى لينينغراد سنة ١٩٣٢ .



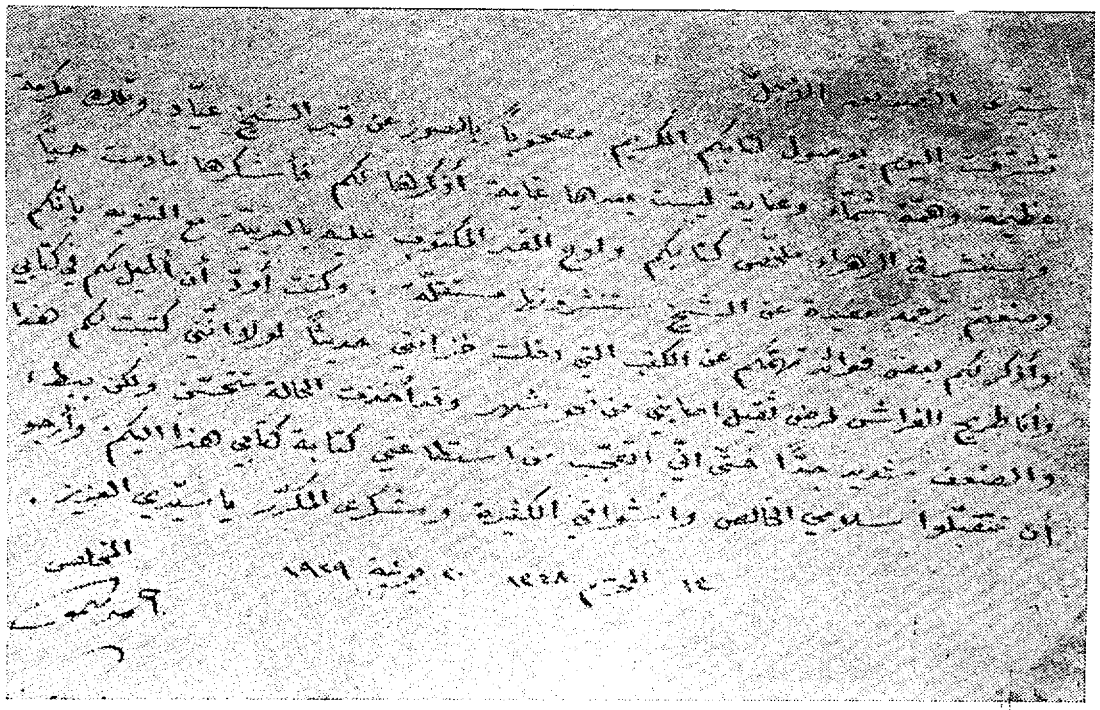
غلاف كتاب أمين الريحانى من ترجمة كراتشكوفسكى . صدر فى بطرسبورغ سنة ١٩١٦



رسالة من أمين الريحاني . الفريكة ـ لبنان ، ٣٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٣٢ .



أمين الريحاني (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠)



سيدي الصديق الأجل

تشرفت اليوم بوصول كتابكم الكريم مصحوباً بالصورة عن قبر الشيخ عباد وهي طرفة لطيفة وهدية ثمينة وعناية ليست بعدها عناية أذكرها لكم فأشكرها ما دمت حياً وسننشر في الزهراء ملخص كتابكم وأول القبر المكتوب عليه بالعربية مع التنويه بأنكم وضعتم ترجمة مفيدة عن الشيخ ستنشر في مقالة مستقلة. وكنت أود أن أطيل لكم في كتابي وأذكر لكم بعض فوائد رقمتها عن الكتب التي دخلت خزانتي حديثاً لولا أنني كتبت لكم هذا وأنا طريح الفراش لمرض ثقيل أصابني من نحو شهر وقد أخذت الحالة تتحسن ولكن ببطء والضعف شديد جداً حتى إني أتعب من استطاعتي كتابة كتابي هذا إليكم. وأرجو أن تتقبلوا سلامي الخالص وأشواقي الكثيرة وشكري المكرر يا سيدي العزيز.

١٢ المحرم ١٣٤٨   ٢٠ يونية ١٩٢٩

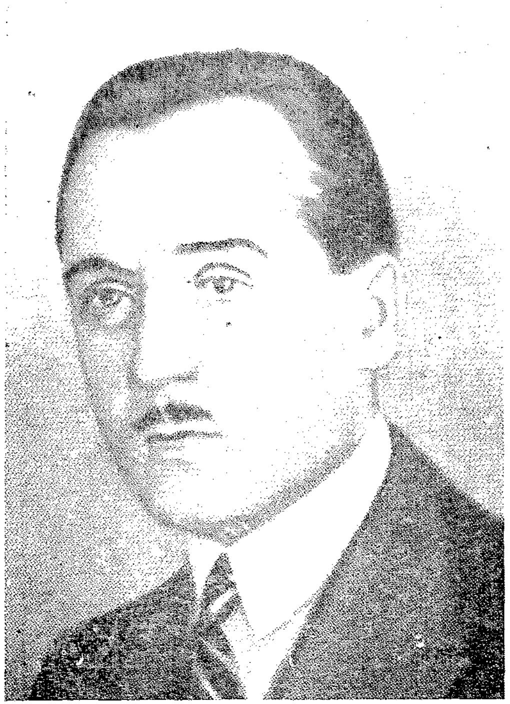
المخلص

أحمد تيمور

رسالة من أحمد تيمور بتاريخ ١٢ محرم ١٣٤٨ /٢٠ حزيران (يونيو) ١٩٢٩ .



ميخائيل نعيمة (مولود سنة ١٨٨٩)



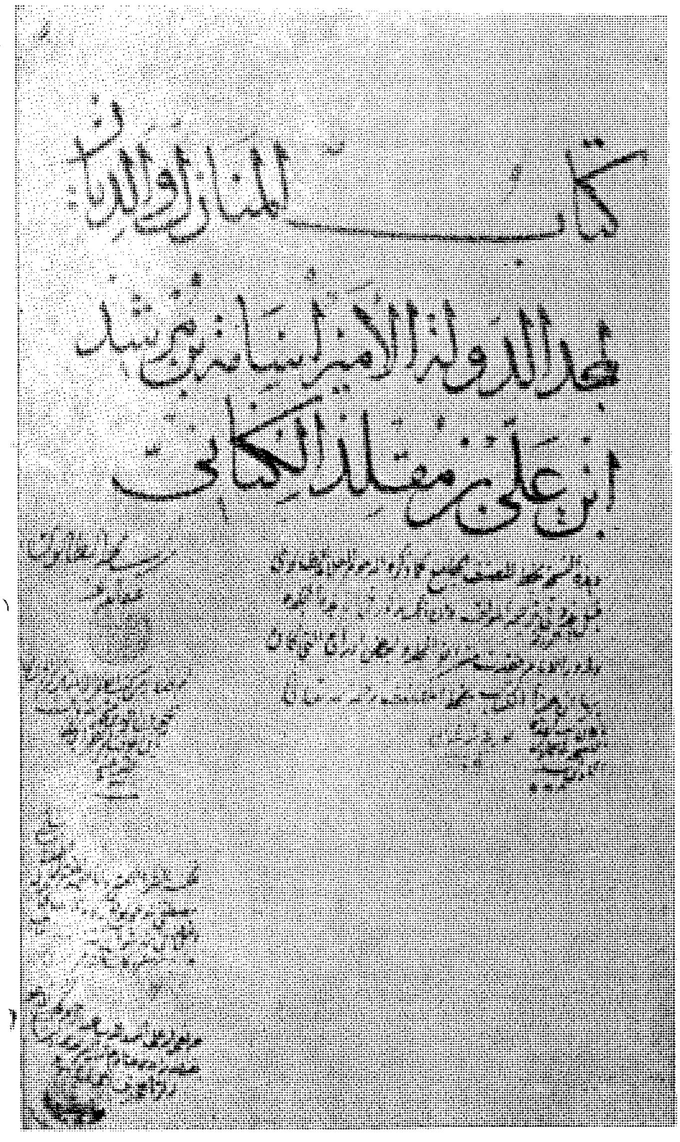
محمود تيمور (مولود سنة ١٨٩٤)



القسم العربى فى المعهد الشرقى بلينينغراد عام ١٩٢٨ . الجالسون فى الوسط قرب الطاولة : ابنة الناصرة ك.ف. عودة ــ فاسيلييفا (المعلمة كلثوم عودة) ، البروفسور كراتشكوفسكى ، د. ف. سيميونوف (الاستاذ سابقا فى مدرسة الجمعية الفلسطينية ــ توفى فى لينينغراد سنة ١٩٤٢) .



ديوان ابن قزمان . مخطوطة معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفييتية .
مجموعة روسو ، البيتان ١٧ و١٨ .



أسامة بن منقذ. كتاب المنازل والديار. ٥٦٨ هـ/١١٧٢ م. عنوان مخطوطة معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفييتية.



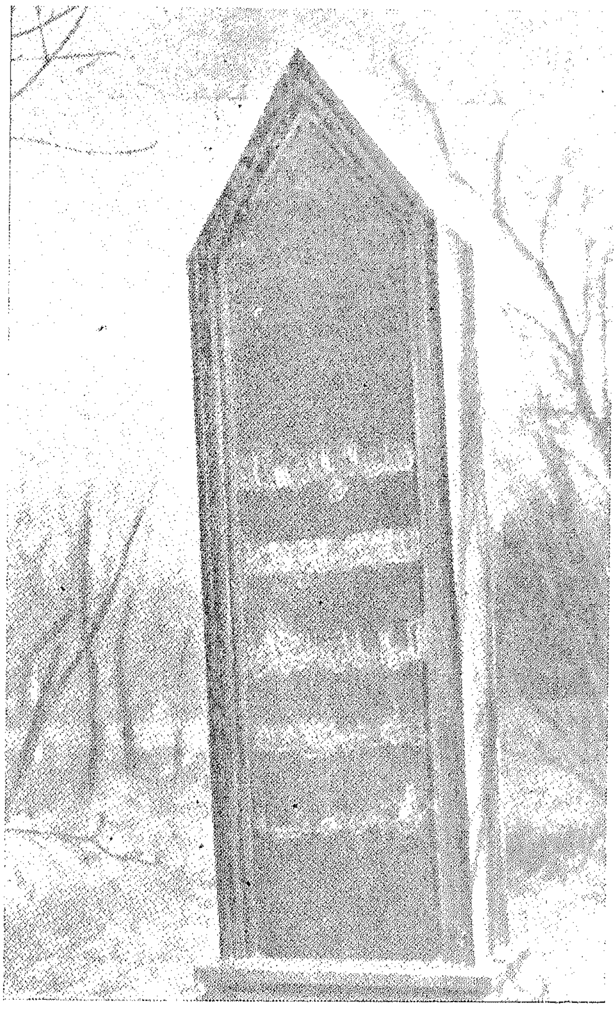
ا. ا. شميدت (١٨٧١ – ١٩٣٩) الاستاذ المحاضر في كلية اللغات الشرقية بجامعة بطرسبورغ .



الاكاديمي خ. د. فرين (١٧٨٢ – ١٨٥١)



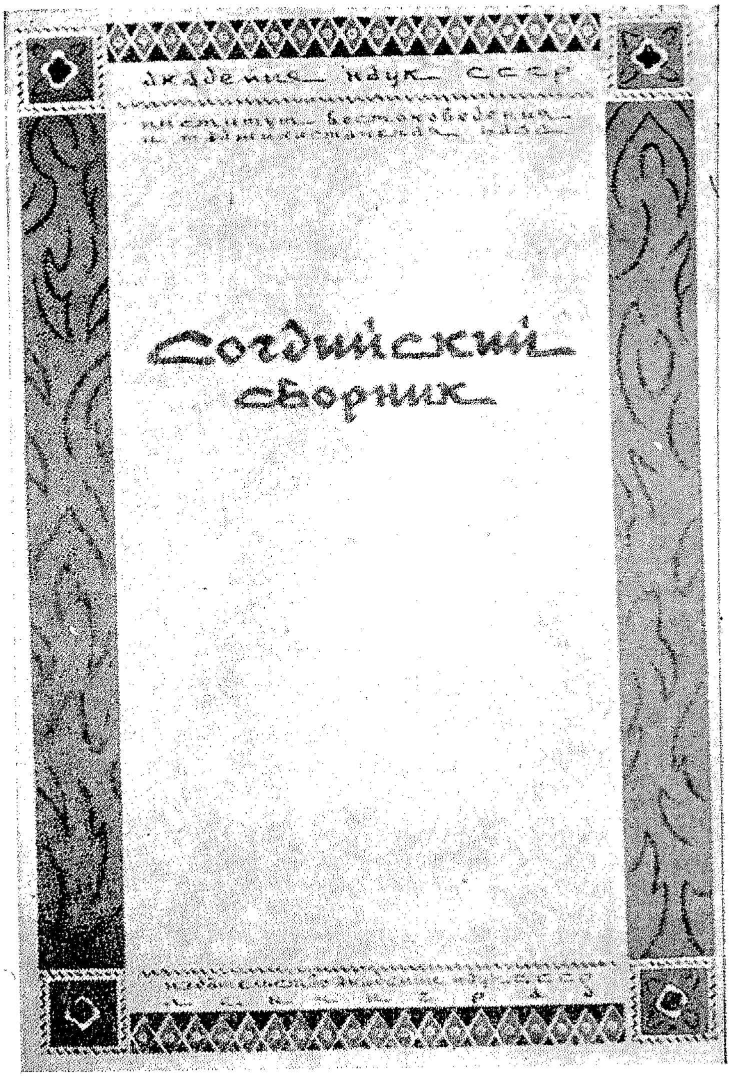
الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥ ـ ١٢٧٨ هـ ١٨١٠ ـ ١٨٦١ م) .



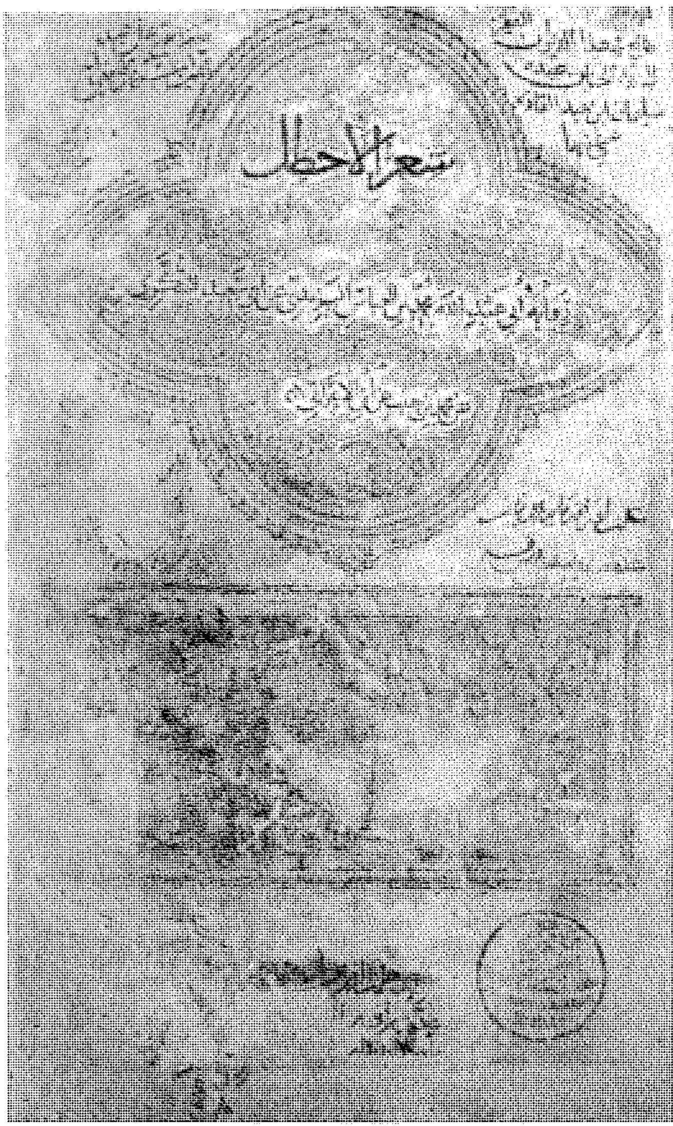
رخامة على ضريح الشيخ محمد عياد الطنطاوى فى مقبرة فولكوفو الاسلامية
فى لينينغراد .



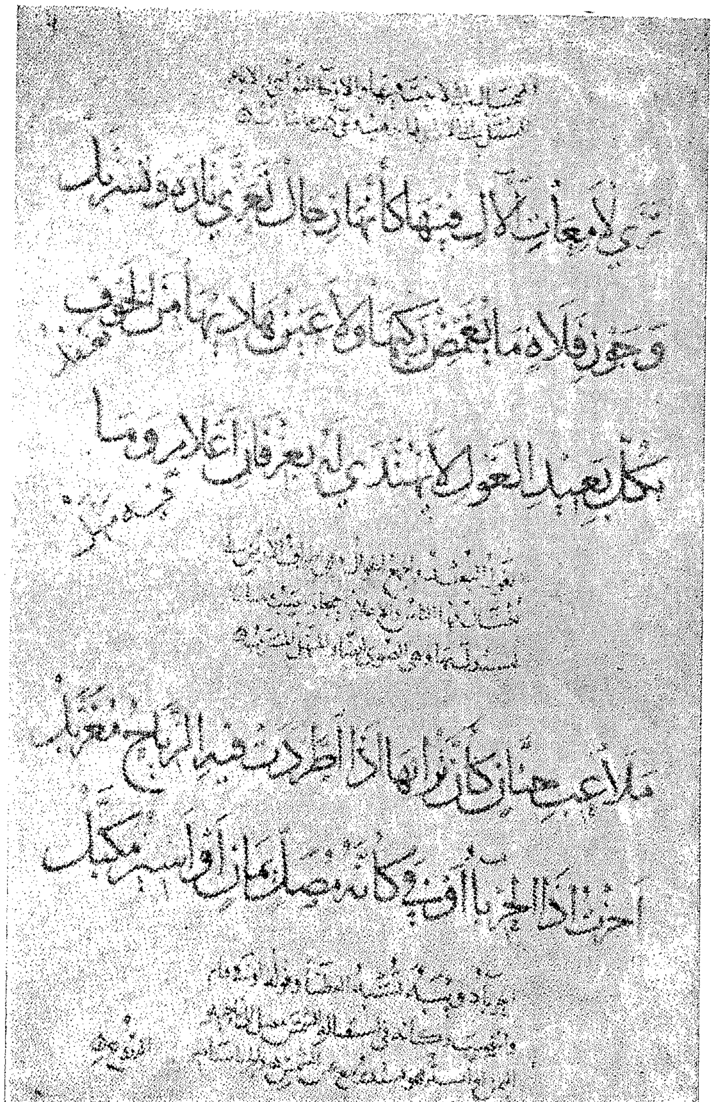
لوحة برونزية من اليمن عليها كتابة سبئية .



مجموعة صغدية . الغلاف . لينينغراد ، ١٩٤٣ .



شعر الاخطل . عنوان مخطوطة من مجموعة ايتالينسكي . لينينغراد ، معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفييتية .



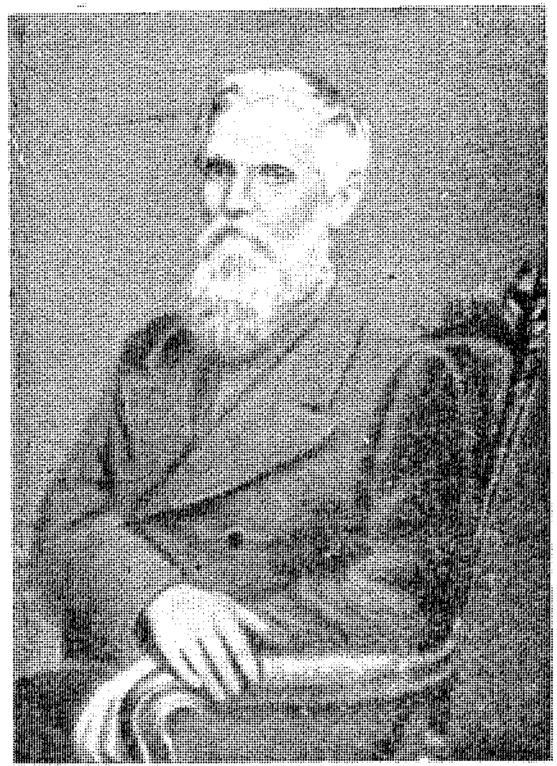
شعر الاخطل . الصفحة الرابعة من مخطوطة فى مجموعة ايتالينسكى . لينينغراد ، معهد شعوب آسيا لدى أكاديمية العلوم السوفييتية.



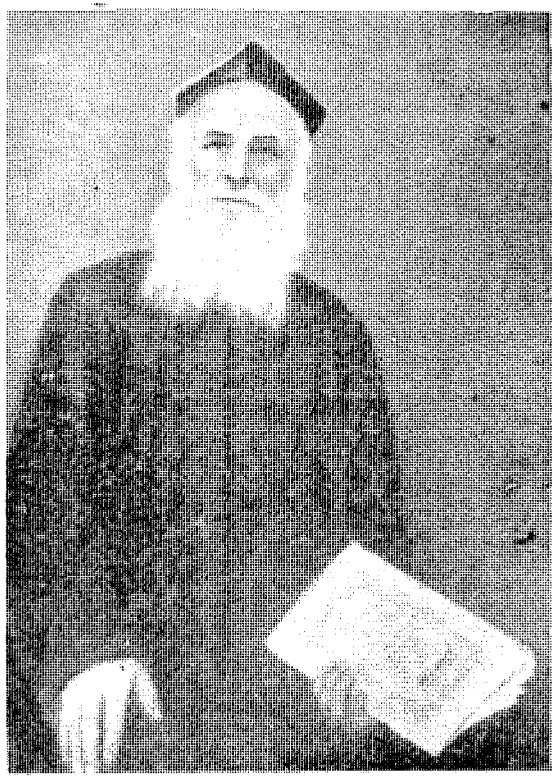
ا. یا. ریسکه (١٧١٦ – ١٧٧٤)



ف. ف. کرکاس (١٨٣٥ – ١٨٨٧)



غ. س. سابلوكوف (١٨٤٧ – ١٩١١)



انطون صالحاني (١٨٤٧ – ١٨٤١)